نحو وعى حضارى معاصر
سلسلة الثقافة الاثريه والتاريخية
مشروع المائة كتاب

١٨

صفحات مشرقة
من
تاريخ مصر القديم

تأليف
دكتور محمد إبراهيم بكر

وزارة الثقافة
هيئة الآثار المصرية

تصميم وتنفيذ : آمال صفـــوت الألفـــى
مطابع هيئة الآثار المصرية

نحو وعى حضارى معاصر
سلسلة الثقافة الاثريه والتاريخية
مشروع المائة كتاب

١٨

صفحات مشرقة
من
تاريخ مصر القديم

تأليف

دكتور محمد إبراهيم بكر

تمثال من الحجر الجيرى الملون لكاتب من سقارة
حاليا فى المتحف المصرى بالقاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

« نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا

اليك هذا القرآن وان كنت من قبله لمن الغافلين »

صدق الله العظيم

* * *

تقــــديم

غايتى أن أقدم لعشاق مصر صورة أقرب ما تكون الى الصدق لما كانت عليه حضارتها القديمة . تمهيدا لمزيد فى البحث والدراسة للتعرف على أقدم حضارات الأرض قاطبة التى تغنى أهلها بعظمتها منذ القدم . وكانوا روادا فى كل مجال ، وبسواعدهم وفكرهم أرسيت كل البدايات فى تاريخ البشرية .

هنا بدأ التاريخ يسطر أولى صفحات الإنسانية على درب الحضارة ، يشهد لمصر بالريادة فى الفنون والعلوم والآداب والقوانين ونظم الحكم والسياسة والاقتصاد وأساليب الحياة المستقرة والمعاملات . وازدهر الفكر الدينى حتى وصل إلى أقصى مراحل التوحيد والإيمان بالبعث واليوم الآخر . وفى أرض مصر أشرقت الحكمة اذ يقول أحد حكماء مصر منذ ما يربو على خمسة وعشرين قرنا « ابحث عن المعرفة حيثما تكن فربما تجدها لدى جارية تقضى عمرها أمام الرحى » .

وعندما نمت الشعوب من حول مصر امتد عطاء حضارتها ليشملها بلا استثناء ، فكانت لها اليد الطولى على حضارات البحر المتوسط عندما عبرت البحر إلى جزيرة كريت وإلى بحر ايجه وبلاد اليونان والرومان وحضارات العراق وفارس ، وانتقل إشعاعها إلى النوبة وشمال السودان وإلى الحبشة ، ثم امتد غربا نحو حضارات تشاد وليبيا والجزائر ووادى النيجر .

وانه لمذهل حقا أن تبدأ الدراسات اليوم فى شتى فروع العلوم والفنون والآداب بما حققه فكر الحضارة المصرية فيها من خطوات رائدة .

ويقدم هذا البحث قبسا من هذا الفكر الحضارى المتقدم ، الذى أسهم بالفكر والعمل مبينا مختلف المشاعر الإنسانية ، حتى أضحت حضارة مصر زينة الدنيا ومعجزة العالمين ، وشاهد ذلك آثار ناطقة بالكلمة والرسم والنقش وآيات النحت والعمارة وعلم الفلك وعمق العقيدة وجلال تأثيرها على معالم الحضارة .

ولتكن محاولتى هذه يدا ممدودة تصافح كل من أحب مصر ، من أهلها أو من سواهم . فحضارتها ملك للعالم أجمع ، كالشمس الساطعة .

ولا يمكن أن أنسى فضل أساتذتى الكرام ، أحمد بدوى وهيرمان كيس وفرتز هنتزا وغيرهم ممن تعلمت على يدهم وأفدت من فيض علمهم وتأييدهم .

والشكر الجزيل لكل من عاون فى اخراج هذا الكتاب .

والله ولى التوفيق ..

دكتور محمد ابراهيم بكر

الفصل الأول

بداية الاهتمام بالحضارة المصرية

لم يكن العالم الحديث يعرف عن أمجاد مصر القديمة حتى زمن الحملة الفرنسية إلا النزر اليسير ، وذلك من خلال بعض ما كتبه الرحالة الإغريق والرومان القدماء وبعض ما ورد عن الشرق فى الكتب المنزله كما جاء فى كتاب العهد القديم ، ثم ما ورد فى القرآن الكريم عن مصر ، وقوم فرعون ، وقصة خروج اليهود منها على يد نبى الله موسى عليه السلام . وعندما انتقل مركز الثقافة الحضارى من مصر وبابل إلى اليونان ، وأصبح الإغريق سادة العالم القديم ، شرعوا يبحثون عن الأصول الأولى للحضارة الإنسانية فولوا وجوههم شطر مصر . فحضر إلى مصر كثير من المفكرين والرحالة الاغريق لينهلوا من المنابع الأصلية للفكر والفن .

أقدم الرحالة والمؤرخين :

وأقدم أولئك الرحالة هو هيكاتيوس الملطى الذى زار مصر حوالى سنة ٥٢٠ ق.م ، وكتب عن الحياة المصرية بعد أن عاش بين كهنة آمون ومال إلى ديانتهم .

فما أن أقبل الرحالة الاغريقى هيرودوت Herodot أشهر أولئك الرحالة الأوائل على الإطلاق والملقب بأبى التاريخ فى منتصف القرن الخامس ق.م حين كانت مصر تحت نير الاحتلال الفارسى ، حتى وجد عالما عجيبا ــ على حد قوله ــ وحضارة تميل نحو المغيب ، فأخذ يجمع معلوماته مما تبقى فى أذهان أولى العلم ، وكانت المعرفة وقفا على الكهنة فى ذلك الحين . ووصل هيرودوت فى ترحاله إلى أسوان ، وفيما وراء أسوان إعتمد على الرواية وأحيط علما بكثير من دقائق الحياة المصرية ، ولكن الصواب جانبه فى كثير منها . مكث هيرودوت فى مصر حوالى أربعة أشهر دون فيها كل ما رأى وما سمع ، وسجل كل ذلك فى كتابه الثانى الذى اختص به مصر

وأهلها ، ضمن مؤلفه الضخم « تمحيص الأخبار » الذى تحدث فيه عن أسفاره فى العالم القديم . وبدا واضحا كيف أضحت الكتابة المصرية مجرد رسوم وصور ، وإلى أى مدى صارت العقائد وكأنها ألغاز سيطر عليها السحر . وغدت الآثار القديمة كأنها غريبة فى دارها . وكانت حصيلة كل ذلك صورا مشوهة لمصر القديمة قدمت للعالم الإغريقى ، ومنه إلى العالم القديم (١) .

إلا أن الأمر اختلف كثيرا عندما أتيحت الفرصة لمؤرخ وطنى كى يكتب تاريخا لبلاده فى زمن البطالمة خلفاء الاسكندر فى مصر ، الذين سيطروا على أمور الحكم فيها حوالى ٣٠٠ سنة . فقد كلف الملك بطلميوس الأول سنة ٢٨٦ ق.م كاهنا مصريا من معبد إيزيس فى سمنود عاصمة الإقليم الثانى عشر من أقاليم الدلتا (الذى مازالت أطلاله باقية فى منطقة وسط الدلتا بالقرب من فرع النيل الشرقى فى محاذاة مدينة المنصورة فى الموقع المعروف باسم بهبيت الحجر) يدعى مانيتون Manetho بكتابة مؤلف تاريخى لمصر القديمة . وكان مانيتون إلى جانب معرفته لغة بلاده يتقن الإغريقية التى ألف بها ما يربو عن الثمانية مؤلفات عن العقائد والتقاليد الدينية . فشرع ينقب فى وثائق المعابد التى كانت بمثابة دور المحفوظات للأقاليم المختلفة فأخرج كتابه (Aigyptiaka) تاريخ مصر ، الذى يعد من أهم مصادر تاريخ مصر القديمة . فمانيتون هو صاحب فكرة تقسيم تاريخ مصر القديمة إلى أسر حاكمة بلغت الثلاثين . وعنه نقل من أتى بعده ، وقد ضاع المؤلف الأصلى لمانيتون ، وقيل أنه راح ضحية حريق مكتبة الإسكندرية الذى ذكر أنه حدث قبيل الفتح الإسلامى لمصر ، ولم يبق منه إلا قوائم بأسماء الملوك وأسرهم فقط ، ووصلتنا أخبارها عن طريق غيره ، ممن نقل عنه من المؤرخين أمثال يوسف اليهوذى Josephos فى القرن الأول الميلادى فى كتابه « الرد على أبيون » Contra Apionem ، والمؤرخ جوليوس أفريكانوس Julius Africanus حوالى عام ٢٢٠ م وكذا المؤرخ يوزيبوس Eusebius عام ٣٢٠ م .

وفى حوالى نهاية القرن الرابع قبل الميلاد حضر إلى مصر فيلسوف الإغريق العظيم أفلاطون ليستقى الحكمة والمعرفة ويلم بأصول المعتقدات والمعارف

المصرية ، وأحضر معه شحنة من الزيت يتجر فيها وليتمكن بذلك من تغطية نفقات رحلته.

ويلى هيرودوت فى الأهمية المؤرخ ديودور الصقلى Diodoros Siculus (من حوالى ٨٠ ــ حوالى ٣٠ ق.م.) الذى زار مصر عام ٥٩ ق.م. وكان النفوذ الرومانى حينذاك مسلطا على الجزء الأكبر من العالم القديم . وكتب عن مشاهداته فى الكتاب الأول من مكتبته التى ضمنها أربعين مؤلفا . ثم الرحالة استرابون Strabo الذى زار مصر حوالى الربع الأخير من القرن الأول قبل الميلاد ثم عرج على بلاد الشرق القديم ، وقد خص مصر وأثيوبيا (الحبشة) بالكتاب الأخير من كتبه.

ولعل خير من كتب بعد ذلك عن مصر هو المؤرخ الاغريقى بلوتارخ Plutarchus ٤٦م ــ ١٢٠م الذى زار مصر بعد أن دخلت فى حوزة الرومان . واشتهر بكتاباته عن العقائد المصرية ، وكتب عن الأسطورة المصرية الشهيرة إيزيس وأوزيريس (De Iside et Osiride) .

وبعد ذلك دخل تاريخ مصر والشرق القديم فى متاهة النسيان ، ولم يعد يتردد إلا من خلال كتابات غامضة تغلفها الخرافة والخيال ، فلقد وردت اشارات مختلفة عن مصر فى كتابات المؤرخين العرب ، فالمقريزى (١٣٦٤ / ١٤٤٢م) ــ وهو مصرى من القاهرة ــ قد وهب نفسه للتاريخ المصرى والآثار القديمة ، وأهم مؤلفاته « المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار » وهو عبارة عن تاريخ لمصر وآثارها القديمة . ثم الأسيوطى ١٤٤٥ ــ ١٥٠٥م الذى كتب عن تاريخ مصر القديمة والحديثة فى ذلك الوقت بالإضافة إلى تاريخ الخلفاء الراشدين فى مؤلف حمل اسم « حسن المحاضرة » .

وتلك المؤلفات العربية بالإضافة إلى ما سبق ذكره من المؤلفات الإغريقية كانت إلى ما قبل حملة نابليون على مصر هى المرجع الأساسى بالنسبة لتاريخ مصر القديم .

الخليفة المأمون والهرم الأكبر :

وقد روى عن الخليفة المأمون بن هارون الرشيد أنه أمر بفتح الهرم الأكبر فى الجيزة ظنا أنه يضم كنوزا دفينة ، وقال المقريزى عن ذلك : « وكذلك اتفق للمأمون فى هدم الأهرام التى بمصر وجمع الفعلة لهدمها فلم يحل بطائل وشرعوا فى نقبه فانتهوا إلى جو من الحائط الظاهر وما بعده من الحيطان ، وهناك كان منتهى هدمهم وهو إلى اليوم فيما يقال منفذ ظاهر » .

« ويزعم الزاعمون أنه وجد ركازا بين تلك الحيطان والله أعلم » (نقلا عن مقدمة ابن خلدون الكتاب الأول ـــ الباب الرابع ، الفصل الرابع ، الصفحة ٦٢٥) .

الحملة الفرنسية وآثار مصر :

ومما يؤثر عن نابليون بونابرت ـــ بعد أن تم له فتح مصر فى أواخر القرن الثامن عشر ـــ أنه وقف مرة فوق ربوة الجيزة ، التى تضم بين جنباتها منطقة الأهرامات ، وتمثال أبى الهول ، وأشار إلى تلك الآثار التى صارعت الزمن فكتب لها الخلود وقال لجنده : « أن أربعين قرنا من الزمان ترقبكم » .

وكان لفريق العلماء الفرنسيين وعددهم ١٥٠ عالما بالإضافة إلى عدد من كبار الرسامين الذين رافقوا نابليون بونابرت فى حملته على مصر الفضل فى إعادة الكشف عن أمجاد الحضارة المصرية القديمة ، إذ انتشروا فى جميع أرجاء البلاد يسجلون كل ما شاهدوه من آثار البلاد بالرسم والوصف الدقيقين . وخرجوا على العالم الحديث بمجموعة أسفار « وصف مصر » (Description de l'Egypte) ابتداء من عام ١٨٠٩ . فكانت إشارة البدء نحو الاهتمام بدراسة آثار وادى النيل وحب اقتنائها ، سواء فى مجموعات خاصة أو للمتاحف العامة . وعكف فريق من أنشط الباحثين على دراسة الكتابات الهيروغليفية ومحاولة فك رموزها حتى توجت أعمالهم أخيرا بالنجاح . ويعود الفضل الأكبر فى ذلك النجاح إلى العالم الفرنسى الشاب شامبليون Champollion الذى عاش فى الفترة من ١٧٩٠/١٢/٢٣ إلى ١٨٣٢م ، فهو قد أخذ فى جمع كل ما

أمكن الحصول عليه من النصوص الهيروغليفية على الآثار المصرية ، سواء الموجودة منها فى حوزة الأفراد ، أو فى المتاحف وعلى المسلات ، وأهمها تلك الكتابات المدونة على ما اصطلح على تسميته باسم حجر رشيد (Rosetta Stone) (لوحة رقم ١) . وهو قطعة من حجر البازلت الأسود عثر عليها أحد ضباط الحملة الفرنسية فى يوليو سنة ١٧٩٩ بالقرب من مدينة رشيد Rosetta عند مصب فرع النيل الغربى ، أثناء العمل فى اعداد أحد الخنادق ، نقلت من قبل من مدينة سايس لبناء قلعة ، ولقد سجل على سطح الحجر مرسوم أصدره مجمع الكهنة فى منف ، لتمجيد وتحية الملك بطلميوس الخامس ، الملقب بالظاهر (Epiphanis) سنة ١٩٦ ق.م. بمناسبة عيد جلوسه الأول ، وفيه يعدد الكهنة أفضال الملك عليهم . ويقررون اقامة تماثيله فى كافة المعابد ، وإعلان يوم ميلاد الملك ومناسبة تتويجه أعيادا عامة فى كل البلاد . ولقد نقش نفس المرسوم على حجر رشيد بثلاث كتابات الأولى باللغة المصرية المصورة (الهيروغليفية) والثانية باللغة المصرية الشعبية (الديموطيقية) وهى كتابة مبسطة عن الهيروغليفية ظهرت متأخرة نسبيا . أما الكتابة الثالثة فكانت اليونانية القديمة . ذلك لأن الإغريق (اليونانيين) كانوا يؤلفون عنصرا أساسيا من عناصر سكان مصر أيام حكم البطالمة .

وهكذا حصل شامبليون على فرصة ثمينة ، اذ أتاحت له معرفته باليونانية أن يقارن بينها وبين ما يقابلها فى النصوص المصرية الهيروغليفية والديموطيقية ، وفى سنة ١٨٢٢م قدم رسالة إلى الأكاديمية الفرنسية وعنوانها :

Lettre a M. Dacier, relative l'alphabet des hieroglyphes Phonotiques أعلن فيها فك رموز الكتابة المصرية ، ثم واصل شامبليون أبحاثه وزياراته للمتاحف ، كما قام بزيارة لمصر والنوبة سنتى ١٨٢٨ ، ١٨٢٩ ليتعرف عن قرب على تلك الحضارة-التى أفنى من أجلها سنوات عمره القصير ١٧٩٠/١٢/٢٣ ـــ ١٨٣٢م .

وهكذا وضع شامبليون الأساس لعلم الدراسات المصرية ، وكشف النقاب عن بعض أسرار اللغة المصرية التى ظلت فى طى النسيان ما يقرب من أربعة عشر قرنا من

الزمان ، أى منذ زمن الامبراطور الرومانى ثيودسيوس الأول ، Theodosios ٣٧٨م — ٣٩٥م والذى أمر بتحطيم كل آثار الوثنية فى جميع أنحاء الامبراطورية الرومانية ، ومن بينها الآثار المصرية وذلك عام ٣٩١م . وجدير بالذكر أن حجر رشيد كان قد انتقل من أيدى رجال الحملة الفرنسية إلى أيدى البريطانيين عندما أخفقت الحملة عام ١٨٠١م واستقر أخيرا فى المتحف البريطانى بلندن ، بعد أن أصر البريطانيون على أن يكون حجر رشيد ضمن الآثار المصرية الهامة الأخرى التى تسلم إليهم بوساطة الفرنسيين . طبقا لنصوص الاتفاقية التى أبرمت بين الطرفين .

الآثار المصرية تنتقل إلى أوربا :

ومنذ ذلك الحين.أخذت الآثار المصرية تكتسب المزيد من الباحثين الأوربيين وعلى الأخص من فرنسا وألمانيا وبريطانيا وايطاليا وفى روسيا . وتبع ذلك الاهتمام محاولات مستمرة غير منظمة للكشف عن الآثار المصرية والحصول على أكبر قدر منها ونقله إلى متاحف أوربا . ومن ناحية أخرى فقد أصبح للآثار المصرية القديمة فى نظر أغنياء أوربا سحر خاص ، فسعوا بكل الوسائل لتكوين مجموعات خاصة بهم ، وفى سبيل اشباع تلك الرغبة ، ومن أجل المكاسب المادية الهائلة ، تألفت جماعات لسرقة الآثار المصرية ، وساعدها فى تهريبها قناصل الدول فى زمن الضعف السياسى . وتعرضت الآثار المصرية لهزة عنيفة من جراء تخريب تلك العصابات الذى امتد حتى وصل آثار سودان وادى النيل . فبعض الميادين العامة فى مدن أوربا وأمريكا الشمالية ، كالفاتيكان فى روما وكونكورد فى باريس ، وعلى ضفاف التيمز فى لندن ، إزدانت بالآثار المصرية حيث أعيد اقامة المسلات المصرية الضخمة المنقولة من أماكنها الأصلية فى المعابد المصرية بمدينة هليوبوليس أو بطيبة أو بغيرها . والمسلة المصرية المقامة على ضفاف نهر التيمز بلندن لها قصة : ذلك أن الملك تحتمس الثالث كان قد أمر بإقامتها فى مدينة هليوبوليس ، إلا أن رجال الملك رمسيس الثانى عادوا وأضافوا إسم ملكهم على المسلة ، وفى زمن البطالمة نقلت المسلة من هليوبوليس إلى مدينة الإسكندرية عاصمة ملكهم . وفى بداية العصر الرومانى فى مصر أقيمت المسلة

فى العام الثامن عشر من حكم القيصر أغسطس قبل مطلع التاريخ الميلادى . وفى القرن الماضى أهداها محمد على باشا سنة ١٨١٩ إلى بريطانيا ، ورفعت من مكانها وسط الرمال بالإسكندرية ووضعت فى إسطوانة معدنية سحبتها سفينة وأبحرت نحو بريطانيا . ولكن العاصفة فاجأت السفينة أثناء رحلتها عند خليج بسكاى أمام الساحل الفرنسى ، فاضطر ربانها للتخلص من المسلة . ولكنه عاد بعد هدوء الجو وبحث عنها فوجدها عائمة ، فأعاد سحبها إلى أن أقيمت فى مكانها الحالى على ضفاف التيمز .

أما المسلة المصرية التى نصبت بالقرب من حديقة سنترال بارك العامة وهى أكبر حدائق نيويورك فقد أقيمت فى عام ١٨٨١م .

وفى المتاحف الأوربية عناصر معمارية كبيرة ، كانت أصلا أجزاء من المعابد والمقابر المصرية القديمة ، وتماثيل صغيرة وكبيرة ، ومومياوات ، وتوابيت ، وأوراق بردى ، وأدوات مختلفة مما كان يستعمل فى الحياة اليومية ، امتلأت بها أقسام كاملة فى متحف اللوفر بباريس والمتحف البريطانى بلندن ومتاحف برلين وألمانيا وبوشكين بموسكو وارميتاج بلينجراد بالاتحاد السوفيتى والجلبتوتيك بكوبنهاجن بالدنمارك ، وليدن بهولندا ومتاحف الولايات المتحدة الأمريكية كمتحف الفن فى بوسطن ومتحف بروكلين فى نيويورك ، وفى كندا كمجموعة متحف انتاريو الملكى بتورنتو .

☆☆☆☆☆

الفصل الثانى

فك رموز الكتابة المصرية

حجر رشيد :

عثر الضابط الفرنسى واحد أعضاء الحملة الفرنسية على مصر المدعو بيير بوشار P. Bouchard على الحجر الذى عرف فيما بعد بإسم حجر رشيد فى أغسطس سنة ١٧٩٩ . أثناء إعداد التحصينات لمواجهة قوات الحملة الفرنسية للهجوم البريطانى ، وذلك فى قلعة جوليان بالقرب من مدينة رشيد ، غير بعيد من مصب فرع النيل الغربى ، وكان الحجر قد نقل من مكانه الأصلى ليعاد استعماله فى بناء جدران تلك القلعة . ولم يدر بخلد المكتشف أنه قد وضع يده على المفتاح الذى أمكن بواسطته التعرف على أسرار اللغة المصرية ، وقد دون على الحجر المصنوع من البازلت الأسود ثلاث كتابات اثنتان مُنهما مصريتان : الهيروغليفية ، وهى الكتابة المصورة ثم الديموطيقية ، وهى الكتابة الشعبية المبسطة ، والثالثة هى الإغريقية . وتبين أنها تتضمن وثيقة تعود إلى سنة ١٩٦ ق.م زمن الملك بطلميوس الخامس الملقب بالظاهر وقد كان واضحا منذ البداية أهمية هذا النقش ، كما أشير حينذاك إلى إمكانية الاستفادة من النص الإغريقى فى ترجمة الكتابتين المصريتين . ولكن ذلك لم يتحقق إلا بعد مرور ثلاثة وعشرين سنة أخرى ، عندما تمكن عالم الآثار الفرنسى شامبليون من فك رموز الكتابة والتعرف على اللغة المصرية .

المحاولات المبكرة :

فى سنة ١٨٠٢ عملت ترجمة إنجليزية للنص الإغريقى ، تلتها ترجمة فرنسية ، أوضح صاحبها ان النص على حجر رشيد يتضمن وثيقة يعلن فيها « بعض كهنة (الإسكندرية أو مكان آخر قريب منها ؟) الشكر والاعتراف بالجميل للملك بطلميوس الخامس الملقب بالظاهر » .

أما النص الديموطيقى على الحجر فقد قام بدراسته الدبلوماسى السويدى المقيم فى باريس المدعو اكربلاد Akerblad سنة ١٨٠٢ ، واستطاع قراءة أسماء الأعلام الديموطيقية ومقارنتها بمثيلاتها فى النص الإغريقى كما تعرف على كلمات أخرى مثل كلمة « معابد » و « الإغريقى » ، وكذلك تعرف على الضمير المذكر للغائب المفرد . ولكن اكربلاد لم يستطع التقدم فى محاولاته. لأنه اعتقد أن الكتابة المصرية مكونة فقط من حروف الفبائية .

ويعتبر توماس يونج Tomas Young أول من تبين أن الكتابة المصرية بالخطين الهيروغليفى والديموطيقى عبارة عن علامات تعبر عن أصوات Phonetics ، واكتشفت أيضا أن الأسماء التى تكتب داخل الخرطوش (أو الرسم البيضاوى) هى أسماء ملكية ، واستعان كذلك بنقش آخر ذى نص مزدوج يشتمل على الإغريقية والهيروغليفية ، عثر عليه فى فيلاى (فيلا)جنوب أسوان سنة ١٨١٥ . ومن المفارقات النادرة أن يتوصل كلا من الباحث البريطانى يونج والعالم الفرنسى الشاب شامبليون إلى نتائج متقاربة فى فك رموز الكتابة المصرية على الرغم من بعد الصلة بينهما . فقد بدأ يونج فى محاولاته الناجحة برفض النتيجة الخاطئة التى توصل اليها أكربلاد ، والتى أدت إلى تجميد محاولاته لفك الرموز . وتأكد أن الكتابة المصرية ليست كتابة الفبائية ، وإنما هى كتابة صوتية . واتضح له أن النظام المتبع فى كل من الكتابتين الهيروغليفية والديموطيقية واحد تقريبا . وعندما لاحظ أن النص الاغريقى يحتوى على كلمات تتكرر فى عدة مواضع من النص ، اتخذ ذلك أساسا لتقسيم الكتابات الثلاثة إلى مجموعات واعتبرها كلمات عددها ست وثمانين كلمة أو مجموعة ، وكان هذا التقسيم صحيحا فى مجمله. ولكن الصواب جانبه فى محاولة تحديد أصوات كل مجموعة ، وفى محاولة ايجاد الكلمات المقابلة لها فى اللغة القبطية .

نجاح المحاولات :

وفى سنة ١٨٢٢ استطاع شامبليون أن يصحح قائمة الحروف المصرية التى توصل اليها يونج من قبل ، وأن يضيف اليها .

وعن طريق فك رموز الأسماء الملكية توصل شامبوليون إلى معرفة طريقة الكتابة المصرية . ولكن التعرف على اللغة المصرية نفسها أصبح ممكنا بمساعدة اللغة القبطية ، وهى آخر مرحلة من مراحل اللغة المصرية مكتوبة بحروف يونانية . مضافا اليها سبع حروف من الكتابة الديموطيقية ، ومازالت القبطية مستعملة حتى الآن فى الكنائس المصرية . ولم تكن هناك مشكلة بالنسبة لقراءة الأسماء الملكية المكتوبة باللغة المصرية من العصرين اليونانى والرومانى لأنها فى مجملها مكتوبة بطريقة الحروف الهجائية مثل بطليموس وكليوباتره ويرنيكى ، أو الاسكندر وبعض أسماء الأباطرة الرومان المكتوبة على الآثار المصرية مثل تبريوس ودوميتيان وتراجان .

فكلمة بطلميوس وجدت مكتوبة على كل من حجر رشيد وعلى مسلة فيلاى ومنها أمكن التعرف على حروف :

ب ت و ل م ى س

وعلى مسلة فيلاى أمكن التعرف على اسم كليوباتره وفيها الحروف :

ك ل ى و ب ا ت ر ا ت

وبنفس الطريقة أمكن قراءة اسم الاسكندر الأكبر :

ا ل ك س ى ن د ر س

ومن خلال قراءة اسم الملك رمسيس على الآثار المنسوبة اليه فى أقوال المؤرخين أمكن التعرف على العلامة « مس » والتى عثر عليها فى اسم الملك تحتمس أيضا . هكذا .

وبعد أن قدم شامبليون رسالته الشهيرة إلى الأكاديمية الفرنسية يشرح فيها طريقته فى فك رموز اللغة المصرية نشر عام ١٨٢٤ بحثه القيم تحت عنوان :

Précis du systême hiéroglyphique

وبعد وفاة شامبليون المبكرة ، تابع العلماء أبحاثهم بجمع الجديد من المادة العلمية والتوصل إلى المزيد من المعلومات حتى أمكن وضع قواعد للغة المصرية ، وقراءة آدابها المختلفة . وأصبحت الآثار المصرية شهودا على حضارة المصريين بكل

جوانبها المادية والفكرية . ولم يكن ذلك ممكنا إلا بمجهودات رجال نذروا أنفسهم لمصر وحضارتها أمثال رتشارد ليبسوس الألمانى ١٨٣٧ ، وماسبيرو ١٨١١ ــ ١٨٧٢ الفرنسى وماربيت ١٨٢١ ــ ١٨٨١ ، وبترى ، وأرمان صاحب قاموس برلين الشهير للغة المصرية الذى يبلغ أكثر من مليون ونصف بطاقة ، ويوجد منه نسخة وحيدة فى أكاديمية مدينة برلين ، ومن مادته العلمية أمكن اصدار طبعة مختصرة ١٩٢٦ ــ ١٩٣١ للتداول تعتبر من أدق ما وصل اليه علم اللغة المصرية حتى الآن . ثم زيته وكيس وايدل وهنتزا وغيرهم من الباحثين من مختلف الجنسيات بينهم عدد من المصريين أمثال أحمد كمال وسليم حسن وأحمد بدوى وغيرهم .

محتويات حجر رشيد : (لوحة رقم ١)

W. Budge, The Rosetta Stone London 1957

كما ذكرنا فان الكتابة على حجر رشيد عبارة عن قرار أصدره المجمع العام للكهنة فى منف بمناسبة الاحتفال بالذكرى الأولى لجلوس ملك مصر بطليموس الخامس على العرش فى ربيع سنة ١٩٦ ق.م ويوافق اليوم الثامن عشر من شهر أمشير . والأصل هو الإغريقى أما الهيروغليفية والديموطيقية فهما ترجمتان . ويبدأ بألقاب الملك بطلميوس الخامس (الظاهر) وبعض الصفات التى تشير إلى اهتمامه بالآلهة وحب المصريين له، ثم يقوم الكهنة بتعداد الفوائد أو المزايا التى أسبغها على مصر وهى باختصار :

١ ــ هدايا للمعابد فى صورة أموال ، وكميات من القمح .
٢ ــ التغاضى عن ديون الشعب والكهنة للملك .
٣ ــ الافراج عن المسجونين .
٤ ــ تخفيض المبالغ التى تقوم المعابد بدفعها للتاج .
٥ ــ ترميم المعابد واصلاحها .
٦ ــ العفو عن الثائرين والسماح بعودتهم للعيش فى مصر .

ومن أجل أن يعبر كهنة مصر عن الشكر والامتنان للملك بطلميوس قرروا أن يقيموا تماثيل الملك فى كل معبد فى مصر ليعبده الكهنة والشعب ، وان يصنعوا تماثيل ذهبية للملك ، ويضعوها فى مقاصير من الذهب إلى جانب مقاصير الآلهة ولكى تحمل كذلك فى المهرجانات معهم .

وأن تكون مناسبتا ميلاد وتتويج الملك أعيادا رسمية إلى الأبد . وأن تعمل صور من هذا القرار على حجر البازلت باللغة الهيروغليفية وباللغة الديموطيقية واللغة الاغريقية وتوزع على معابد البلاد كلها لتقام إلى جوار تماثيل الملك .

اللغة المصرية :

ظهرت أقدم الكتابات المصرية التى وصلت الينا فى حوالى عام ٣٠٠٠ ق.م ، واستمرت فى التداول والاستعمال منذ ذلك الحين . خاضعة لكل ما يطرأ على اللغات عموما من تطورات حتى القرن السادس عشر الميلادى حينما أخذت اللغة العربية تحل محل اللغة القبطية وهى آخر مرحلة من مراحل اللغة المصرية ، بل يمكن القول بأن اللغة المصرية مازالت مستعملة حتى الآن فى الكنائس القبطية ، واذا أردنا أن نصنف اللغة المصرية ضمن مجموعات اللغات فى العالم ، فيمكن اعتبارها لغة « حامية سامية » . أى أن فيها بعض صفات كل من اللغات السامية واللغات الحامية . ولاشك أن موقع مصر الجغرافى كدولة أفريقية آسيوية له أثر كبير فى ذلك التقسيم ، وبخلاف ماهو موجود بالنسبة لمجموعة اللغات الهندوأوربية ، حيث تنتمى اليها لغات قديمة ميتة كاللغة الحيثية واللغة الستسكريتية ، ولغات حديثة حية كاللغة الانجليزية واللغة الروسية ، نجد أن مجموعة اللغات السامية ينتمى اليها لغات قديمة مكتوبة كالأكادية ، بينما مجموعة اللغات الحامية كالبربرية لغة شمال أفريقيا والكوشية فى أثيوبيا لم تصل الينا مكتوبة ، وانما عرفناها حديثا عن طريق الرواية الشفهية ، وقد أمكن التعرف على ثلاثمائة كلمة سامية ، وأكثر من مائة كلمة حامية فى اللغة المصرية . واللغة المصرية غنية بالمفردات التى تبلغ حوالى ٢٠٫٠٠٠ كلمة . ودخلت عليها كلمات أجنبية كثيرة نتيجة لتوسع مصر فى زمن الدولة الحديثة ، ونتيجة لوقوع

مصر تحت نفوذ بعض الشعوب الأجنبية قبل وبعد ذلك . وفى لغتنا العربية كلمات مثل فرعون وواحة وتمساح ويد ورجل مأخوذة من المصرية ، وخلال مراحل التطور مرت اللغة المصرية بعدة تطورات ، ففى البداية كانت اللغة المتداولة لا تختلف كثيرا عن اللغة المكتوبة ، ولكن اللغة المتداولة أخذت تسرع فى التطور وأصبحت تختلف عن اللغة المكتوبة ، مما أدى إلى اعتبار اللغة المتداولة هى اللغة الرسمية . ولقد حدث ذلك عدة مرات خلال التاريخ الطويل للغة المصرية :

١ ــ فالمصرية القديمة هى التى كانت مستعملة طوال أيام الدولة القديمة وبداية الدولة الوسطى أى من حوالى عام ٣٠٠٠ ق.م. إلى حوالى ٢٠٠٠ ق.م. وكتبت بها نصوص الأهرام وكذلك استعملت فى نقش مقابر رجال الدولة القديمة .

٢ ــ والمصرية الوسيطة استعملت فى بداية الدولة الوسطى . وهى نفسها اللغة المتداولة فى أيام الدولة القديمة بعد تطورها . وكتبت بها القطع الأدبية المصرية الكلاسيكية . وفى نهاية الدولة الوسطى أصبحت قاصرة على تدوين الآداب الدينية والموضوعات الرسمية حتى أواخر العصور الفرعونية .

٣ ــ والمصرية الحديثة كتبت بها الوثائق الادارية ، والمراسلات وهى عبارة عن اللغة المتداولة فى العصر السابق .

٤ ــ الديموطيقية الشعبية فى أواخر زمن الدولة الحديثة . وحوالى عام ٧٠٠ ق.م. حلت الديموطيقية محل اللغة المصرية الحديثة ، واستمرت فى الاستعمال طوال العصرين اليونانى والرومانى كلغة الادارة .

٥ ــ اللغة القبطية ومنذ القرن الثانى الميلادى استعملت الحروف الاغريقية مع سبعة حروف من الكتابة الديموطيقية لكتابة اللغة المصرية ، وهكذا ظهرت اللغة القبطية وهى آخر مرحلة من مراحل اللغة المصرية ، ولها ثلاث لهجات رئيسية هى البحيرية والفيومية والصعيدية ، ونظرا لوقوع مصر تحت نفوذ الأجانب فى تلك المرحلة الزمنية من العصر المتأخر فان اللغة القبطية لم تأخذ

فرصتها فى التطور ، ولذا فهى تعد فقيرة نسبيا فى المفردات والصيغ المستعملة ، ولطالما استعارت مفردات واصطلاحات كثيرة من اللغة الاغريقية وخاصة فيما يتعلق بالموضوعات الدينية .

* * * * *

الفصل الثالث

التقويم عند قدماء المصريين

عندما شرع المصريون القدماء فى ابتكار تقويم ينظمون حياتهم على أساسه، بعد دراساتهم لكل الظواهر الطبيعية والفلكية من حولهم ، لاحظوا ظهور نجم الشعرى اليمانية ــ وهو أشد النجوم لمعانا ــ والتى ورد ذكرها فى القرآن الكريم ــ فى مواعيد محددة مرة كل عام ، وذلك مع وصول مياه الفيضان إلى مصر وبدء الدورة الزراعية التى تعتمد عليها حياتهم اعتمادا أساسيا . ونجم الشعرى اليمانية الذى أطلق عليه المصريون اسم « سبدت » ما هو الا النجم الفا من المجموعة المعروفة باسم The dog star, Canis Maioris كلب الجبار والذى عرفت أيضا باسم سيريوس Sirius أو سوتيس Sothis والتى اشتقت من الأصل المصرى فى اللاتينية واليونانية على التوالى .

معنى ذلك أن طول السنة المصرية القديمة هو نفسه طول الدورة الظاهرية للنجم سبدت . أى أن التقويم المصرى جمع بين السنة الشمسية والسنة النجمية .

والتقويم المصرى جعل السنة اثنى عشر شهرا ، اقتباسا من عدد الأبراج الفلكية الزودياك Zodiac ، والشهر ثلاثين يوما ، ثم أضافوا خمسة أيام سموها النسئ أو الشهر الصغير . أى أن السنة عندهم بلغت ٣٦٥ يوما وهى بذلك تقل عن السنة الطبيعية بمقدار ربع يوم كل سنة .

وقسم المصريون أيام السنة إلى ثلاثة فصول ، تبدأ بفصل الفيضان عند ظهور النجم سبدت مع وصول الفيضان إلى منف الذى يبدأ بشهر توت ، ثم فصل الزراعة وبذر الحبوب ، وأخيرا فصل الحصاد ، وكل فصل مدته أربعة شهور .

ولما كانت السنة المصرية تقل عن السنة الطبيعية بمقدار ربع يوم ، نجد أن السنة المصرية تتأخر عن السنة الطبيعية بمقدار يوم كل أربع سنوات . أى أنه بعد مضى

١٤٦٠ سنة تعود السنة المصرية لتتفق مع السنة الطبيعية . وهذا الوضع الذى كان يتسبب فى أن أعياد المصريين كانت تحل قبل موعدها المقرر فى فصول السنة ، لاحظه الكهنة المصريون القدماء ، واشتكوا منه إلى الآلهة ، ولكنهم عالجوه فى زمن بطلميوس الثالث بطريقة علمية بعد أن كانوا يعالجونه من قبل بطريقة بدائية ، أى أن يجتمعوا ويقرروا أنه من الآن يبدأ تصحيح التقويم وتبدأ السنة من جديد ، وهكذا .

ومن حسن الحظ أن لدينا حالتين لظهور النجم سوتيس هذا فى العصر الفرعونى وبطبيعة الحال فاننا نستطيع أن نحسبها فلكيا ، أى نحدد تاريخها بدقة بالاستعانة بمعلوماتنا الفلكية الحالية :

(أ) ظهور النجم سوتيس فى بردية اللاهون المحفوظة بمتحف برلين فى عهد الملك سنوسرت الثانى ، وقد أمكن حسابها تماما فأصبحت تقابل سنة ١٨٧٢ ق.م.

(ب) الحالة الموجودة فى بردية ايبرس المحفوظة فى مدينة ليبزج من زمن الملك أمنحتب الأول وقد أمكن حسابها ما بين ١٥٢٦ ، ١٥١٩ ق.م.

هذا بالإضافة إلى أن ظهور النجم فى العصرين اليونانى الرومانى قد وصلت الينا معلومات عنه فى حالتين :

(أ) مرسوم إصلاح التقويم منْ كانوب ، ويقابل بسنة ٢٣٨ ق.م.

(ب) توافق ظهور النجم سوتيس مع بداية السنة المصرية عام ١٣٩ ـــ ١٤٢م .

وكان علاج المصريين للتقويم زمن الملك بطلميوس الثالث ، إذ اجتمع مجلس الكهنة سنة ٢٣٩ ق.م. فى معبد مدينة كانوب (التى تعتبر جزءا من مدينة الإسكندرية حاليا ـــ أبو قير) وأصدر مرسوما وأهم بنود هذا المرسوم : (أنه منذ الآن سنضيف يوما كل أربع سنوات للشهر القصير أى يضاف يوم للخمسة أيام النسئ [٢] قبل السنة الجديدة حتى يعلم الجميع أن ما كان ناقصا من قبل فى نظام الفصول والسنة قد أصلح) .

معنى ذلك أن تواريخ العصرين البطلمى والرومانى فى مصر مضبوطة . كما أننا نكاد نكون متأكدين من التواريخ الهامة المحددة بالنسبة للتاريخ الفرعونى ماعدا العصر العتيق وفترات العصور المظلمة بين الدول القديمة والوسطى وبين الوسطى والحديثة ، وكذلك بالنسبة للعصر المتأخر .

والمصريون هم الذين قسموا تاريخهم إلى أسرات حاكمة . وقبل ذلك كانت تحت أيدينا معلومات عن التاريخ عند قدماء المصريين مستوحاة من :

(أ) قوائم الملوك المرتبة ترتيبا زمنيا والتى عثر عليها فى المعابد مثل مدونة معبد سيتى الأول بأبيدوس ، وقائمة الملك تحتمس الثالث التى أقيمت فى قاعة الاحتفالات بمعبد الكرنك الشهير ونقلت إلى متحف اللوفر . وفى المقابر مثل مقبرة سقارة ونقلت إلى المتحف المصرى بالقاهرة ثم حجر بالرمو : وهو من البازلت الأسود ، منقوش عليه بالحفر الغائر الدقيق تاريخ الأسرات الخمس الأولى . مع أسماء ملوك الدلتا والصعيد قبل وحدة الملك مينا ، وسمى الحجر بهذا الاسم نظرا لأن أكبر قطعة منه موجودة بمتحف مدينة بالرمو بجزيرة صقلية ، وموجودة منه قطع بالمتحف المصرى . وكذلك فى أوراق البردى والتى عثر عليها ضمن محفوظات المعابد . وقد وصلت إلينا بردية من هذا النوع هى بردية الملوك بمتحف تورين (ايطاليا) والتى كتبت فى عهد الملك رمسيس الثانى . وحفظت لنا قوائم بأسماء ملوك مصر بما فى ذلك ملوك العصور المظلمة منذ الأسرة الأولى وحتى زمن الملك رمسيس الثانى .

(ب) الآثار المعاصرة بكل أنواعها وعلى الأخص التواريخ الشخصية لرجال الدولة ، التى كانوا يأمرون بأن تكتب لهم على جدران مقابرهم .
فكانت أعمار بعضهم تمتد أحيانا ليخدموا فى ظل عدة ملوك ، وحينما كانوا يقومون بتسجيل تاريخ حياتهم فى مقابرهم يقدمون للتاريخ فرصة لمعرفة تتابع الملوك بطريقة مؤكدة .

(جـ) يضاف إلى ذلك مؤلف الكاهن المصرى مانيتون . كل ذلك مكننا من سد الثغرات ومعرفة تتابع الملوك من « مينا » إلى الاسكندر كما ساعدنا على ضبط التواريخ أيضا تسجيل المصريين لظهور النجم سوتس ، وكذلك تأريخهم بالشهور القمرية .

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

الفصل الرابع

أصالة الحضارة المصرية القديمة

إن الحضارة المصرية القديمة هى خلاصة فكر وإنتاج الإنسان المصرى منذ أقدم عصور الإنسانية وعهدها بالحضارة . فعلى حافة الدلتا التى كانت تزخر بالمستنقعات حينذاك وعلى طول الوادى انتشرت المواقع الحضارية منذ العصور الحجرية القديمة ، وأصبح فى إمكان الباحث الحديث أن يتبين أولى محاولات إنسان وادى النيل للسيطرة على قوى الطبيعة من حوله وإعداد مسرح الحياة لحضارة إنسانية رائدة .

فالعصر الحجرى القديم (Palaeolithieum) الذى استمر آلاف السنين قبل حوالى عام ١٠٠٠٠ ق.م ، يتفق فى مناخه مع المدة التى أطلق عليها اسم منتصف العصر المطير الأول وهى مدة رطبة ، كان الجو فيها حارا يشبه إلى حد كبير جو المناطق الاستوائية ، فكانت الصحراء الحالية عبارة عن غابة كثيفة مليئة بالحيوانات المختلفة والأشجار الضخمة .

ولكن الطقس بدأ بعد حوالى عام ١٠٠٠٠ يتغير تدريجيا وبشكل ملحوظ ، فإن فترة تقهقر الجليد الممتدة حتى يومنا هذا قد تسببت فى قلة سقوط الأمطار تدريجيا ، فأخذت المساحات البعيدة عن وادى النيل تتحول شيئا فشيئا إلى صحارى ، واضطر ذلك الجفاف إنسان العصر الحجرى الحديث إلى النزوح إلى وادى النيل ، وحول بحيرة الفيوم ، وبالقرب من مستنقعات الدلتا ، وحول الأخوار ومجارى الأنهار القديمة وعيون الماء فى الواحات . هناك فرضت عليه الطبيعة نوعا من الاستقرار حتى إذا ما انتقل من مرحلة الترحال والصيد وجمع الثمار إلى مرحلة الاستقرار واستئناس بعض الحيوان لمنفعته، ثم اكتشف النار وتوصل إلى معرفة الزراعة بدأت تجمعاته البشرية

.تزداد حجما ، وعرف المصرى قيمة التعاون والاتحاد لمواجهة قوى الطبيعة الجبارة ، فحارب كثيرا من أجل توحيد أقاليم الوادى ، وجرت تلك المحاولات فى معظم الأحيان متخذة طابعا دينيا سجلها المصريون فى عصورهم التالية ضمن تراثهم .

علاقات بحضارات الرافدين :

ومنذ ذلك العصر أخذت ملامح الحضارة المصرية تتخذ طابعا مميزا حافظت عليه بوجه عام خلال العصر التاريخى ، وحاول بعض المؤرخين ممن لم يستطع تقبل حقيقة التطور الذى حدث فى عصر ما قبل الأسرات المصرية وحتى عصر تكوين الدولة المصرية المتحدة أن ينسب الحضارة المصرية القديمة إلى أصول آسيوية تعود إلى الحضارة السومرية التى ازدهرت جنوبى العراق . وتلمس هؤلاء البعض الشواهد لمحاولة تأييد زعمهم هذا فى بعض مناظر مصورة على يد سكين من العاج عثر عليها فى « جبل العركى » بمحافظة سوهاج شرقى النيل بالقرب من البدارى ، طابعها يميل نحو فنون بلاد ما بين النهرين . وتصور تلك المناظر على صغرها موقعة حربية بين فريقين يستعملان نوعين من المراكب ، أحدها طابعه مصرى والآخر له طابع سومرى صميم ، وأضاف أصحاب هذا الرأى إلى ذلك مناظر مشابهة لمعركة صورت على جدران مقبرة من عصر ما قبل الأسرات المتأخر فى هيراكنوبوليس (الكوم الأحمر شمال إدفو ما بين الأقصر وأسوان) . كما أشار أصحاب ذلك الرأى أيضا إلى تطابق بعض الزخارف الحلزونية فى آثار كلا الحضارتين ، وإلى استعمال كلا الحضارتين للأختام الاسطوانية الشكل ، وكذلك اتفاق ظهور عناصر معمارية مشتركة بين الحضارتين كالجدران ذات النتوء والبروز ــ أو ما يعرف بالدخلات والخرجات . وهو ما ظهر فى مقبرة الملك (عحا) (أى المحارب) من خلفاء الملك « نعرمر ــ مينا » (منى) فى « أبى صير » جنوبى الجيزة ، وفى مقبرة أخرى من الأسرة الأولى أيضا كشف عنها فى « نقاده » شمالى الأقصر ، وفى مقابر عديدة من العصر العتيق (عصر الأسرتين الأولى والثانية) فى سقارة ، وفى حلوان ثم فى مقابر الأسرة الثالثة فيما بعد فى السور الخارجى للهرم المدرج الخاص بالملك زوسر ، وفى مقبرة الملك سخم خت صاحب الهرم الناقص من الأسرة الثالثة أيضا فى سقارة .

واعتمادا على تلك الشواهد ، زعم أصحاب ذلك الرأى أن وادى النيل فى بداية عصر الأسرات قد وفدت عليه هجرات من غربى آسيا عن طريق شبه جزيرة سيناء أو وادى حمامات الذى يربط البحر الأحمر بالنيل عند فقط (محافظة قنا) . وان تلك الهجرات قد دخلت مصر تدريجا أو فى شكل غزو مفاجئ . وبعدها سيطر الغزاة على السلطة ، وكونوا أرستقراطية حاكمة أكثر تحضرا من أهل البلاد ، وادعوا أنهم السبب فى التطور الذى بدأ بعصر الأسرات ، وربطوا بينهم وبين ما تردد فى النصوص المصرية فيما بعد تحت إسم « أولاد الإله حورس » ، وكذلك بينهم وبين ما تردد فى تاريخ مانيتون عن « أنصاف الآلهة » ويقصد بهم الملوك الأوائل فى تاريخ الوادى ، والذين رفعهم المصريون إلى مصاف الآلهة . وأن ذلك كله قد حدث فى نهاية الألف الرابع قبل الميلاد . وأكد أصحاب ذلك الرأى وجود اختلاف بين العنصر البشرى لتلك الأرستقراطية وبين السكان الأصليين من المصريين .

الحضارة المصرية سلسلة متصلة الحلقات :

وكان ممكنا أن نتقبل هذا الرأى ، لو أن التطور الحضارى فى كل نواحى الحياة المصرية منذ بداية الأسر لم يكن له أسس راسخة ، متمثلة فى سلسلة متصلة الحلقات من التطور الحضارى والفنى فى العصر الحجرى الحديث (Neolithicum) يشمل جميع مناطق مصر فى الفيوم وفى مرمدة بنى سلامة (على بعد حوالى ٦٠ كم إلى الشمال الغربى من القاهرة وإلى الغرب من الرياح البحيرى على حافة الدلتا الغربية) ، وفى العمرى (شمال حلوان) وفى دير تاسا (قرب البدارى فى محافظة أسيوط) . ثم فى العصر التالى للعصر الحجرى الحديث (Aeneolithic Period)حوالى عام ٥٠٠٠ ق.م. حيث استعمل النحاس مع الأحجار فى الأغراض العملية مثل صناعة الآلات فى المعادى (بين القاهرة وحلوان) ، وفى البدارى فى صعيد مصر ، ثم فى عصور ما قبل الأسر أو عصر حضارة نقادة (Pre-dynastic Period) (لوحة ٢) فى العمرة بالقرب من أبيدوس (محافظة سوهاج) ، وجرزة بالقرب من الفيوم فالسماينة وتقع شرقى العمرة على التوالى حسب الترتيب الزمنى . فإنسان تلك العصور القديمة خلف

وراءه ما يؤكد انتقاله من مرحلة إلى مرحلة أخرى أكثر تقدما ، سواء بالنسبة لصناعة أدوات الصيد أو الزراعة أو بالنسبة لصناعة الأوانى الحجرية والفخارية وتحليتها بالزخارف والرسوم أو باستعماله لأودات الزينة من الأحجار والصدف والذهب والنحاس ومن العظم والعاج . وكذلك بالنسبة لمعتقداته الدينية وإيمانه بحياة بعد الموت ، كما يدل على ذلك وضع القرابين إلى جانب الميت اعتقادا فى حياة أخرى ، ثم العناية بدفن جثث الحيوانات المختلفة ولفها بالأكفان ودفنها فى مقابر خاصة مما يؤكد تقديسهم لتلك الحيوانات ، وكلها أمور ظهرت جلية فيما بعد فى العصور التاريخية . وعصور ما قبل الأسرات ، رغم أن حضارتها ذات طابع محلى ، إلا أنها كانت ذات علاقات تجارية واسعة مع العالم الخارجى . فإلى جانب استيرادهم للذهب الذى استجلب من النوبة والنحاس من سيناء وخشب السدر الجيد من فينيقيا فإنهم استوردوا اللازورد من الشرق الأقصى ، ولعل تلك العلاقات التجارية ، هى التفسير المنطقى للتشابه بين بعض العناصر الخاصة بحضارة بلاد ما بين النهرين وبين عناصر الحضارة المصرية فى العصر العتيق .

عادات الدفن جذورها راسخة :

والواقع أن حضارة عصر ما قبل الأسرات كانت التمهيد المنطقى لحضارة الأسرات المصرية القديمة فى عصورها المبكرة . وكان للدين الأثر الأكبر فى تفكير المصرى القديم ، مما جعل إنتاجه الفنى له طابع دينى . فالتحنيط والعمارة والنقش والرسم والنحت خضعت كلها — إلى حد كبير — لتأثير العقائد الدينية . وتشير الدلائل إلى أن إنسان وادى النيل منذ العصور الحجرية كان يعتقد ، بطريقة أو بأخرى ، فى حياة بعد الموت ، وقد عثر على أوان وأسلحة مع الموتى فى مقابرهم زودوا بها لاعتقادهم فى البعث . فإنسان العصر الحجرى الحديث (فى الدلتا) فى مرمدة بنى سلامة دفن موتاه قرب مساكنه فى وضع يشبه وضع الجنين فى بطن أمه، ومعها بعض الحبوب التى وضعها قرب الفم أحيانا . ومن فحص بعض الهياكل البشرية اتضح أن رجال ونساء مرمدة كانوا أكثر طولا من مصرى عصر ما قبل الأسرات . وإنسان حضارة

العمرى (شمال حلوان) كان يضع الأوانى الفخارية من حول موتاه . ثم تطورت الأمور بالنسبة للحضارة التاسية (نسبة إلى دير تاسا قرب البدارى ـــ محافظة أسيوط) فى صعيد مصر فكان أهلها يدفنون موتاهم فى وضع القرفصاء ، على هيئة الجنين بعد لفهم فى الجلود أو فى حصير فى حفر مستطيلة أو بيضاوية ، وكان لبعضها فجوات لوضع القدور التى يفترض أنها كانت تحوى القرابين المختلفة وتوضع عند القدمين والرأس ، ويبدو أن وسادة من القش كانت توضع تحت الرأس ، وكانت مقابرهم تقع بعيدة عن مساكنهم على عكس الحال فى حضارة مرمدة التى ازدهرت فى العصر التالى للعصر الحجرى الحديث حوالى ٤٥٠٠ ق.م. والتى كان أهلها قصار القامة نسبيا ، ورؤوسهم صغيرة لهم صفات زنجية واضحة مما يجعلنا نعتبرهم حاميين عليهم مسحة زنجية ، فانها تمثل مرحلة أكثر تطورا ، اتخذت مقابرهم شكل الحفر البيضاوية أو المستديرة يدفن فيها الميت فى وضع الجنين ، وكانت تبطن من الداخل بالحصير لمنع اختلاط الرمل بالجثة وتسقف بأغصان الشجر ، وكان الميت يدفن بملابسه الكتانية ويلف فى الجلود وإلى جانبه الأدوات الحجرية والأوانى وأدوات الزينة . وعثر فى بعض المقابر على عدد من التمائم . وكان أهل البدارى يهتمون بدفن بعض الحيوانات كالثور والشاة والكلب والثعبان بعد أن تلف بعناية بالقماش ثم بالحصر فى مدافن خاصة بين مقابرهم ، مما قد يدل على تقديسهم لتلك الحيوانات . وقد لوحظ وجود علاقة بين وضع الموتى فى القبور وبين اتجاه النيل . واذا انحنى النيل انحنت معه القبور وكذا وضع الموتى . ففى دير تاسا والبدارى فى شرق النيل يرقد الميت على جانبه الأيسر ورأسه للجنوب ووجهه نحو النيل وهو ينظر ناحية الغرب ، وهذا الوضع استمر حتى العصر التاريخى ، وهناك استثناء من ذلك فى العمرة حيث تكون الرأس ناحية الجنوب ويكون الوجه ناحية النيل .

وكانت مقابر عصر ما قبل الأسرات مستطيلة أو مستديرة ، يدفن فيها الميت ومن حوله الأوانى والجرار الضخمة ثم تهال عليها الرمال . وفى العصر التاريخى تغير الوضع فالرأس توضع ناحية الشمال والوجه نحو النيل وينظر ناحية الشرق . مع احتمال

وجود قليل من الموتى فى وضع عكسى . وتطورت المقابر فى بداية العصر التاريخى زمن الأسرتين الأولى والثانية ـــ العصر العتيق (أو العصر الثينى) ـــ وبذلت عناية خاصة بغرفة الدفن فبنيت جدرانها من اللبن . وغطيت أرضيتها بالخشب أحيانا وسقفت بعناية . أما المقابر الملكية فكانت تتألف فى بداية الأمر من غرفة واحدة من هذا النوع مبطنة بالخشب توضع فيها جثة الملك وأثاثه الجنائزى ويشمل مخزونا هائلا من المواد التموينية والمشروبات ثم أثاث قصره وأسلحته وغير ذلك .

وتطور فن بناء المقابر ، فزيدت مساحة المقبرة الملكية وأحيطت بالحجرات الجانبية وخزنت فيها القرابين المختلفة والأثاث الجنائزى بالإضافة إلى جثث عدد من الخدم والأتباع المخلصين والذين لابد أنهم دفنوا مباشرة مع الملك ، لكى يواصلوا القيام على خدمته فى الحياة الأخرى . وربما اقتصر ذلك على فترة زمنية قصيرة من العصر العتيق . هذا وقد تبين أن السومريين أصحاب أقدم حضارة فى العراق القديم عرفوا أيضا ظاهرة التضحية بالأتباع ودفنهم دفعة واحدة مع سيدهم ، وربما بعد إعطائهم نوعا من المخدر القوى . كما ظهرت تلك العادة فى شمال السودان القديم بين أصحاب حضارة كرمة التى ازدهرت بعد سقوط الدولة القديمة فى منطقة الشلال الثالث ، ثم اختفت لتعود إلى الظهور بين أصحاب حضارة ما عرف باسم المجموعة الغامضة . (X-Group) وذلك بعد سقوط حضارة مملكة مروى وقبل دخول المسيحية إلى السودان ، ثم قيام الممالك المسيحية الثلاثة فى سودان وادى النيل متخذة عواصمها فرص ودنقلة العجوز وعلوه .

التحنيط :

ومع التطور المذهل فى فن عمارة المقابر واستعمال الأحجار تدريجيا ، بذلت عناية فائقة لحفظ الجثة من التحلل والفناء . فهى الضمان الأكبر للحياة الأخرى . وهكذا توصل المصريون القدماء إلى فن التحنيط . ولا يمكن معرفة التاريخ الذى اكتشف المصريون فيه فن التحنيط ، لأننا لم نعثر فى مقابر ملوك العصر العتيق على أية مادة انثروبولوجية تساعدنا على ذلك . ولكن يكاد يكون متفقا عليه أن جثة الملك

زوسر — صاحب الهرم المدرج — كانت محنطة . فالجزء الذى عثر عليه من جثته يؤكد ذلك . كما أن آنية الأحشاء المحنطة والخاصة بالملكة حتب حرس — زوجة الملك سنفرو عاهل الأسرة الرابعة ، وأم الملك خوفو . والتى عثر عليها عرضا مع بعض مخلفات تلك الملكة فى مقبرة بالقرب من الهرم الأكبر تؤكد بطريقة قاطعة أن التحنيط كان معروفا أيام الأسرة الرابعة ، والجدير بالذكر أنه بعد أن كشف عن تلك الآنية ورفع عنها غطاؤها الحجرى وجدت مادة التحنيط المستعملة فى حالة سائلة ، وقد أفادت فى معرفة الكثير مما استعمله المصريون من مواد فى عملية التحنيط وهى محفوظة حاليا بالمتحف المصرى بالقاهرة .

كما كشف عن حجرة تحنيط فى الدير البحرى من العصر الأهناسى (الأسرتين التاسعة والعاشرة) خاصة بأحد الوزراء ويدعى « أبى » وبها كل أدوات التحنيط ومواده كالزيوت والعطور والأوانى ، وسرير التحنيط من الخشب [٣] .

والجدير بالذكر أن عملية التحنيط التى تخصص فيها فريق من الكهنة كانت تستمر لمدة اثنين وسبعين يوما . فكانت الأحشاء تستخرج من الجسد ، ما عدا القلب الذى كان يعتبر مركز الشعور وبمثابة العقل ، عن طريق فتحة جانبية فى البطن ، ثم تحنط منفصلة بوضعها فى ملح النطرون الجاف للتخلص مما بها من سوائل ، وبعد معالجتها بالعطور ومادة الراتنج المنصهر يتم لفها بلفائف الكتان ثم توضع فى أربع أوان منفصلة عرفت بأوانى حفظ الأحشاء ، كما كان المخ يستخرج عن طريق فتحتى الأنف بواسطة آلة نحاسية كالملعقة ، وكانت تخلو باستخراج تلك الأعضاء ، فكانت تملأ بعد غسيلها بنبيذ النخيل بقطع من الكتان بها مواد التحنيط ، ثم توضع الجثة كلها فى ملح النطرون الجاف لمدة أربعين يوما لكى تتخلص من كل ما فيها من سوائل وتجفف تماما ، وتبدأ بعدها عملية لف أعضاء الجسد جيدا بلفائف من الكتان بلغ طولها أحيانا بضع مئات من الأمتار ، واستعملت بعض السوائل لرش لفائف الكتان لكى تحتفظ بشكلها ولكى تعطيها الرائحة الزكية . وفى أثناء عملية اللف يتم وضع بعض التمائم داخل اللفائف ، ويوضح نموذج حجرى للقلب على هيئة جعل « جعران » كبير بجانب

القلب ، وكانت النصوص تنقش على ظهر هذا الجعل الكبير الذى يمثل القلب ، أو تكتب فى البرديات تخاطب هذا القلب :

« .. يا قلبى (الذى انتقل إلى) من أمى ، يا قلبى الذى لازمنى خلال مراحل حياتى ، لا تشهد ضدى فلا تخذلنى أمام القضاء ، ولا تثقل فى وزنك لغير صالحى أمام القائم على الميزان (يوم يوضع الميزان) » .

وأحيانا كانت ترسم بعض صور الآلهة ويكتب اسم المتوفى على سطح اللفائف بعد انتهاء عملية اللف . ثم توضع المومياء (أو الجثة المحنطة وهى كلمة فارسية معناها الأسفلت (الزفت) أو القار ــ ظنا منهم أن تلك المادة تدخل فى عملية التحنيط) داخل تابوت من الخشب مغطى بالكتابات والرسوم الدينية ، يوضع بدوره داخل تابوت حجرى يحكم غطاؤه ويستقر فى غرفة الدفن المنحوتة فى باطن الأرض ، بينما يقام على سطح الأرض مبنى على شكل المصطبة من الأحجار الجيرية يضم غرفة للزائرين ، تسمى المزار ــ يجتمع فيها أهل الميت فى المناسبات المختلفة لتقديم القرابين لروحه على مائدة قربان حجرية أقيمت لهذا الغرض ووضعتْ أمام ما يعرف بالباب الوهمى ، وهو عبارة عن نقش فى جدار المزار على هيئة باب ، خصص لاستعمال الروح ، التى يفترض أن تصعد من التابوت الذى استقر فى غرفة الدفن فى جوف الأرض خلال ممر صاعد لتخرج من الباب الوهمى ، وتتلقى القرابين (لوحة رقم ٣) وتنعم بالنظر اليها وإلى أهلها ممن اجتمعوا لزيارتها ، ثم إلى الصور والرسوم التى زخرفت بها جدران المزار وفيها تمثيل صادق لجوانب كثيرة من الحياة اليومية التى كان يحياها صاحب الدار ، مثل إشرافه على أعمال الزراعة كالحرث ، بذر الحبوب والحصاد والصيد فى البر وفى أحراش الدلتا وحلب الأبقار وتربية الحيوان وجمع الكروم وعصرها وإعداد النبيذ والبيرة وتجهيز وجمع عسل النحل ، والصناعات اليدوية كتشكيل الذهب وصناعة الجلود والخشب . كل ذلك صور بتفاصيله الدقيقة مما أعطانا سجلا وافيا للحياة المصرية فى ذلك الحين . وفى الواقع كان المصرى القديم يقدس الطبيعة من حوله وكان لا يرى فى الحياة الأخرى سوى صورة من حياته الدنيوية فكان

يحاول من قبل أن يصطحب معه إلى عالمه الآخر كل ما يمكن حمله من متاع الدنيا . ومع تطور المعتقدات تنازل درجة عن التفكير المدى المطلق كنتيجة لخبراته الطويلة فى هذا المضمار ، واستعان بالرسم والصور إلى حد كبير لتنقل له ما تيسر من مباهج دنياه إلى مستقره الأبدى . وهكذا ظهرت فنون النقش والرسم والتلوين وهى من أبرز معالم الحضارة المصرية القديمة (لوحة رقم ٤) .

النحت :

وعلى الرغم من نجاح المصرى القديم فى التغلب على خطر تحلل الجثة باكتشاف فن التحنيط ثم حفظها فى غرف دفن منحوتة فى الصخر أغلق من دونها الأبواب وسد المنافذ ، إلا أنه أبدى تخوفه من المستقبل ، خشية أن تسعى عوامل الفناء إلى الجسد بعد قرون طويلة فلا تستطيع الروح أن تتعرف على صاحبها فتهيم على وجهها ضالة فى الآفاق ، وتنقلب إلى روح شريرة وتضيع على صاحبها إلى الأبد فرصته فى الحياة الأخرى ، ومن أجل تجنب تلك الأهوال ـــ ازدهر فن نحت التماثيل لتكون البديل للجسد فتحل فيها الروح إذا ما فنى الجسد . فكانت تصنع أعداد من هذه التماثيل على شاكلة صاحبها فى أحسن مراحل حياته (أى فى شبابه) ويكتب عليها اسمه وألقابه زيادة فى الحيطة ، وتخفى داخل أحد جدران المزار بعيدا عن أعين أعدائه حتى لا يصيبها الدمار إذا ما فكر أحدهم فى الانتقام منه ليحرمه فرصة الحياة الأخرى . وكان ذلك المكان الذى تحفظ فيه تماثيل صاحب مقبرة (ويسمى السرداب) يتصل بغرفة المزار أحيانا عن طريق فتحة ضيقة فى الجدار لعلها خصصت أيضا لدخول البخور . وكان من أهم واجبات الإبن نحو والده حسب التقاليد والعرف أن يقوم بدفن والده ، وأن يشرف على كل إجراءات التحنيط وتجهيز المقبرة ثم الاهتمام بها والسهر على سلامتها . وعد ذلك من أهم واجبات الأسرة . ومن أجل ضمان الإنفاق على القبر فى المناسبات الدينية المختلفة فى المستقبل وإلى الأبد كتبت الوصايا وأوقفت الأراضى ، أما من ريع أملاكهم الخاصة أو منحة من الملك إذا كانوا من الصفوة المقربين ، وأدى ذلك أحيانا إلى الأمر بتسجيل تلك العقود والوصايا بين

صاحب القبر وبين كهنته على صفحات المقبرة زيادة فى الحذر . كما فعل أمير أقليم أسيوط المدعى حب جفاى فى زمن الملك سنوسرت الأول من الأسرة الثانية عشرة من الدولة الوسطى ، فهناك دون عشرة عقود قانونية مع الكهنة (حتى لا يمر يوم بلا طقوس) على اعتبار أن وحدة الأسبوع عشرة أيام . وحدث مرة فى الدولة القديمة أن بلغ حاكم إقليم إلفنتين (أسوان) أن أباه قد مات وهو على رأس احدى البعثات الملكية فى السودان ، فأسرع على رأس حملة مسرعا نحو الجنوب ليقوم بإحضار وإعداد جثمان والده لكى لا يفقد الرجل فرصته فى الحياة الأخرى ، وفور عودته إلى الحدود المصرية عجل باستدعاء رجال التحنيط . وظهرت أيام الأسرة الرابعة فى الجيزة طريقة عمل الرؤوس الإضافية وهى عبارة عن تماثيل منحوتة للرأس والرقبة فقط من الحجر الجيرى الجيد لصاحب المقبرة ، توضع غير بعيد من التابوت وتؤدى نفس الغرض أى لكى تحل فيها الروح اذا ما فنى الجسد ، ولكن البعض يرى فيها حاملات للشعور المستعارة (الباروكة) المألوفة فى ذلك الحين ، وظهر فى تلك الفترة أيضا ما عرف باسم تماثيل الخدم ، وهى عبارة عن دمى من الحجر قصد بصنعها تمثيل الأعمال اليدوية اليومية التى كان يقوم بها الخدم ، ونقلها مع الميت إلى القبر ، كما لوحظ أن الملك زوسر مؤسس الأسرة الثالثة خصص مكانا بجوار معبده الجنائزى شمالى الهرم المدرج بسقارة لحفظ تمثال كبير له داخل سرداب مغلق ذى فتحة صغيرة يطل منها صاحب التمثال على العالم الخارجى ، وتم نقل التمثال ليحفظ فى المتحف المصرى بالقاهرة بعد أن أعد نموذج مطابق له ووضع فى مكانه الأصلى . كل ذلك خلاصة محاولات مضنية على مدى قرون طويلة بذلها فكر المصريون القدماء لمواجهة الفناء .

وجرت العادة أن تبذل العناية الفائقة بأماكن الدفن على اعتقاد أنها دار الخلود ، حيث يجمع الملك من حوله قبور زوجاته وبناته ثم رجال بلاطه والمقربين من الكهنة ورجال الدولة ليكون بهم بلاطا آخر فى عالم الخلود ، ولعل أكبر مثال لذلك جبانة الجيزة ، وهى جزء من جبانة منف من الدولة القديمة التى تمتد من أبى رواش شمالا إلى دهشور جنوبا وتشمل كل من الجيزة وأبو صير ودهشور وسقارة وميدوم .

الفصل الخامس

المعتقدات الدينية

الإيمان بالبعث :

آمن المصريون القدماء بخلود الروح وبالبعث وسيطر هذا الاعتقاد عليهم فطبع حضارتهم بلون خاص . وكان للطبيعة المصرية أثر كبير فى رسوخ تلك العقيدة بينهم منذ أقدم الأزمنة . فالنيل معلمهم الأول كان يأتيهم بفيضه فى ميقات معلوم فيغمر الأرض الهامدة ويهيؤها للزرع ، لتنبت من كل زوج بهيج ، ثم ينحسر عنها ليعود اليها بعد حين بأمر ربه، والجياة الزراعية هى زرع وحصاد ثم إعادة زرع فحصاد ، وكواكب السماء كالشمس والقمر ما تكاد تختفى فى الغرب حتى تعود للظهور فى الأفق الشرقى ، وهكذا ميلاد فحياة ثم موت فبعث . وحياة الإنسان فى ظنهم لا يمكن أن تنفصل عن كل تلك الظواهر الطبيعية من حولهم ، ولم يكن المصرى القديم ليقنع أبدا بأن حياة المرء تنتهى إلى الأبد بالوفاة . وإنما اعتبر الموت نهاية مرحلة مؤقتة وبداية مرحلة حياة خالدة تعود فيها الروح إلى الجسد ليحيا إلى الأبد . ومن أجل ذلك زود الميت منذ أقدم العصور بكل الضروريات التى يحتاج اليها فى العالم الآخر . وبذل القدماء عناية فائقة لحفظ الجسد بتحنيطه وحفظه فى مقابر حصينة وصنعوا التماثيل لصاحبه على شاكلته زيادة فى الحذر وليتجنبوا عدوان الزمان . وتطورت مقابرهم من مصاطب ، وهو الشكل المستطيل التقليدى الذى يشبه الكوخ ، إذ كانت أبسط صورة للميت أنه نائم فى بيته، إلى أهرامات ضخمة كالأعلام منذ زمن الدولة القديمة (٢٦٦٠ ــ ٢١٦٠ ق.م.) وأغلقت مداخلها وممراتها بكتل هائلة من حجر الجرانيت ليستحيل اقتحامها ، وكانت الدولة المصرية القديمة أيام الأسرة الرابعة فتية قوية البنيان (حوالى ٢٥٩٠ ــ ٢٤٧٠ ق.م.) ، كما كان مركز فرعون يجعله فى مصاف الآلهة

فكان يلقب بالإله الأعظم ، وفى الواقع أن فكرة الملك عند آل فرعون كانت مقدسة ، واعتمد فرعون على هذا الحق المقدس الذى آمن به الناس ، كما استغل الملوك ذلك الإيمان من أجل اقامة مقابرهم الأبدية ، فخرجت تعبيرا صادقا عن اعتقادهم فى الخلود ، ولهذا فان الملوك كانوا مطمئنين إلى استمرار خدمة أجسادهم بعد الموت وتقديم القرابين الضرورية فى شتى المناسبات .

نصوص الأهرام :

وسارت الأمور على هذا النحو حتى أواخر الأسرة الخامسة (حوالى ٢٤٧٠ ــ ٢٣٢٠ ق.م.) ، وحينئذ أخذت قبضة الحاكم تتراخى وكاد الزمام أن يفلت من يد الملك ، وازداد نفوذ كهنة إله الشمس زيادة خطيرة ، وتكشف للملك كثير من حقائق الحياة ، فبعد أن كان يلقب « بالإله الأعظم » اكتفى بلقب الإله الطيب أو « ابن الشمس » . وهنالك أعاد الملوك التفكير فى أمر آخرتهم فأدركوا أنه من الأضمن أن يدون لهم كل ما كان الكهنة يؤدونه من طقوس كانت فى ظنهم ضمانا لعودة الروح وصعودها إلى آفاق السماء من غير معوقات . وذلك على جدران غرفة الدفن داخل الهرم بدءا بالملك أوناس وهى أقصرها جميعا اذ تبلغ ١٢٨ نشيدا . فنصوص الأهرام أقدم مصادرنا عن المعتقدات الدينية ، والتى بلغت أحيانا ستمائة نشيد نقشت بإتقان على الجدران الحجرية لغرفة دفن الملك بحيث تبدأ من فوق رأس الملك الراقد فى تابوته ، كأنما قصد أن تكون فى متناول الملك حتى يتمكن من الاستعانة بها إذا لزم الأمر ، وقد اتخذ الفنان حيطته فى تدوين النصوص بالكتابة المصورة (الهيروغليفية) فجعل رموز الإنسان والحيوان غير كاملة التكوين ، بل أنه أغمد فى ظهر صورة الثعبان الذى يرمز إلى حرف « ز » فى اللغة المصرية سكينا ليتقى شره اذا ما قدر لتلك الكتابات أن تدب فيها الحياة . ونصوص الأهرام التى تعتبر أقدم الآداب الدينية المدونة هى مجموعة من أناشيد وتمائم تحتوى على كثير من السحر للحماية والوقاية من شرور العالم الآخر ، وتتضمن مراثى للملك المتوفى ، وتمائم يفترض أنها تساعده على البعث واستعادة حواسه ، ثم الصعود إلى السماء حيث الإله الأكبر ، تكتب فى

صيغة المخاطب ، وبعضها صلوات يؤديها الملك بنفسه فى العالم الآخر بصيغة المتكلم . ولكنها إلى جانب ذلك تصور مكان الملك من الرعية ومكانه بين الآلهة ، وتعد مرآة صادقة للحياة السياسية والدينية فىَ مصر فى فجر التاريخ ، فهى تصور ما قام فيها من نزاع على الملك بين الشمال والجنوب ، فى شكل صراع بين مختلف معبودات البلاد .

وصورت لنا نصوص الأهرام عقيدة المصريين فى البعث : فكان المفروض أن يحضر الكاهن المنشد الذى كان يقوم مقام الابن الأكبر للملك المتوفى ، ويخاطب الملك الميت بقوله: « انهض أن العابدين هنا فى قبرك ، فك عنك لفائفك ، انفض الرمال عن وجهك ، ارفع وجهك حتى ترى ما فعلته لك ، إننى ابنك وخليفتك ، لقد جمعت عظامك بعضها فوق بعض ، وأصلحت لك أعضاءك ، وأبعدت عنك أدرانك ، وحللت عنك جبائرك ، وفتح لك القبر بعد ما فتح للتابوت ، انهض أيها الملك وتقبل هذا الماء واجمع إليك عظامك ، وقف على قدميك ... وانهض من أجل هذا الخبز الذى لا يجف ومن أجل تلك الجعة التى لا تفسد » . ثم تبدأ عملية معقدة لاستعادة الحواس فيرتل الكاهن : « لقد فتح للملك فمه وأنفه وأذناه » . وكان يشترط لإتمام عملية البعث أن يطمئن إلى وجود القلب فى الجسد على اعتبار أنه مركز الشعور .

نصوص التوابيت :

ويلى نصوص الأهرام فى الأهمية مصدران آخران هما : نصوص التوابيت ، وهى كتابات دينية مدونة معظمها على جدران التوابيت الخشبية ظهرت فى فترة الانتقال بين الدولة القديمة والوسطى ، كذلك من زمن الأسرتين التاسعة والعاشرة وهو ما يعرف بالعصر الأهناسى نسبة لاتخاذ ملكها لمدينة أهناسيا عند الفيوم عاصمة لهم .

كتاب الموتى :

والمصدر الثالث هو ما سمى بكتاب الموتى ، الذى دون عادة على البردى ووضع فى المقابر ، وكان نادرا ما يسجل على جدران القبر من الداخل . وظهر فى بداية الأسرة الثامنة عشرة واستمر استعماله حتى نهاية العصر الفرعونى .

وكانت القرابين التى تقدم إلى الميت تساعد فى تصورهم ، على تحول المرء بعد ذلك إلى روح « با » (Ba) حيث يبدأ حياة أخرى وهو مالك لكل حواسه وقواه التى تعينه على تلك الحياة .

وكانت الطقوس تنتهى عند هذا الحد بالنسبة للإنسان العادى ، فنهايته فى الأرض لا يتخطاها مع عالم الموتى عالم الإله أزوريس ، يتقبل القرابين التى تقدم إليه ، وتخرج روحه تسعى بين الحين والحين لتشارك الأقارب أعيادهم عندما يزورون موتاهم ، أما السماء فكانت وقفا على الآلهة والملوك ، حيث يبدأ الملك المتوفى رحلته إلى السماء . وكان صعود الملك إلى السماء يتم بصور شتى : كأن يصعد الملك على هيئة الصقر ، أو على بساط الريح ، مستعينا بشعاع الشمس ، أو فوق سحابة من البخور ، وأحيانا ترتفع به الأرض وتنحنى له السماء ، أو لعله يصعد واقفا ، كما روى عن السيد المسيح عليه السلام ، أو فى قارب يجتاز به محيط السماء ثم يتخطى جميع العقبات بفضل ما زود به من أناشيد سحرية خاصة ، وحينما يصل إلى أبواب السماوات يعلن أحد الآلهة مقدمه ، وتسعى إليه بقية الآلهه لتكون فى خدمته ، ويجلس على عرش الإله الأكبر ويتخذ مكانه فى موكب الشمس ليشرق معها كل صباح . ومن هنا نبتت فكرة مركب الشمس . والتى خلط بينها وبين المراكب الجنائزية الحقيقية التى استعملها الملك خوفو فى موكبه الأخير ، وكان قد أمر أن تدفن معه من حول الهرم . ذلك طرف لتخيل المصريين للعالم الآخر .

الكـا :

كان معروفا للعقائد المصرية أن كل امرئ يأتى إلى هذا العالم تتبعه صورة غير مرئية منه لحمايته تولد معه على شاكلته وتسمى الكا (Ka) أى القرين ، أو الروح الحارسة ، فعلى جدران ما يعرف ببهو الميلاد بمعبد الدير البحرى بطيبة (فى البر الغربى من الأقصر) صورت أسطورة ميلاد الملكة حتشبسوت وروحها الحارسة ، وعلى معبد الأقصر صور ميلاد الملك أمنحوتب الثالث وقرينه فى نفس الوقت . وكان يعتقد أن لهذه الروح الحارسة شأن كبير فى حياة الشخص وبعد مماته. وكان يرمز إليها

بذراعين آدميتين مرفوعتين ترمزان إلى الحماية ، وفى اعتقادهم أنه حينما يتم السيطرة على « الكا » فمعنى ذلك فى نظر القدماء أن صاحبها أصبح خاضعا . وكان يفترض فى القرين أو الروح الحارسة مساعدة صاحبها فى الإجابة على أسئلة الآلهه وإمداده بكل ما يحتاجه من مأكل ومشرب ، وكان لها مهمة بث الحياة فى تماثيل صاحبها وحمايته وطرد الشرور عنه أينما ذهب .

أما مكونات الشخصية الفعلية فى نظر المصريين القدماء فهما الجانب المرئى أى الجسد خات (Khat) والجانب الخفى أى الروح « البا (Ba) » بمعناها المعروف ، وهى تخرج إلى الوجود لأول مرة عند موت صاحبها ، فعندما يموت المرء يتحول إلى « با » (Ba) أى روح ، وكان يرمز اليها بطائر له رأس صاحبها ويدان آدميتان أيضا .

الإيمان بالحساب :

وإلى جانب اعتقاد المصرى فى البعث فإنه آمن بالحساب أى بالثواب والعقاب فى العالم الآخر . وسيطر هذا الاعتقاد على أفعال الناس فى الحياة الدنيا ، فوضعت للحياة تقاليد ومفاهيم ، وفصلت الحدود بين الخير والشر وأصبح الخير هدفا فى حد ذاته ، وهناك من الدولة القديمة ضمن تاريخ حياة أحد حكام إقليم إلفنتين (أسوان) المدعو (حور خوف) وكان من أوائل الرحالة الأقدمين ، ما يوضح حرص المصرى على فعل الخير ، إذ يقول : « (لقد كنت) محبوبا من والدى ممدوحا من أمى ومن أخوتى ، فأنا أعطيت الخبز للجائع ، والكساء للعارى وساعدت من ليس لهم قوارب على العبور ، وفيما يتعلق بأى أمرئ (يتجرأ) ويدخل (مزار) هذا القبر وهو قذر فإننى سألوى عنقه مثلما أفعل بطائر ، وسوف يعاقب عليها بواسطة الإله الأكبر ، فأنا لم أقل إلا ما هو طيب (حميد) ، ولم أردد إلا ماهو محبوب ، ولم يسبق أن وشيت بأحد من الناس لدى عظيم (من العظماء) لأنى أرغب فى أن يطيب ذكرى عند الإله الأعظم ، ولم أوقع بين أخوين ولم أفرق بين الأب وابنه».

والمقصود بالإله الأكبر هو الإله أوزيريس ملك العالم السفلى ، ورئيس محكمة الموتى حيث يؤتى بكل من غادر الحياة لكى يحاسب على أفعاله . وتعطينا برديات من الدولة الحديثة والتى تعرف مجازا باسم « كتاب الموتى » صورة واضحة المعالم بالرسم والوصف لكل ما يدور خلال تلك المحاكمات :

فأمام الإله أوزيريس الجالس على عرشه بكل إشارات الملك والسلطان ومن خلفه إثنان وأربعون قاضيا يمثلون عدد أقاليم مصر كلها ، وضع الميزان ، ويقوم عليه إله الجبانة أنوبيس ولقد صور على هيئة ابن أوى ، وحيث يقف الإله تحوت (إله الكتابة والمعرفة ، ويرمز إليه بطائر أبو منجل الإبيس ويحاكى طائر أبى قردان فى هدوئه وشكله) ممسكا بالورقة والقلم ليسجل وقائع المحاكمة ، وفوق احدى كفتى الميزان يوضع قلب من يحاكم ويقابله على الكفة الأخرى رمز العدالة وهو عبارة عن ريشة ، وعلى عكس الآية الكريمة « فأما من ثقلت موازينه ، فهو فى عيشة راضية ، وأما من خفت موازينه فأمه هاوية ، وما أدراك ماهية ، نار حامية »[٤] أى إذا ما ثقلت كفة القلب فمعنى ذلك سوء المصير حيث يتلقفه وحش ضخم على هيئة تمساح ، أو يلقى به فى نار جهنم خالدا فيها .

ذلك كان تصورهم للحساب بعد الموت ومن أجله جهزوا أنفسهم بعدد من الكتابات والأحجبة السحرية سجلوها فى بادئ الأمر بالمداد على جدران توابيت الموتى أطلق عليها « نصوص التوابيت » ، والتى انتشرت فى مصر كلها فى الفترة ما بين بداية الدولة الوسطى (٢٠٤٠ ـــ ١٧٨٥ ق.م.) وبداية الدولة الحديثة (١٥٥٧ ق.م.) ، ثم تطورت النصوص وسجلت على أوراق البردى ووضعت تلك القراطيس البردية فوق التابوت أو داخل اللفائف الكتانية من حول المومياء لتكون فى أقرب مكان من الميت لعلها تعينه فى رحلته خلال عالمه السفلى . ومن أهم ما حوته تلك الكتابات التى عرفت مجازا باسم « كتاب الموتى » الاعتراف السلبى (Negative Confession) وهو الفصل ١٢٤ من كتاب الموتى ، عبارة عن محاولة تعداد الجرائم والأفعال المكروهة التى لم يقترفها الميت : مثل لم أقتل ، لم أفرق بين المرء وزوجه ، لم أوقف

تدفق المياه فى مواسمها (مواعيدها) ولم أسد قناة يجرى ماؤها ... ألخ وكلها نماذج لقواعد الأخلاق والقيم الاجتماعية والسلوك الاجتماعى لا يمكن للباحث أن يخطئها .

الإيمان بالآلهة :

ومنذ أقدم العصور والمصريون القدماء يحاولون البحث عن القوى الخفية المسيطرة على حياتهم وعلى مماتهم ، وتطلعوا إلى ما حولهم من مظاهر الطبيعة ومخلوقاتها فلاحظوا أن فى معظمها قوى غير عادية بعضها نافع لهم والبعض الآخر ضار خطير عليهم ، فأرجعوا الخير والضر إلى قوى إلاهيه ، وتخيلوا أن الآلهه تحل فى تلك الكائنات وفى الظواهر الطبيعية ومن هنا جاء تقديسهم للأرض والسماء والهواء والنيل وللكواكب كالشمس والقمر وبعض النجوم كنجمة الفيضان أو الشعرى اليمانية (Sothis, Spd. t) ولكثير من الحيوانات الأليفة كالبقرة والثور والوعل والكبش ومن الحيوانات البرية اللبؤة والقطة الوحشية وابن آوى من فصيلة الكلب والتمساح والثعبان المعروف باسم الكوبرا ... الخ ومن الطيور الصقر والعقاب وغيرها .

وهذه بعض تصورات المصريين لنشأة الكون ، وظهور الخليقة :

وتتفق معظم نظريات خلق الكون فى كل من عواصم مصر القديمة فى أن الإله الأكبر قام من العدم وخلق نفسه بنفسه ثم بدأ فى خلق الكون كله وما عليه من كائنات :

فنظرية هليوبوليس (ومكانها حاليا المطرية وتعتبر ضاحية من ضواحى القاهرة) تقول أن الإله الأكبر (أتوم Atum) أى الكامل (وهو صورة من صور الشمس وهى تغرب) بعد أن خلق نفسه ، أنشأ عنصر الهواء (شو Shu) الذكر وعنصر الماء (تفنوت Tefnut) الأنثى ، وتزاوج هذان العنصران الذكر والأنثى فنتج عن ذلك عنصران آخران هما الأرض (جب Geb) الذكر والسماء (نوت Nut) الأنثى ، وفى الأصل كانت السماء والأرض رتقا ، فقام إله الهواء (شو Shu) بالفصل بينهما فرفع السماء عن الأرض (٥) ، « أو لم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقا

ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شئ حى أفلا يؤمنون » ثم ظهر أول جيل من البشر وهم : أوزيريس وأخته وزوجته فيما بعد إيزيس ثم ست وأخته وزوجته نفتيس . ولعل أوزيريس وست يقابلان قابيل وهابيل اللذين ورد ذكرهما فى الكتب السماوية . وأصبح أوزيريس فى نظر الأساطير المصرية مثلا لكل الخير على هذه الأرض بينما كان أخوه ست يمثل كل شرور هذا العالم ، وهكذا نشأ « تاسوع هليوبوليس » .

أما نظرية منف : التى ظهرت متأخرة نسبيا بعد توحيد الوادى تحت زعامة الملك مينا (نعرمر) فتقول بأن الإله بتاح أى الفتاح وهو (الصانع أو الفنان الأكبر) معبود مدينة منف خلق الكون عن طريق قلبه (فكرة) ولسانه وبكلمة منه أي يقول للشئ كن فيكون . وكانت له زوجة على هيئة اللبؤة تدعى « سخمت » وولد يدعى نفرتم (كان يصور شابا وعلى رأسه زهرة اللوتس) .

ونظرية الأشمونين : (وتقع حاليا فى محافظة المنيا بمصر الوسطى) ترى أن الكون يتألف من عناصر أربعة : الماء الأزلى (النون Nun) والفضاء اللانهائى (الحاح Heh) والظلام المطبق (الكاك Kak) ثم عنصر الهواء ويسمى آمون Amon بمعنى الخفى . وقد حملت مدينة الأشمونين هذا الاسم حتى اليوم ومعناه بالمصرية الثمانية (أى مدينة الثمانية) والمقصود بذلك العناصر الأربعة السابق ذكرها ، بوصفها آلهة ذكور . مضافة إليها زوجاتهم الأربعة فيكون المجموع ثمانية عناصر (أى شمن : ثمانية بالمصرية) . وسميت الأشمونين حاليا لأن المدينة تتألف من قسمين .

وهكذا نرى أن المعبود آمون كان فى الأصل عنصرا من عناصر نظرية الخلق فى الأشمونين ، ثم نقله أصحابه إلى طيبة ليرفعوه فوق آلهة البلاد وليجعلوا منه معبود الدولة الرسمى فيما بعد . وكان آمون يصور على هيئة شاب على رأسه ريشتان طويلتان ، واتخذ القوم لآمون زوجة اسموها « موت » (Mut) أى الأم على هيئة امرأة أما ابنهما « خنسو » فكان يرمز للقمر (٦) . وبنيت لثالوث طيبة « آمون ــ موت ــ خنسو » أضخم المعابد المصرية على الإطلاق مثل معبدى الكرنك والأقصر ، بعد أن أصبح آمون إله الدولة الرسمى ، يحكم الملوك باسمه وتحارب الجيوش تحت لوائه .

ولقد اعتبر المعبود خنوم (Khnum = غنم) الذى كان يرمز له بأحد الكباش الإفريقية من الآلهة الخالقة ، وكان يعتقد أنه قام بخلق الآلهة والبشر أجمعين بوساطة عجلة الفخار ، وازدهرت عبادة خنوم فى إسنا والفنتين (عند أسوان) وفى النوبة وفى السودان وفى أماكن أخرى من شمال الوادى كالفيوم .

وفى أحيان أخرى ــ كان الإله الأكبر يتخذ له عرشا على الماء ثم يبدأ فى خلق الكون . « وهو الذى خلق السماوات والأرض فى ستة أيام وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملا . لئن قلت إنكم مبعوثون من بعد الموت ليقولن الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين » (٧)

تلك بعض عقائد المصريين القدماء عن خلق الكون ، وكان لكل من هذه المعبودات حزب مشايع ، حاول كل منها أن يبشر بعقيدته بين سكان الأقاليم الأخرى طمعا فى زيادة النفوذ ، وحبا فى السلطة . وجرت تلك المحاولات السياسية والحزبية تحت لواء الدين ، ثم انتقلت العقائد من مرحلة تعدد المعبودات إلى مرحلة ترجيح وتفضيل بعض المعبودات الدينية على البعض الآخر .

ونال بعضها شهرة بين عامة الشعب جعلها تنتشر بسرعة بين ربوع البلاد وتبتلع غيرها من المعبودات المحلية ، فالمعبود أوزيريس أصبح فى نهاية الدولة القديمة يحتل مكانا خاصا عند عامة الشعب .

أسطورة أوزيريس وإيزيس :

وتحكى أسطورة « أوزيريس وإيزيس » أن أوزيريس قد أوتى الملك والحكمة ، علم شعبه الزرع والحرث وأقام الحدود ، ووضع للحياة أسسا وتقاليد فأحبه الناس ، فحقد عليه أخوه « ست » ، وسولت له نفسه قتل أخيه ، ففكر ودبر وأعد الخطة ، أقام حفلا وادعى أنه أقامه تكريما لأخيه ، ودعا إليه عصبة السوء . وبعد أن أكل الجميع وشربوا وطربوا أعلن ست فى المحتفلين أنه قد أعد مفاجأة تتمثل فى صندوق نفيس صنع من خشب الأبنوس مطعما بالذهب والأحجار الكريمة يكون من نصيب من يأتى

مطابقا لمقاسه ــ وبدأت المأساة : كل فرد من أفراد عصابة السوء يستلقى فى الصندوق ثم ينهض آسفا لضياع الفرصة ، فاذا ما استقر أوزيريس فى الصندوق تكاثروا عليه وأحكموا فوقه الغطاء وألقوه فى اليم فحمله النيل إلى البحر ثم قذفته أمواج البحر المتوسط إلى شاطئ مدينة جبيل الكنعانية (ببلوس Byblos) على ساحل لبنان والتى كان يستورد منها المر اللازم لعمليات التحنيط ، هناك نبتت شجرة واحتضنت التابوت فى جوفها ، ويمر أمير جبيل ذات يوم ويعجب بالشجرة فيأمر بقطعها لتستقر عمودا شامخا داخل قصره وفى تلك الأثناء كانت إيزيس أخت أوزيريس وزوجته تجوب الآفاق بحثا عن زوجها ، وتحملها قدماها إلى شاطئ لبنان . ويأتى إليها جوارى قصر أمير جبيل كل ليلة لتمسح رؤوسهن بطيب مصر ، وتعلم الأميرة بخبر الفتاة المصرية ذات الطيب الزكى ، فتأمر بإحضار إيزيس لتكون ضمن جواريها . وحين يهديها إحساسها إلى وجود زوجها أوزيريس داخل ساق الشجرة بالقصر تحمله سرا وتخرج به ذات ليلة قاصدة مصر ، وفى أحراش الدلتا تضع الصندوق وتأخذ فى البكاء المر فتسقط بعض دموعها على وجه أوزيريس ، فيعود إلى الحياة ، وتصرخ إيزيس فرحة . هنالك يسمعها أخوها الشرير « ست » الذى صادف أن كان يصطاد فى مكان قريب فيقبل ويقسم ليقطعنه إربا إربا ، ويلقى بكل قطعة فى واد ، حتى يستحيل على إيزيس أن تجمعها وتعيد إليها الحياة ، وتسعى إيزيس فى البحث عن أشلاء زوجها . وكلما عثرت على جزء أقامت عليه شاهدا ، ومن أجل ذلك كثرت الأماكن التى تظن أنها مستقر الشهيد أوزيريس ، ومازال بعضها يحمل اسم « أبو صير » « ومعناه مكان أوزيريس » حتى الآن . وتستمر الأسطورة فيحدث بعد ذلك أن تحمل إيزيس من روح زوجها بعد وفاته وتلد حورس لينتقم لأبيه من عمه الشرير « ست » ، وتكثر المعارك بينهما ، ويفقد حورس خلالها إحدى عينيه التى كانت ترمز للقمر . بينما ترمز الأخرى للشمس ، ثم يستعيدها بعد أن تفقد بعض نورها ، ويتدخل الإله الأكبر فيحكم بينهما ويعطى حورس ميراث أبيه ملك مصر ، أما « ست » « فله ملك الصحراء » . ويصبح الشهيد أوزيريس ملكا على العالم السفلى ، ووصل حب الناس لأوزيريس إلى الأمر

الذى أصبح به كل ميت منتسبا إلى أوزيريس ، وأصبحت كلمة أوزيريس معناها المرحوم ، وأضحى كل ملك من ملوك مصر وهو على قيد الحياة « حورس الوريث الشرعى لأبيه » ، كما أصبح أوزيريس المتجدد فى شكل حورس يمثل النيل وصراعه مع الصحراء ، مملكة المعبود « ست » ، ولعل أصدق تعبير لذلك صورة أوزيريس المشكل على هيئة حوض بداخله تربة ينبت فيها القمح ، عثر عليها فى مقبرة توت عنخ آمون (١٤٤٦ ــ ١٣٣٦ ق.م.) . أما إيزيس فأصبحت رمزا للأمومة والوفاء ونالت شهرة كبيرة وخاصة فى العصر المتأخر فبنى لها معبد فى بهبيت الحجر عند سمنود بالقرب من فرع النيل الشرقى بالدلتا ، بدأ فى بنائه ملوك الأسرة الثلاثين المصرية (٣٨٠ ــ ٣٤٣ ق.م.) وأتم بناءه الملك بطلميوس الثانى (٢٨٤ ــ ٢٤٦ ق.م.) ولكن أتباع المسيحية الأوائل أصابوه بالتدمير الشديد ، فأضحى أطلالا ، كما فعلوا ببقية آثار الدلتا ومعظم آثار مصر كلها ، وبنى لإيزيس معبد فى قفط ، ومعبد فى جزيرة فيلاى عند أسوان تجاوزت شهرته الحدود إلى السودان القديم أيام حضارة مروى التى ورثت عن الحضارة المصرية معظم عناصرها . وكان الملوك المرويين يرسلون الرسل إلى معبدها الشهير فى جزيرة فيلاى (بأسوان) كل عام حاملين الهدايا والقرابين ، ومازالت بقايا هذا المعبد قائمة حتى اليوم فيما يعرف حاليا بإسم قصر أنس الوجود الذى تحدث عنه أمير الشعراء أحمد شوقى :

قف بتلك القصور فى اليم غرقى

ممسكا بعضها من الذعر بعضا

رب نقش كأنما نفض الصا

نع منه اليدين بالأمس نفضا

وقد نقل هذا المعبد من مكانه إلى جزيرة أخرى جنوبى سد أسوان القديم وذلك بمساعدة اليونسكو .

أما إيزيس فكان لها شأن كبير فى زمن حضارة مروى بالسودان ، فضلا عن معبدها الشهير فى جزيرة فيلاى بأسوان الذى كان كعبة تحج إليه الوفود الرسمية ، وهناك آخر فى مروى وهو يقع إلى الشمال من معبد آمون الكبير ، حيث عثر على تمثالين لإيزيس عند مدخل ذلك المعبد . كما صورت إيزيس على الجدار الجنوبى لمعبد الأسد بالمصورات الصفراء خلف الملك أرنخ ــ أمانى (٢٣٥ ــ ٢١٨ ق.م.) تمسك بإحدى يديها علامة الحياة (عنخ) تمدها خلف كتف الملك رمزا لحمايته، وهو نفس دورها القديم فى حماية الملوك فى مصر القديمة ، ذلك الدور الذى اكتسبته منذ القدم والذى تجلى فى أسطورة إيزيس وأوزيريس عندما كانت تحمى ابنها حورس ، وفى يدها الأخرى جريدة نخيل تنتهى قرب قمتها بعلامة الحياة أيضا .

وينبغى أن نلاحظ أن ظهور جريدة النخيل فى مكان الصولجان فى يد الآلهة أو الملوك قد تميزت بكثرة استعماله « حضارة مروى » ، ومن أمام الملك صور مهرجان الآلهة يتقدمهم إله الحرب ومعبود منطقة المصورات « أبد مك ــ الأسد » وعلى الجدار الشمالى لمعبد الأسد بالمصورات ظهرت إيزيس فى الجانب الآخر خلف الإله حورس الذى صور فى نهاية مهرجان الملك .

وفى « واد بانقا » بنى لإيزيس معبد عثر بداخله العالم الألمانى لبسوس (١٨٤٤م) على قاعدة حجرية كانت مخصصة لحمل القارب المقدس وتمثال إيزيس ، وعلى جانبها صورت إيزيس وأختها نفتيس ترفعان أيديهما إلى أعلا لتحملان علامة تمثل السماء بنجومها ، وهذه القاعدة الحجرية (رقم ٧٢٦١ بمتحف برلين الشرقية) ذات قيمة عظيمة بالنسبة لمحاولات فك رموز الكتابة المروية حيث نقش عليها أسماء الملك « نتك أمانى والملكة أمانى تيرة » تارة بالهيروغليفية المصرية وتارة أخرى بالهيروغليفية المروية . مما ساعد العالم الإنجليزى جرفت عام ١٩١٠م فى أبحاثه على فك رموز الخط المروى .

وبالإضافة إلى ذلك فان إسمى إيزيس وأوزيريس كانا يترددان كثيرا على اللوحات الحجرية (شواهد القبور) ضمن دعاء يبدأ دائما بإسم إيزيس « يا إيزيس ويا

أوزيريس » ثم يرد إسم صاحب اللوحة وإسم أمه ثم إسم أبيه، يليهما بعض المناصب التى تولاها الراحل فى حياته ثم تنتهى بطلب القربان فى صورة ماء وخبز على روح الميت ، بل أن إيزيس صورت مع المعبود أنوبيس على بعض موائد القربان وهى تقوم بصب القربان السائل .

حابى إله النيل :

آمن المصريون بتعدد الآلهة وكانت هناك معبودات مشتركة لا تعرف حدودا إقليمية ولا تقتصر على جماعة بعينها فأضحى للنيل معبود سمى « حابى Hapi » جمع فى هيئته بين خصب الأنثى وخصب الذكر ، وحمل فوق يديه مائدة قرابين عليها بعض من خيرات النيل ، ولم تكن كلمة « حابى » تطلق على النيل كاصطلاح طبوغرافى وإنما كان المقصود « بحابى » هو القوة الخفية التى تسير هذا النيل وتفيض بخيرها على الوادى فى ميقات معلوم .

معبودات الجبانة :

ومن المعبودات المشتركة أيضا إله الجبانة والقائم على عملية التحنيط « أنوبيس Anubis » وقد تخيله المصريون منذ قديم الزمن فى صورة نوع من ابن آوى كان هو العدو اللدود لجثث موتاهم ، اذ كان يقوم بنبش القبور والعبث بأجساد الموتى بعد دفنها مباشرة ، وكان ذلك بالنسبة لهم شرا مستطيرا عجزوا عن مواجهته فسعوا منذ القدم إلى تقديسه علهم يتقون شره ، فلجأوا إلى خداع أنفسهم : فتخيلوا أنوبيس « قيما على خيمة التحنيط وحارسا للجبانة » ومن أجل ذلك كان الكاهن المشرف على التحنيط يلبس قناعا على هيئة المعبود أنوبيس أثناء تأدية عمله. ويعتبر أنوبيس أقدم معبود له صلة بالدفن ، وفى زمن الدولة القديمة ارتبطت صيغة تقديم القربان للمتوفى بالمعبود أنوبيس . وكانت بلدة القيس فى مصر الوسطى هى مركز عبادته.

وهناك آلهة أخرى للجبانة :

ففى أبيدوس ظهر المعبود « خنت ــ أمنتيو » وكان يلقب بحاكم الموتى ويتخذ من الصحراء موطنا ، ويرمز إليه بحيوان من فَصيلة الكلاب .

وكان المعبود « سوكر » فى سقارة متصلا بالجبانة . وكذلك المعبود « أوب ــ وأوات » فى أسيوط ، وكان يلقب بفاتح الطرق ، ولعل ذلك اشارة إلى دروب الصحراء الموصلة إلى شمالى السودان وأواسط أفريقيا . وكان يصور على هيئة الكلب .

وهناك أيضا إلهة الحصاد « رنوته » وإله الخصب « مين » .. إلخ ، كما قدس الثعبان والتمساح واسمه المصرى « مسحتى » قريب من الكلمة العربية ، والقطة « بسطه » وطائر أبو منجل « توت » والصقر « حورس » والعقاب « نخبت » وغيرها على اعتبار أنها تضم بعضا من قوى الألهة وهى إما قوى شريرة تقدس خشية ورهبة ، وإما قوى خيرة تقدس رغبة وطمعا فى نفعها .

وفى أواسط أيام الدولة القديمة نجح أصحاب مذهب الشمس « رع » فى فرض مذهبهم على الدولة بعد صراع مرير ، فأضحى المعبود رع معبودا رسميا استطاع أن يبتلع كثيرا من المعبودات المحلية ويتخذ صفاتها لنفسه.

واعتبر المعبود (رع) رب المشرق والمغرب ، وكان لذلك تأثيره فى تغيير وضع الموتى داخل القبور ، فمن قبل كان اتجاه الرأس إلى الجنوب ، والنظر إلى الغرب ، فأصبح اتجاه الرأس إلى الشمال ، والنظر إلى الشرق . اذ كانت إحدى رغبات المتوفى رؤية الشمس وعبادتها فى الصباح ، وقد صور الفنان عينين كبيرتين على جدار التابوت الخشبى ، وعلى الباب الحجرى الأصم المخصص لاستعمال الروح . وهو ما يعرف بالباب الوهمى ــ تنظران إلى مشرق الشمس أو إلى مقدم الزائرين المقبلين من الوادى .

آمون ــ رع :

وفى زمن الدولتين الوسطى والحديثة صعد المعبود « آمون » إلى القمة فأصبح معبود الدولة الرسمى ، وضم إليه صفات الإله « رع » فسمى « آمون ــ رع » وتمتع كهنته بنفوذ لا حد له، وبنيت له المعابد الضخمة ، وأوقفت من أجلها الأوقاف الشاسعة وخرجت الجيوش لتعود إلى رحاب « آمون ــ رع » فتضع غنائمها عند

أقدامه، ولقد بلغ مجد « آمون » ذروته أيام الملك « تحتمس الثالث » الذى ساعده كهنة « آمون » على الوصول إلى الحكم باختلاق الأساطير التى تساعده فى اعتلائه العرش.

ثم بدا الملوك يدركون خطر نفوذ كهنة « آمون » على عروشهم، فشرعوا يتحينون الفرصة للنيل منهم والحط من شأن معبودهم وأخذوا يتقربون من مذهب الشمس القديم. وكان كهنته يترقبون اللحظة لاستعادة مجدهم القديم فعندما وصل ركب الزمن أيام الملك أمنحوتب الثالث (١٤٠٠ ـــ ١٣٦٢ ق.م.) بدت محاولات جديدة لإضعاف نفوذ كهنة « آمون » فى طيبة فنراه يعهد بإمارة الدين فى مصر كلها لابنه « تحتمس » الذى مات قبل أن يبلغ العرش، ويبدى اهتماما خاصا بمنف، ليصرف النظر عن طيبة مركز نفوذ كهنة آمون، ويأمر ببناء معبد لإله الشمس فى الكرنك فى قلب ديار المعبود آمون، ولم يبق من آثار هذا المعبد إلا قطعة صغيرة، نقلت إلى متحف برلين مصورا عليها إله الشمس على هيئة آدمى له رأس صقر وعلى رأسه قرص الشمس، ومن الألقاب التى حملها « حورس » صاحب الأفق وهو « شو » إله الهواء وهو الذى فى قرص الشمس « آتون » (٨).

أول محاولات التوحيد:

وكان ذلك تمهيدا لقيام ثورة دينية تعتبر ثالث مرحلة من مراحل تطور الفكر الدينى فى مصر القديمة ونعنى بها مرحلة التوحيد. بعد أن تخطى الفكر المصرى مرحلتى تعدد الآلهة، وتفضيل معبود على آخر.

وأمنحوتب الرابع (أخناتون ١٣٦٣ ـــ ١٣٤٦ ق.م.) (لوحة رقم ٥) هو الذى وصل بالصراع الدينى إلى ذروته عندما دعا الناس جميعا إلى عبادة إله واحد يتمثل فى قرص الشمس، تخرج منه أشعة تنتهى بأكف توزع الخير على الناس أجمعين سماه « آتون »، وحرم الملك عمل تماثيل للمعبود الجديد، كما طلب من الناس الانصراف عن آلهتهم التى ألفوها وأمر ببناء معبد لآتون فى طيبة ذاتها، ثم تدرج فى تطرفه فغير

اسمه من « آمون حتب » أو « أمينوفيس » ومعناه « آمون الطيب » إلى « أخن آتون » أى أخناتون « مجد آتون » وذلك ليمحو كل ذكر للمعبود آمون ، وليمجد معبوده الجديد . وأمر ببناء عاصمة جديدة فى مصر الوسطى أطلق عليها اسم « أخت آتون » أى « أفق آتون أو مشرق آتون » وتسمى حاليا تل العمارنة بمحافظة المنيا ، انتقل اليها ، وأقام فيها معبدا ضخما لآتون وأراد بذلك أن يصرف الناس عن العاصمة القديمة طيبة وما فيها من مراكز نفوذ للمعبود آمون ، وأعطى الإشارة لأتباعه ليسعوا فى الأرض ويحطموا كل آثار المعبودات الأخرى ، وبلغ الحد بتطرفهم أن سعوا داخل المقابر ليمحوا صور الآلهة القديمة وأسماءها ، فكان تطرفهم سببا فى ضياع كثير من آثار السلف التى حفظتها الأيام . لم يتسع لها صدر المتطرفين من أتباع أخناتون . وانشغل أخناتون بأمور دينه عن مقدرات البلاد وأهمل شئون السياسة والحرب فأضاع مجد الآباء والأجداد ، وتعرضت وحدة البلاد مع فلسطين وسوريا فى عهده لخطر داهم ، وبحت أصوات المنذرين من المخلصين بلا طائل . وانفصلت الملكة « نفرتيتى » (لوحة رقم ٦) عن زوجها أخناتون . ثم فجأة يهوى كل ما بناه الملك ، وتقوم الثورة فتجرفه أمامها ، والتاريخ لا يزال يجهل نهاية ذلك المنبئ أخناتون ونهاية زوجته الملكة نفرتيتى ، ذلك الذى شارك أباه فى الحكم عشر سنوات ، وحكم ما لا يقل عن سبع عشرة سنة ، ومات عن سن لا تقل عن خمسين سنة . ولكن المؤكد بعد ذلك أن المذهب انهار تماما ، وحطمت عاصمته الجديدة وكل آثاره تحطيما بالغا ، وجمعت بقايا معبد آتون بطيبة ، واستعملت حشوا لإحدى بوابات معبد الكرنك تأكيدا لإخفاء معالم عقيدة آتون إلى الأبد . ولقد عثر عليها حديثا فى أعداد هائلة من الأحجار الملونة والمنقوشة بإتقان بلغت نحو خمسة وثلاثين ألف حجر ، ويحاول الباحثون فى الوقت الحاضر دراسة ما عيها من رسوم وكتابات مع الاستعانة بوسائل العلم الحديث « الحاسب الإلكترونى » ليعرفوا المزيد عن تلك الفترة الهامة من فترات التاريخ المصرى والتى تسمى بعصر العمارنة نسبة إلى الإسم الحالى لعاصمة أخناتون .

ولكن ، لماذا فشل أخناتون فى نشر عقيدة التوحيد بين الناس رغم سلامة الفكرة ذاتها ؟ .

لقد كان من الصعب على عامة الناس البسطاء ان يتقبلوا ذلك المذهب المجرد ، وأن يتركوا ما ألفوه وورثوه عن السلف فالمعبودات المحلية والخاصة كان لها شأن كبير فى نفوسهم ، يلجأون إليها ساعة الشدة لتشاركهم فى الملمات وفى المسرات .

ولم يتعود القدماء من الفراعنة ذلك المسلك فهم فى نظرهم رمز السلطة ، والسلطة هى التى تشرف على جباية الضرائب وتنفيذ الأحكام فلما أتتهم الدعوة من فرعون نظروا إليها بكثير من الريبة .

تطرف حزب فرعون فى فرض المذهب بالقوة بين الناس ، فآلموهم فى أقدس معتقداتهم بلا رحمة . ولم يراعوا التدرج والحكمة بل آثروا القوة الغاشمة .

وكان أخناتون ـــ رغم كل ذلك ـــ ضعيفا غير حاسم فمن ناحية ، ترك أمور البلاد الداخلية والخارجية تنهار وهو فى غفلة عنها ، ومن ناحية أخرى آثر السلامة بمغادرة العاصمة طيبة دون أن يقضى على أعدائه كهنة آمون . واتخذ بطانة مضللة لم تخلص له وعزلته عن الأحداث التى كانت تجرى فى الداخل والخارج وحجبت عنه النصيحة فانتهز حزب آمون الفرصة وأخذ يدبر المكائد ، ويتحين الفرصة للانقضاض بثورة مضادة إلى أن استطاع أخيرا أن يقضى على المذهب الجديد ويعيد الأمور إلى سيرتها الأولى .

تلك كانت نتيجة المحاولة الأولى فى تاريخ البشرية لنشر عقيدة التوحيد فى مصر القديمة التى تعد مرحلة هامة من مراحل التطور الدينى فى حياة البشرية .

هكذا أسهمت مصر بدور رائد فى تطور العقائد الدينية فى العالم القديم ووضعت الأساس المتين لفكر دينى متمرس ـــ قدمته لشعوب العالم القديم ، ووجد الطريق مفتوحا إلى العالم الإغريقى ـــ الرومانى فيما بعد ليسد حاجة الناس إلى الإيمان .

آمون رع فى السودان :

وعندما بلغت الدولة المصرية أيام الدولة الحديثة إلى ما وراء جبل برقل ، وضمت عمليا بلاد النوبة وامتدت داخل القارة الإفريقية إلى سودان وادى النيل ، أخذت الحضارة المصرية بدورها تنتقل ومعها كل عناصرها المتطورة إلى تلك المناطق . ولا جدال فى أن المعتقدات الدينية كان لها فى ذلك أكبر نصيب فى تلك المرحلة الزمنية وفيما تلاها ، حيث انتشرت المعابد المصرية . كالأعلام فى أهم المراكز الحضارية ، وعلى الأرض الكوشية هذه ، عبدت الآلهة المصرية التى عرفت فى منطقة طيبة المصرية بل أن مدينة « نبتة » عند جبل برقل أصبحت هى الأخرى مقرا رسميا لمعبود الدولة « آمون ــ رع » الذى سمى « سيد الوجهين القائم على جبل نبتة المقدس » بعد أن بنى له هناك معبد يليق بمكانته.

وكان للمعبود آمون مركز ممتاز فى حضارة السودان القديم ، فالملك بعنخى (٧٥١ ــ ٧١٦ ق.م.) يتغنى بالمعبود آمون فى رسالته إلى جنده المتجهين إلى فتح مصر : « فاذا ما بلغتم مدينة طيبة وواجهتم معبد الكرنك (المقر الرسمى للمعبود آمون) فانزلوا إلى الماء ، وتطهروا فى النهر ، والبسوا أرديتكم قبل أن تبارحوا الشاطئ ، واخفضوا القوس وفكوا السهم ولا تتفاخروا بعظيم (لكم) فخركم برب القوة (آمون) فليس هناك من شجاعة شجاع بدونه فهو يخلق من الضعيف قويا ، ويجعل الكثرة تعطى ظهرها للقلة ، والرجل الفرد يغلب ألفا . وانثروا مياه قرابينه، وقبلوا الأرض بين يديه، وقولوا له اهدنا الصراط المستقيم فكلنا يارب نحارب فى ظل بأسك ، فالجيش الذى تقوده ينتصر دائما » .

فالمعبود آمون كان إله الدولة الرسمى فى نبته ومروى فى سودان وادى النيل ، حيث أقيمت له المعابد على غرار معابده فى طيبة ، وحيث ظهر اسمه فى كثير من أسماء الملوك والملكات .

كما عرفت معبودات النوبة أيضا طريقها إلى السودان القديم .

فالمعبود مندوليس ــ إله البلميين ــ الذى صور على هيئة آدمى ، بنى له معبد

فى كلابشه بالنوبة المصرية فى عهد الامبراطور الرومانى أغسطس (١٠٠ ــ ٤٤ ق.م.) مما يبين أهمية هذا المكان من النوبة كمركز دينى للإله مندوليس .

أما المعبود « أرنسنوفيس » الذى صور فى هيئة انسان ذى لحية على رأسه تاج مزين بإفريز من الحيات تتوجه ثلاث ريشات طويلات ــ فقد عبد فى المصورات الصفراء بأرض البطانة بين نهر عطبرة والنيل الأزرق .

ويعتبر المعبود « أبدماك ــ الأسد » وهو المعبود الرئيسى لكل من المصورات (Utlke) والنقعة (Ipbr) إلها مرويا صرفا حيث أقيمت له المعابد فى كل منهما ، وكان يصور عادة فى هيئة انسان له رأس الأسد ، إلا أنه صور على معبد الأسد بالنقعة ، تارة على هيئة ثعبان كبير ينتهى من أسفله بزهرة الأكانتوس (شوكة الجمل) الإغريقية الأصل وله رأس الأسد ويدان آدميتان ، وتارة أخرى صور على شكل إنسان له أربع رؤوس (ثلاث منها فقط ظاهرة) وأربع أذرع ، مما دعا البعض إلى القول بأن ذلك يوحى بأثر حضارى هندى .

وكان أبدماك إلها للحرب ، صور على معبد المصورات الصفراء ممسكا بأسير وقوس وسهام .

والملاحظ أن الأسد صور فى نفس الوقت على معبد الأسد بالنقعة من أسفل أقدام الملك والملكة على واجهة المعبد فى تصوير رمزى يفتك بالأعداء . وهو الدور الذى لعبه فى حضارة مصر القديمة حيث لم يقدس الأسد ، وانما قدست اللبوءة (سخمت) زوجة المعبود (بتاح) إله منف .

الفصل السادس

نشأة الفنون المصرية وتطورها

النقوش الصخرية :

احتفظت لنا بعض صخور منطقة النوبة بنماذج من الرسوم والصور الصخرية التى تعود إلى أقدم العصور الحجرية من تاريخ هذا الوادى وهى نحت بسيط فى الصخر يصور الطبيعة الحيوانية لذلك العهد ، ومعنى ذلك أن إنسان العصور الحجرية أخذ يعبر عن نفسه بالإنتاج الفنى وتلك صفة من أهم صفات الإنسان الحديث ويعتبر البعض أن تلك الرسوم ، معظمها مناظر لصيد الحيوانات لها صلة بأغراض السحر ، أى أن القصد من تصويرها مرجعة إلى الرغبة فى السيطرة عليها عن طريق السحر ، وذلك كله لا يغير من حقيقة أن الفنون بمعناها المطلق قد بدأت تعلن عن وجودها منذ أقدم عصور ذلك الوادى .

الرسم على الأوانى :

وفى عصور ما قبل الأسرات اتخذت الرسوم على الأوانى الفخارية أشكالا تدل على تقدم ملموس فى فن الرسم ، ففى عصر العمرة أقدم أزمنة عصر ما قبل الأسرات ظهرت صور الحيوان والنبات فى شكل زخارف تينى رغبة هؤلاء القوم فى عمل رسوم لغرض فنى زخرفى بحت ليس له علاقة بهدف نفعى أو سحرى ، ووجد على أحد الأوانى رسم بسيط لرجلين يقتتلان .

أما عصر جرزة وهو العصر التالى لعمرة ، فتميز بأوانيه الفخارية المزخرفة فى أشكال متعددة ظهرت فيها الطيور والحيوانات وصور الإنسان والمراكب . وإلى جانب ذلك هناك الأوانى المشكلة على هيئة الإنسان والحيوان .

أول محاولات النحت :

وفى العصر العتيق ، زمن الأسرتين الأولى والثانية تطورت الألواح الإردوازية التى كانت تستعمل من قبل لغرض عملى وهو طحن الكحل إلى أشكال فنية للحيوان والطير والنبات والانسان .

لوح الملك نعرمر :

ومن هذه الألواح ما له قيمة تاريخية كبيرة كلوح الملك « نعرمر » (رقم ٣٢١٦٩ ــ بالمتحف المصرى) (لوحة رقم ٧ ، ٨) الذى يعتقد أنه والملك « مينا Menes » شخص واحد ، ذلك الملك الذى تردد ذكره فى المصادر التاريخية المتأخرة بوصفه موحد مصر ومؤسس الأسرة الأولى ، والرسوم المنقوشة بدقة متناهية على وجهى اللوح بطريقة النحت البارز تعد أهم مصدر يصور عملية توحيد الصعيد والدلتا وتأسيس الدولة المصرية المتحدة : نقش فى وسط الجزء الأعلى من كل من الوجهين اسم الملك نعرمر بين رأسى بقرة ــ رمز المعبود حتحور ، أما أحد وجهى اللوح فقد قسم إلى قسمين رئيسيين : على القسم العلوى صور الملك نعرمر لابسا تاج الصعيد وممسكا بإحدى يديه دبوس القتال الحجرى يهوى على رأس أسير ، ربما كان يمثل زعيم أمراء الدلتا ، وأمام وجه الملك صورة الإله حورس على هيئة صقر ، وهو يقدم للملك المنتصر رمزا لستة آلاف أسير ، ومن خلف الملك يقف شخص يحمل بإحدى يديه خف الملك وباليد الأخرى إبريقا .

والقسم الأسفل من اللوح يحمل صورة أسيرين يفران من إحدى القلاع . والوجه الآخر للوح يقسم إلى ثلاثة أقسام : القسم العلوى يمثل مهرجّان النصر وفيه يصور الملك لابسا تاج الدلتا ومعه ولى عهده ، ومن أمامهما حملة الأعلام يستعرضان قتلى المعركة ، رصت أجسادهم بينما قطعت رؤوسهم ووضعت بين أرجلهم ، والمنظر الأوسط يصور حيوانين خرافيين بعنقين طويلين يحصران بينهما فجوة كانت تخصص من قبل لطحن الكحل ، أما الآن فهى مجرد ذكرى ، وأمسك برأس كل منهما رجل بوساطة حبل ، وفى القسم الأسفل مثل الملك على هيئة ثور قوى يهدم قلعة إستولى

عليها ، وهو يطأ بإحدى أرجله أحد الأعداء ، واللوح فوق ما يدل عليه من أحداث هامة بالنسبة لتاريخ مصر ، يمثل مستوى متقدما من فن النحت البارز بالإضافة إلى ما فيه من رغبة فنية فى التعبير عن الحركة .

نحت التماثيل :

وبالنسبة لصناعة التماثيل فكان إنسان عصر ما قبل الأسرات وخاصة فى حضارة البدارى (محافظة أسيوط) وما بعدها يصنع التماثيل من الطين ومن العظام والعاج . إلا أن تلك التماثيل من الطين اختفت تقريبا فى بداية عصر الأسرات ، فى حين إزدهرت صناعة التماثيل من العاج إلى جانب صناعة تماثيل صغيرة من النحاس ومن القاشانى (الفيانس) ، أما التماثيل الحجرية فبدأت صناعتها رديئة ، ولكن فى أواخر العصر العتيق ظهرت تماثيل حجرية تدل على براعة فنية كبيرة من حيث التغلب على المواد الصلبة وصدق التمثيل . فهناك مثلا تمثالان للملك « خع سخم » من ملوك الأسرة الثانية عثر عليهما فى هيراكنوبوليس شمال ادفو ، أحدهما من الشست أى الأردواز (بمتحف القاهرة) والآخر من الحجر الجيرى (بمتحف اكسفورد) ، وبالمتحف المصرى تمثال صغير من الجرانيت الأحمر يرجع إلى زمن الأسرة الثانية يمثل أحد الكهنة ونقش على إحدى كتفيه أسماء الملوك الأوائل من ملوك الأسرة الثانية .

وحفظت لنا أرض مصر ذخيرة فنية لا بأس بها بالنسبة للفنون التشكيلية زمن الدولة القديمة ، بلغ بعضها حدا مذهلا من الإتقان الفنى ، فالقواعد والتقاليد التى سارت عليها المدارس الفنية المختلفة بدت راسخة ، ويلاحظ أن الفنان المصرى كان يعمل داخل حدود لا يسمح له بتجاوزها وكان للمركزية المطلقة بالاضافة إلى سيطرة الدين على الفنون أثر كبير ، مما دعا البعض إلى القول بأن فن النحت والرسم عند قدماء المصريين فن جامد ، والحقيقة أن الفنان المصرى كان يخرج عن القواعد الصارمة إذا ما أتيحت له الفرصة لكى يعمل بلا قيود ، حينئذ كان يبدع فنا يعبر تعبيرا صادقا عن الحياة والروح . والواقع أنه من الخطأ أن ينظر للفنون المصرية من خلال

مقاييسنا الفنية الحديثة والتى إعتمدت أساسا على تذوق الفنون الغربية . وحمل إمحوتب مهندس الملك زوسر (الأسرة الثالثة) لقب النحات أو الفنان التشكيلى إن جاز هذا التعبير . وهذا اللقب مسجل على قاعدة لتمثال مكسور بالمتحف المصرى .

ومن أشهر تماثيل الدولة القديمة تمثال الملك خفرع (لوحة رقم ١٦) المنحوت من حجر الديوريت ذى العروق الخضراء (إرتفاعه ١٫٦٨ متر) ويمثل الملك جالسا على العرش فى هيئة تقليدية . واختلف هذا التمثال عن بقية التماثيل الأخرى ذلك أن الفنان نحت من خلف رأس الملك صقرا يحتضن بجناحيه رأس الملك وبحيث لا يظهر الصقر اذا ما نظر للتمثال من الأمام ، وهذا أعطى للتمثال حماية فنية لأن رقبة التمثال هى أضعف جزء فيه وغالبا ما كانت عرضة للكسر ، ففكر الفنان فى تلك الاضافة الفنية حتى يضمن للتمثال الخلود ، إلى جانب ما يمثله ذلك من حماية دينية للملك على إعتبار أن الصقر كان يرمز إلى الإله حورس .

وهناك تمثال « الكاتب المصرى » (لوحة رقم ٩) الجالس القرفصاء بمتحف القاهرة ، حاول الفنان فى هذا التمثال أن يخرج للناس شخصية الكاتب بعد تحليل دقيق ، فالتمثال فوق تعبيره عن الذكاء المفرط لصاحبه ، لا ينقصه سوى نسيم الحياة (بالمتحف المصرى تمثال آخر يمثل كاتبا مصريا) . وهناك أيضا التمثال الخشبى المعروف بإسم « شيخ البلد » (لوحة رقم ١٠) والذى يعد من أقدم التماثيل الخشبية الموجودة حتى الآن ، وهو تمثال واقف لكاهن لاحظ العمال الذين قاموا بالكشف عنه شبها كبيرا بينه وبين شيخ بلدتهم ، فأطلقوا عليه إسم « شيخ البلد » ، والواقع أن هذه القطعة الفنية تمثل مستوى رفيعا للمهارة الفنية فى النحت . ومهارة الحفر تبدو واضحة فى نحت الأذنين وفى عوارض الشعر كما كانت العيون مطعمة بإتقان .

فن الرسم يستقر على أسس ثابتة :

وتعتبر مقابر جبانة منف فى الجيزة وأبى صير وسقارة ودهشور والتى تخص كبار رجال الدولة القديمة متاحف فنية زاخرة بالمصورات والرسوم الملونة التى تنقل إلينا كل نواحى الحياة فى مصر القديمة ، وتميز فن الرسم عند المصريين ببعض الملامح

الخاصة فكان الفنان يصور الشخص بحيث يكون الجسم فى وضع مواجهة ، بينما تصور الرأس فى وضع جانبى ، أما العين الوحيدة الظاهرة فانها تطور كامل فى وضع المواجهة ، على حين تتخذ الساقان والقدمان وضعا جانبيا ويخطئ الفنان كثيرا فى رسم القدمين اذ يصور أصابع القدمين بطريقة واحدة فيظهرهما وكأنهما صورة مكررة لقدم واحدة . وهناك بعض الحالات النادرة التى يصور فيها الشخص كله فى وضع المواجهة حيث يبدو الوجه كله فى الصورة ، كما كان صاحب المقبرة يصور فى وضع أكبر مما حوله من معالم طبيعية ومن أشخاص بغير تفهم لقواعد المنظور الحديثة . فكان الفنان إذا أراد أن يرسم بركة ماء يصورها فى وضع المسقط الرأسى ويصور الأسماك والطيور ثم الأشجار من حولها فى وضع جانبى .

وفى فترة محدودة من الأسرة الرابعة حاول الفنان أن يبتكر طريقة جديدة للتلوين فرسم الصور والمناظر على جدران مقبرة رجل الدولة « نفر ماعت » بميدوم [٩] بطريقة الحفر الغائر مع تقسيم الصور إلى مربعات ، ملأها بعجينة الألوان ، وضمن هذه المناظر صور لصيد الطيور بواسطة شباك سداسية الشكل وصور لثعالب وقرود ونمر ومجموعة أشخاص . إلا أن هذه الطريقة أثبتت عدم صلاحيتها نظرا لأن عجينة الألوان كانت عندما تجف تسقط .

بلغ فن الرسم والتلوين أوجه فى زمن الدولة الوسطى ففى مقابر بنى حسن الصخرية حوالى عام ٢٠٠٠ ق.م. (محافظة المنيا) يصور صاحب المقبرة فى منزله وبين أهل بيته وفى خارج البيت يصطاد الأسماك والحيوان والطير ، أو يستعرض الماشية ويقوم خدمه ببناء القوارب وقطع الأشجار ، وأعمال النجارة كصناعة الأسرة والكراسى والصناديق وعمل الأقواس والسهام ، وتجهيز الجلود وصناعة الصنادل والسكاكين من الصوان ، وصناعة الأوانى الفخارية والحجرية ، وزراعة الكتان ونسيجه وإعداد الحلوى والخبز والبيرة ، وغرس الكروم وجنى العنب وحرث الأرض وبذر البذور ، أو يقومون بألعاب القوى والتمرينات البدنية المختلفة أو الرقص بينما يستعرضهم سيدهم وهو فى محفته محمولا على الأعناق .

وأصبحت حروف الكتابة المصرية (الهيروغليفية) تكون زينة للجدران وبذلت عناية فائقة فى رسم تفاصيلها وبتلوينها مما جعلها تنطق بالحياة وتبدو منقطعة النظير بين مثيلاتها فى كل عصور التاريخ المصرى القديم .

تكوين الألوان :

إستعمل المصريون القدماء ثمانية ألوان ، منها أربعة ألوان أصلية هى :

١ ــ الأبيض وكان يحضر من الجير الحى (كربونات الكالسيوم) أو من الجبس (كبريتات الكالسيوم) .

٢ ــ الأصفر : وهو لون معدنى يصنع من خام الحديد (المغرة) ويجلب من أسوان ومن الواحات .

٣ ــ الأحمر : يصنع من خام الحديد أيضا ذى اللون الأحمر .

٤ ــ الأزرق : وهو نوعان :

(أ) خام نحاس طبيعى من سيناء لونه أزرق (أزوريت)

(ب) مادة زجاجية مصنوعة من برادة الحديد + الملاخيت (خام النحاس) + نطرون .

أما الأربعة الألوان غير الأصلية فهى :

١ ــ الأخضر : ويستخرج من الملاخيت أو من المادة الزجاجية الزرقاء التى سبق ذكرها مع المغرة الصفراء (من خام الحديد أيضا) .

٢ ــ البنى : اللون الأحمر مضافا اليه الأسود .

٣ ــ الرمادى : اللون الأبيض مضافا اليه الأسود .

٤ ــ الأسود : من ثلاثة مصادر :

(أ) السناج (الهباب) .

(ب) من تفحيم خشب السنط .

(جـ) من المنجنيز (وهو حجر أسود وغالبا من سيناء) .

واستعملت المواد اللاصقة فى لصق الألوان وتثبيتها :

(أ) مواد زلالية من زلال البيض ، واستعملت كثيرا فى تلوين رسوم المقابر .

(ب) مواد راتنجية مكونة من الصمغ مضافا اليه مادة الألفونية .

(جـ) مواد عضوية مكونة من الغراء .

وهذه المقابر المنحوتة فى الصخر فى بنى حسن من الدولة الوسطى تبلغ تسعا وثلاثين مقبرة نحتت فى منتصف الهضبة الجيرية ــ ثمان منها تخص رؤساء أو أمراء الإقليم السادس عشر من أقاليم الصعيد والذى كان يرمز اليه برمز « الوعل » ، ذلك أن الملك امنمحات الأول مؤسس الأسرة الثانية عشرة وهو فى سبيل إعادة بناء الدولة (الوسطى) كان قد عين على هذا الإقليم أمراء من الموالين له ، وضم اليهم حكم الصحراء الشرقية وعلى مر الزمن قويت شوكتهم وزادت أرزاقهم ، فأدى ذلك إلى نشوء عائلة غنية تشبه أمراؤها بالملوك فى كل شئ كما حدث نفس التطور فى أقاليم أخرى . فأصبح الإقليم مملكة صغيرة وراثية يؤرخ أمراؤه الحوادث بسنوات حكمهم إلى جانب حكم الملوك . وأضافوا إلى أسمائهم ما كان خاصا بالملوك من كلمات المديح والثناء مثل « فاليحيا ، معافيا سليما إلى الأبد » وإعتبروا أنفسهم منتسبين للآلهة المحلية وإدعوا عراقة الأصل وقدم المنبت ، وإستعاروا من نصوص الأهرام كثيرا لزخرفة قبورهم بنقوش رائعة ، وكانت حكومة الإقليم صورة مصغرة من حكومة منف أيام الدولة القديمة . كما أضحت حياتهم تشبه حياة فرعون فى قصره ، وكانوا يمثلون الوزير فى العاصمة ورئيس كهنة المعبد الرئيسى بالاضافة إلى حملهم لقب أمير . وعلاوة على ذلك فإنهم كانوا يجمعون الضرائب ويحصلون على دخل أراضى المعبد ، ويقومون ببناء مقابر فخمة لهم فى أقاليمهم وليس فى العاصمة كما كان الحال زمن الدولة القديمة ، وتعد تلك المقابر الملونة بإتقان إلى جانب قيمتها الفنية سجلا هاما للأحداث التاريخية فى النصف الأول من الدولة الوسطى .

محاولة للتحرر من القيود فى عصر العمارنة :

وفى زمن الدولة الحديثة ، وعلى الأخص فى عصر العمارنة وهى المرحلة

التالية ، التى بلغت أقصى مداها بثورة أخناتون الدينية ، نجد محاولة للتحرر تظهر جلية على الفنون التشكيلية أيضا ، فالفنان أخذ يخرج من أسر التقاليد فيهب الحركة ومزيدا من الحياة لفنه، ولعل أقرب مثل لذلك تصوير الفنان للملك أخناتون فى جلسات عائلية مع زوجته الملكة نفرتيتى وبين أولاده يداعبهم ويقبلهم وتلك أمور لم يتعودها الناس من قبل . كما أن آثار الشاب توت عنخ آمون التى عثر عليها مكدسة فى قبره الصغير لخير شاهد على التغيير الذى طرأ على الفنون المصرية فى عصر العمارنة .

وأصبحت طيبة مستقرا للحكم ومركزا للابداع الفنى ، وعسكرت جيوش العمال المهرة والفنانون بأعداد كبيرة فى الجانب الغربى من طيبة ، حيث أقيمت المعابد الضخمة وحيث نحتت مقابر وادى الملوك ووادى الملكات ومقابر رجال الدولة التى استقرت فى بطن الجبل خوفا عليها من عوادى الزمن ، وبعد أن قاست مقابر أسلافهم الظاهرة فوق سطح الأرض فى شكل مصاطب وأهرامات من موجات النهب والسلب والتخريب ما لم يكن فى حسبان أصحابها .

وبالنسبة لتماثيل الدولة الحديثة هناك أعداد هائلة منها ملأت معظم متاحف العالم تمثل الملوك والمعبودات والأفراد . وكان الكهنة فى الزمن القديم يلجأون إلى طريقة للتخلص من إمتلاء المعابد بآلاف التماثيل على مر الأيام ، فكانوا بين الحين والحين يجمعونها ، ويحفرون لها بئرا عميقة ، ويلقونها فيها بالآلاف ويهيلون عليها التراب . كشف الباحثون فى العصر الحديث عن بعض تلك الخبايا فى الكرنك وفى معبد الأقصر وفى أبيدوس وفى هيراكنوبوليس (الكوم الأحمر) وفى غيرها وتعتبر مناجم للكنوز الفنية (لوحة رقم ١١) .

تطور فن العمارة :

ولا جدال فى أن فن العمارة كان من أهم إنجازات الحضارة المصرية القديمة على مدى نحو ثلاثين قرنا من الزمان . ولقد رأينا فيما سبق كيف تطور بناء المقابر من الطوب إلى الحجر ، وكيف تطورت المصاطب لتتخذ الشكل الهرمى المدرج ثم شكل الهرم الكامل . فى عمارة الهرم المدرج (لوحة رقم ١٢ ، ١٣) (الأسرة الثالثة)

بسقاره صورة واضحة لذلك التدرج ، حيث تبين أن التصميم الأول للمبنى كان مصطبة زيدت فى مساحتها ، وبعدها إتجه الرأى إلى أن يكون المبنى ذا أربع درجات ، ثم إستقر الرأى أخيرا على زيادة مساحة المقبرة من جوانبها الأربع والإرتفاع بها إلى ست درجات . ولوحظ أن الفنان كان ما يزال حديث عهد بإستعمال الأحجار فى بناء العمائر الضخمة ، فإستخدم أحجارا صغيرة نسبيا قريبة فى حجمها من قوالب الطوب اللبن . وفى المبانى التى أقيمت من حول الهرم المدرج ، وكانت نماذج للقصور والمعابد الملكية فى العاصمة تأثر الفنان « إمحوتب » إلى حد كبير بطراز المبانى من اللبن والخشب ، فلم يجعل الأعمدة حرة طليقة وإنما جعلها متصلة بالحوائط ، وجعل السقف الحجرية تقليدا لجذوع النخيل كما حاكت الأعمدة حزم سيقان البردى .

عودة إلى فكر بناء الهرم :

وحول إختيار المصرى القديم للشكل الهرمى ليحفظ بداخله جثمان الملوك (وأحيانا الملكات) دون غيرهم من أهل البلاد ، ثار الجدل الكثير ، وتضاربت آراء المختصين فى شتى فروع المعرفة والعلوم ، كالفلك والهندسة واللاهوت بالاضافة إلى التنجيم والسحر أيضا . ولعل أقربها إلى أفهامنا التى تقول أنه صورة مطورة للقمة أو التل الأزلى الذى قالت عنه الأسطورة أنه أول قطعة أرض برزت من المحيط اللانهائى قبل خلق الكون وعلى تلك القمة ظهر الإله الأكبر آتوم بمعنى « الكامل » وبدأ فى خلق الحياة ، كأنما تلك القمة التى إتخذت شكل الهرم فيما بعد هى عرش الإله على الماء حتى قيل أن قمة المسلة فى معبد الشمس القديم فى مدينة الشمس أون « هليوبوليس » مقر الوحدة الأولى فى تاريخ وادى النيل هى رمز لعرش إله الشمس ، وكانوا يطلقون عليها اسم بن بن (Ben-Ben) معنى ذلك أن المقبرة الهرمية للملك صدى لذلك المفهوم على اعتبار الصلة الوثيقة بين الملك وبين الإله الأكبر إله الشمس ــ الذى حمل أسماء عدة ، فهو فى الصباح يحمل إسم خبرر (ChepRer) وهى إسم فاعل من فعل صار أى المتطور ، وفى الظهيرة يحمل إسم رع وفى المساء قبيل الغروب يحمل إسم آتوم أى الكامل .

وتميزت عمائر الأسرة الرابعة بالضخامة الهائلة التى ترمز إلى الخلود والقوة فى التنفيذ ، ووقع الاختيار أولا على منطقتى ميدوم ودهشور لبناء المجموعات الهرمية الخاصة بالعالم الآخر ـ فى حين ازدانت منف العاصمة بالقصور والمساكن الفخمة لعلية القوم ، حيث تمت محاولات فذة لتطوير شكل الهرم المدرج وإخراجه إلى حيز الوجود بشكل هرمى كامل . ثم على منطقة الجيزة لتكون مستقرا لملوكها .

الهرم الأكبر :

والهرم الأكبر الذى بنى للملك خوفو على هضبة الجيزة بلغ إرتفاعه الأصلى ١٤٦٫٥٩ مترا قبل أن يفقد جزءا من قمته بفعل عوامل التعرية ، وطول ضلع القاعدة ٢٣٠٫٣٥ مترا وقد بلغت كتلة البناء ٢٫٥٢١٫٠٠٠ مترا مكعبا وفى قلب البناء أقيمت غرفة الدفن من كتل الجرانيت وسقفت بتسع كتل من الجرانيت طول الواحدة ٥٫٦٤ مترا يبلغ وزنها جميعا أربعمائة طن . ولكى يخفف المهندس من ثقل المواد الهائل فوق غرفة الدفن أفرغ فوقها خمس غرف بعضها فوق بعض عثر فى إحداها على اسم الملك خوفو مكتوبا بالمداد ، ولعل ذلك وحده هو الدليل القاطع الذى يؤكد أن هذا الهرم للملك خوفو ، وجعل سقف أعلا الحجرات من كتلتين ماثلتين لتقسما ضغط البناء وتلقياه على الجانبين . ويؤدى إلى غرفة الدفن مدخل من الجهة الشمالية ثم مجموعة من الممرات . إلا أن أهمها جميعا ما يسمى بالسرادق الكبير الصاعد ، اذ هو تحفة معمارية نادرة ، وكانت تلك الممرات والمداخل تغلق بعناية بواسطة كتل هائلة من حجر الجرانيت . وكان لكل ملك مجموعة هرمية كاملة تتألف من الهرم كمستقر أبدى لصاحبه، وملحق به معبد جنائزى لإقامة الشعائر الدينية على روح الملك فى المناسبات المختلفة ، ثم معبد الوادى ويعتبر مدخل المجموعة الهرمية . ويبدأ بالقرب من الميناء النهرى وأخيرا الطريق الصاعد وهو طريق مبنى بالأحجار ومسقوف يصل ما بين المعبدين المذكورين .

والجدير بالذكر أن صاحب الهرم الأكبر خوفو لم يبق من آثاره عدا الهرم وملحقاته سوى تمثال صغير جدا من العاج إرتفاعه عشرة سنتيمترات (لوحة رقم ١٤) يحمل إسمه، عثر عليه فى أبيدوس بصعيد مصر ، ويمثل الملك خوفو جالسا على كرسى ذى مسند للظهر ويقبض فى يده اليمنى المضمومة إلى صدره على إحدى شارات الملك ، وهو نوع من السياط ذى الثلاث شعب ، بينما وضعت اليد اليسرى مفتوحة على فخذه ، ويرتدى مئزرا قصيرا ويلبس التاج الأحمر تاج الدلتا (مصر السفلى) . هذا وقد تهشم جزء من التاج ، وهذا التمثال الصغير محفوظ بالمتحف المصرى بالقاهرة .

قصة مراكب الشمس :

كما كشفت أعمال الحفر التى تمت فى الجهة الجنوبية للهرم الأكبر فى عام ١٩٥٤ بغرض إعداد المكان ليكون ممهدا للزيارة ، عن حفرتين كبيرتين فى باطن الصخر طول الواحدة ٣٠ مترا وعرضها ٢٫٦٠ وعمقها ٣٫٥٠ مترا وكل واحدة منها مغطاه بإثنين وأربعين كتلة من المجاديل (الأحجار الضخمة) بشكل مستعرض (عرض الكتلة ٠٫٨٠ مترا وارتفاعها ٢٫٠٠ متر ووزنها ١٨ طنا) . وعندما رفع الغطاء عن واحدة منها تبين أنها تحوى أجزاء مفككة عددها ١٢٢٤ قطعة لمركب خشبى ضخم بكل ملحقاته. وبعد أن تمت معالجتها بالمواد الكيماوية ، حتى لا تتعرض للتلف اذا ما خرجت بحالتها ، ورممت أجزاؤها وأعيد بناؤها وتركيبها تبين أنها لمركب طوله ٤٣٫٣٠ متراً وأقصى عرض له ٧ أمتار ، وإرتفاع مقدمته ٥ أمتار ومؤخرته ٦٫٩٠ أمتار ، ويشتمل على مقصورة مقسمة إلى قسمين ، أحداهما متسعة ومحاطة بأعمدة خشبية من الخارج ، ويحمن سقفها عدد من الأعمدة الخشبية ، وزود المركب بعشرة مجاديف ، وفى مكان الدفة مجدافان طول الواحد منها ثمانية أمتار ونصف متر ، وفى مقدمة المركب مظلة خشبية خصصت لقائد المركب ، وعثر مع المركب على كمية كبيرة جدا من الحبال التى كانت تستعمل لربط قطع الخشب بعضها ببعض بدلا من المسامير ، وكانت الفتحات والثقوب لوصل القطع الخشبية كلها من الداخل ، ولا يبدو لها أى أثر فى جسم المركب من الخارج ، وتركت الحفرة الأخرى التى تضم المركب

الثانى كما هى حتى ينتهى العمل فى معالجة وإعادة تركيب المركب الأول .

وكانت العادة أن تدفن المراكب من حول القبر الملكى بوصفه المقر الأبدى . وقد عثر على ثلاث حفر أخرى خالية ، كانت مخصصة لدفن مراكب الملك خوفو ، بالإضافة إلى المركبين المذكورين من قبل ، وذاع صيت تلك المراكب بعد كشفها وسميت بمراكب الشمس ، إلا أنها عبارة عن مراكب ملكية مصنوعة من خشب الأرز الفينيقى ، إستعملها الملك فى حياته الدنيوية وإصطحبها معه إلى العالم الآخر ، بعد أن إستخدمت للمرة الأخيرة فى موكب الدفن . أما مراكب الشمس التى عرفتها العقائد المصرية القديمة ، فهى تلك التى تخيلها المصرى القديم تحمل الإله رع (رمز الشمس) وتذرع به محيط السماء فى النهار من الشرق إلى الغرب ، ثم تبحر به عباب المحيط السفلى ليلا تحت هذه الأرض ، لتعود فتصعد فى الأفق حاملة الشمس لتشرق من جديد ، وكانت أقصى أمانى الملوك بعد مماتهم أن يلحقوا بهذا الركب السعيد ، موكب الشمس فيتحدون مع هذا الإله الأكبر .

حتب حرس أم الملك خوفو :

وهى صاحبة المقبرة المتواضعة فى الجيزة التى عثر فيها على بعض أثاثها الجنائزى ما عدا المومياء . وهى عبارة عن غرفة دفن وحيدة مقطوعة فى الصخر ، وخالية من كل رسم ، فى الناحية الشرقية للهرم الأكبر ، يؤدى اليها بئر عمقها ١٨ مترا ، ولم يبن عليها مصطبة ولا هرم ، ولعل هذا هو السبب الذى لم يعرضها للسرقة .

كشف عنها بطريق الصدفة ، فبينما كان محمدين مصور بعصة رايزنر يقوم بعمله ، اذ غرست إحدى قوائم حامل آلة التصوير فى الرمل ، مما لفت النظر لوجود البئر أى الحفرة العميقة المؤدية للمقبرة .

وفى المقبرة عثر على محفة خشبية لحمل الملكة ، ومقصورة خشبية كالمظلة ، وكلها موشاة برقائق الذهب المنقوش . وعلى المحفة إسم الملكة وألقابها : إبنة الملك (حونى آخر ملوك الأسرة الثالثة) ، وزوجة ملك (وهو الملك سنفرو عاهل الأسرة

الرابعة ، وربمايكون سنفرو قد وصل إلى العرش عن طريق الزواج بها) ، وأم ملك (وهو الملك خوفو العظيم) .

وفى المقبرة أيضا تابوت من المرمر كان غطاؤه مغلقا بإحكام ، وعندما فتح لم يعثر فيه على شئ ، اذ كان خاليا تماما ، ولم تكن مومياء الملكة بداخله. والواقع أن عدم وجود الجثمان فى التابوت ، وكذلك القيام بدفن ملكة عظيمة فى تلك المقبرة المتواضعة كان مثاراً لتساؤلات ، اذ يعتقد ريزنر أن الملكة ربما دفنت أول الأمر بجوار زوجها فى دهشور ، ثم سرقت فى زمن الملك خوفو ، لذا نقلت من دهشور إلى جوار هرم إبنها خوفو فى الجيزة . وأخفى الكهنة عن الملك أن الجثة سرقت .

وإلى جوار التابوت صندوق من المرمر مقسم إلى أربعة أقسام ، أحكم إغلاقه بغطاء مرمرى ، خصص لأحشاء الملكة . الأمعاء والكبد والرئتين والطحال .

والمذهل أن مادة التحنيط كانت ما تزال فى حالة سائلة عندما رفع عنها الغطاء . (وقد ورد ذكرها فى مكان آخر من هذا الكتاب) .

أبو الهول :

أما فيما يتعلق بالملك خفرع بن خوفو الذى تولى الملك بعد وفاة أخيه رع — ددف (الذى حكم ٨ سنوات طبقا لما ورد فى بردية تورين ، فقد عثر على هرمه فى أبى رواش شمال الجيزة ، ويلقبه العامة بالهرم الشواف ، ولم تمهله الأيام حتى يستكمل بناءه) ، فان مهندسه أضاف إلى كل ما ذكر من انشاءات معمارية ومراكب جنائزية تمثال أبى الهول (لوحة رقم ١٥) ، وكان فى الأصل صخرة ضخمة اعترضت الطريق الصاعد بين معبد الوادى الذى أقيم على الرصيف النهرى والمعبد الجنائزى الملحق بالهرم والمبنى بجوار الناحية الشرقية للهرم ، وتخلفت عن المحجر القديم الذى استغل فى بناء الهرم الأكبر ، وتبين أن إزالتها تتطلب وقتا وجهدا كبيرين ، وهداه خياله إلى أن يقوم بتشكيلها على هيئة أسد ضخم رابض له رأس وملامح وجه الملك خفرع نفسه ، بغطاء رأسه المستعرض وبوصفه إله الشمس يقوم على حراسة هرمه ، فطبقا لمعتقداتهم

كان الملك فى حياته ابن الشمس ومن بعد مماته يتحد مع إله الشمس ليصبح هو نفسه إله الشمس . (ويبلغ طول التمثال ٥٧ مترا وارتفاعه ٢٠ مترا) . وذكر فى أصل تسمية أبى الهول أن المصريين القدماء فى الدولة الحديثة أقاموا لأسرى الحرب الكنعانيين مستعمرة خاصة بجوار هذا التمثال فى منطقة الجيزة لكى يساهموا فى أعمال البناء وفى صيانة المنشآت الملكية وإبعاد رمال الصحراء عنها ، وروى أن هؤلاء الكنعانيين كانوا يعبدون إلههم المحلى واسمه « حورون » والذى أحضروه معهم من موطنهم الأصلى فى المنطقة الساحلية التى حملت فيما بعد إسم فلسطين . ومع طول أقامتهم فى المنطقة تصوروا أن تمثال الملك خفرع هذا ما هو إلا صورة أخرى لإلههم « حورون » فربطوا بينهما وعبدوا أبا الهول . وعلى مر السنين حرف الإسم إلى « حولون » أو « حول » ثم أطلق الإسم على المكان « بوحول » بمعنى مكان الإله هول مع اضافة كلمة « بو » المصرية بمعنى مكان أو مستقر ، ويحتمل أن حرف الألف أضيف فيما بعد إلى الإسم وعلى غرارِ — بوصير — أبو صير . وبو سنبل — أبو سنبل . وهكذا . أما إسم سفنكس (Sphinx) فهو إسم اغريقى لأحدى المردة فى عالم الأساطير الإغريقية خلعه الرحالة الإغريق الذين قاموا بزيارة مصر على تمثال أبى الهول لما بينه وبين المردة الإغريقية من تشابه ظاهر .

معبد الوادى لمجموعة خفرع الهرمية :

ومعبد الوادى الخاص بمجموعة الملك خفرع مازال يحتفظ بشكله العام ويسميه الناس خطأ معبد أبى الهول نظرا لوقوعه بجوار هذا التمثال ، وكسيت جدرانه السميكة الصماء بأحجار الجرانيت التى جلبت من مُحاجرها عند أسوان ، وأعمدة المعبد التى تحمل السقف مربعة الشكل ضخمة مبنية كلها من الجرانيت الوردى ، ويعتبر هذا المعبد من أقدم المعابد الجنائزية فى مصر كلها والتى لا تزال تحتفظ بشكلها حتى الآن وتجسد غاية المصريين من فكرة الخلود .

وكانت الإضاءة تنفذ من فتحات أعلا الجدران أو من فتحات فى السقف الجرانيتى فتسقط الأشعة على أرضية من حجر الألبستر الأبيض (المرمر المصرى)

الذى يعكس الضوء ويوزعه، فيقوم الحجر اللامع بدوره بتوزيع الضوء داخل المعبد وعلى التماثيل الملكية العديدة المقامة فى قاعاته. وعثر فى أرضية معبد الوادى المرمرية على حفرة عميقة أخفيت فيها تماثيل للملك خفرع (لوحة رقم ١٦) ، من بينها التمثال الديوريتى وهو يتميز بتمثال الصقر الذى يحتضن رأس الملك من الخلف بجناحيه، بينما لا يظهر أثر الصقر لمن ينظر لتمثال الملك من الأمام . ويفتح من خلف هذا المعبد باب يوصل إلى الطريق الصاعد المرصوف بالأحجار إلى المعبد الجنائزى الملاصق للهرم . ومازالت آثاره باقية حتى اليوم . ومن حول المعبد الجنائزى لخفرع عثر على خمس حفر كانت مخصصة لدفن المراكب التى استعملت فى مهراجانات الدفن كما هو الحال بالنسبة لسلفه الملك خوفو ولكنها نهبت فى الزمن القديم .

عمائر الأسرة الخامسة :

وفى حين تميزت عمائر الأسرة الرابعة بالضخامة التى تنشد الخلود وتتحدى الفناء وإن كانت بعيدة عن الجمال . نجد عمائر الأسرة الخامسة تنطق بالذوق الرفيع . وأقام معظم ملوكها أهرامهم ومعابدهم على هضبة أبو صير بين الجيزة وسقارة ، أما أهرامهم فلم يبذلوا فى بنائها العناية اللازمة فى حين أضحت معابدهم من أجمل ما خلفته الدولة القديمة من عمائر . أقاموها على أعمدة ، تيجانها على شكل النخيل ، وبعضها على هيئة سيقان وبراعم البردى ، كما حدث بالنسبة للمعبد الجنائزى للملك ساحورع . الذى يتكون من : دهليز طويل يليه فناء مكشوف على جوانبه بوائك تقوم على ستة عشر عمودا تيجانها على شكل النخيل ـــ ثم يلى ذلك غرفة بها خمسة تماثيل للملك كل واحد منها يمثل صفة من صفات الملك مثل « حورس » و« حورس الذهبى » و« وملك الجنوب والشمال » « المتجسد فى إلهتى الجنوب والشمال » « وابن الشمس » وبها باب يؤدى إلى قدس الأقداس أو الهيكل وبجواره عدة مخازن . وفى سقف المعبد عمل نظام لصرف مياه المطر عن طريق قنوات تنتهى بفتحات على هيئة رأس أسد فاغرفاه . كذلك عملت طريقة لصرف مياه المجارى عن طريق قنوات أو

أنابيب من النحاس تمتد من الحجرات التى تجاور قدس الأقداس ثم من أسفل المعبد تحت الفناء المكشوف ، وتنتهى فى الجانب الجنوبى من المعبد ، وكانت جدران المعبد مغطاه بصور ورسوم لمعركة حربية بين الملك وبين قبائل الليبيين التى بدأت محاولاتهم منذ فجر التاريخ المصرى للاستيطان فى وادى النيل ، ثم مناظر الملك وهو يصطاد الحيوان والأسماك يصحبه ولى العهد ورجال البلاط ومعهم كلاب الصيد .

وبالإضافة إلى المعابد الملحقة بالأهرامات بنى ملوك الأسرة الخامسة معابد خصصت لعبادة الشمس ، وكانت بسيطة التكوين تتألف من فناء مكشوف بداخله قاعدة ضخمة تحمل مسلة قصيرة هى رمز الشمس ومن أمامها مائدة قرابين .

ولعل ملوك الأسرة الخامسة قد استوحوا شكل معابد الشمس من ذلك المعبد العتيق الذى تحدثت عنه الأساطير المتأخرة وعلى الأخص تلك الكتابات المدونة فى مقبرة الملك سيتى الأول بوادى الملوك بطيبة ، والتى تقول أن أول معبد أقيم تقديسا للشمس كان مقره فى مدينة هليوبوليس التى كانت تدعى « أيون » أو « أنو » « بمعنى البرج » أو « المرصد » وفيه إشارة إلى رصد تحركات الشمس ، والجدير بالذكر أن المنطقة حاليا تحمل إسم « عين شمس » ولعل كلمة « عين » تحريف لكلمة « أون » ثم زيد عليها كلمة « الشمس » لتفسر معناها وكان معبد الشمس فى هليوبوليس عبارة عن فناء مكشوف يقوم فيه الكهنة برصد الشمس تتوسطه شجرة عالية كانت مهبطا ومحطا لطائر خرافى يدعى « بنو » أسماه الإغريق فونكس وهو يقابل العنقاء فى العربية ، الذى كان يهوى الهبوط على أعالى الأشجار ، وكان المصريون القدماء مع طول ملاحظاتهم يؤمنون بوجود علاقة بين هذا الطائر وبين إله الشمس فاعتبروه رمزا للشمس ، وترقبوا هبوطه على الشجرة العالية فى المعبد المكشوف ، وبمضى الزمن استبدلت الشجرة بالمسلة ، والملاحظ أن بعض قمم المسلات فى العصور التالية كانت تتحلى بصورة ذلك الطائر .

عمائر الأسرة الحادية عشرة من الدولة الوسطى :

وبعد أن استطاع ملوك الأسرة الحادية عشرة من الدولة الوسطى إعادة توحيد البلاد ، ابتكر مهندس الملك منتوحتب الثانى شكلا جديدا للمقبرة الملكية بعيدا عن تكرار الأشكال المألوفة عندما مزج بين العناصر المعمارية المعروفة ــ الهرم والمعبد الجنائزى ــ وأخرج منها وحدة معمارية متميزة بالجمال والعظمة . وتعتبر المجموعة المعمارية الخاصة بالملك منتوحتب الثانى من أهم آثار الدولة الوسطى والتى أقامها الملك بمنطقة الدير البحرى غربى طيبة على مدرجات صخرية لتتناسب وظروف المكان ، وكان يؤدى إليها طريق مرصوف يمتد من أسفل الوادى إلى مدخل المجموعة الهرمية التى أحاطها بفناء زرعت به أشجار جميز عددها ثمانية وغيرها كما لو كان بستانا ملكيا فى صفين على يمين ويسار الطريق الصاعد إلى الشرفة بحيث تظل كل واحدة منها تمثالا للملك . ويؤدى الطريق إلى أبهاء ذات عمد تدور من حول قاعدة مرتفعة نواتها من الصخر الطبيعى تغطيها الأحجار الجيرية وليس فيها دهاليز أو غرف ويقوم فوقها هرم . وخلف هذه المجموعة وفى اتجاه الجبل بنى المهندس المعبد الجنائزى الذى ضم ستة محاريب تضم مقابر لست سيدات من الأسرة المالكة كانت مقامة قبل التفكير فى بناء المعبد ، عثر بداخلها على تابوتين شهيرين للملكتين كاويت وعشاييت وهما من نفائس النحت فى مصر القديمة على الإطلاق ومثل عليهما بصدق وإتقان مناظر من الحياة اليومية للملكات فى القصور . فالملكة عشاييت ، إحدى زوجات الملك منتوحتب الثانى ، عثر على تابوتها العالم الأثرى ونلوك فى عامى ١٩٢٠ ــ ١٩٢١ فى حفرة تحت أرض معبد الملك . وتدل مومياء عشاييت على أنها كانت صغيرة الجسم ، وأنها ماتت وهى صغيرة ، وكان داخل التابوت المصنوع من الحجر الجيرى الجيد تابوت خشبى محلى بإطار من الذهب ، وكان شعرها مجدولا فى هيئة ضفائر بعناية فائقة ، وعثر معها على أردية من الكتان وبعض الحلى وتمثال لها . ويعد هذا التابوت الحجرى مثالا رائعا للنحت فى عصر الملك منتوحتب الثانى ، ويدل لون وجه عشاييت على أنها كانت سمراء اللون . وقد امتلأت

جدران التابوت الخارجية والداخلية بمناظر تمثل الأعمال اليومية تعطى صورة لحياة إحدى سيدات الحريم الملكى بين وصيفاتها ، فعلى الجانب الشرقى صور باب القصر تعلوه شرفة ، وفى داخل القصر أكوام من الطعام ، ونشاهد الملكة جالسة على عرش يقبع تحته كلبها ، وهناك إحدى الوصيفات تروح لها بمروحة على شكل جناح طائر ، ويقدم لها أحد الخدم لبنا من بقرتين صورتا مع صغيريهما .

وعلى الجانب الغربى تشرف عشاييت على مخازن غلالها ومعها مدير قصرها بينما يقوم العمال بتخزين الغلال ، والملكة جالسة تقدم لها العطور ، ومن أمامها ينحر الجزارون ثورين ويضعون اللحم فوق مائدة عالية .

ويلاحظ أن البقر المصور على التابوت يدل على أنه من سلالتين مختلفتين ، فإحداهما بلا قرون من سلالة لا تزال موجودة للآن فى إفريقيا وهى بيضاء اللون ذات بقع سوداء . أما الأخرى فذات قرون كبيرة سوداء اللون .

وعلى تابوت كاويت منظر تمشيط الوصيفة لشعر الملكة وتزيينها وهى تتناول قدحا من اللبن ، ولم ينس الفنان أن يصور مصدره ، فرسم بقرة تحتها من يقوم بحلبها بينما صور صغيرها تحت عينها الدامعة مشدودا إلى ساقها بوثاق ليثير حنانها فيستدر لبنها .

وفى داخل المعبد الجنائزى المذكور أقيم للملك مقبرتان إحداهما مقبرة وهمية ربما خصصت للروح أو لتضليل اللصوص ، والأخرى حقيقية . ومدخل المقبرة الوهمية يقع فى نهاية حفرة عميقة فى أرض الفناء الأمامى للمعبد الجنائزى ، حيث يمتد دهليز طوله ١٤٠ مترا داخل الصخر وينتهى تحت الهرم تماما حيث حفرت غرفة كبيرة لم يعثر بداخلها إلا على بقايا قرابين وتمثال جالس للملك ملفوف بالقماش الكتانى الرقيق ولون بشرة صاحب التمثال أسود ، فى حين يلبس تاج الدلتا ويلتحف برداء أبيض ، كما عثر على تابوت خشبى فارغ وذلك عندما فتحها هوارد كارتر Carter سنة ١٩٠٠م وكل ذلك يؤيد الرأى القائل بأن تلك المقبرة أقيمت لغرض جنائزى أى للروح ، أما المقبرة الحقيقية للملك منتوحتب الثانى فتبدأ من نهاية دهليز طويل

جدا ـــ مدخله فى الفناء الخلفى للمعبد الجنائزى . ويسير فى خط مستقيم تحت قاعة الأعمدة حيث ينتهى إلى غرفة الدفن الواقعة فى داخل الجبل ، وعند فتحها لم يعثر بداخلها على الجثة ولا على التابوت وإنما عثر على بعض البقايا المكسورة مثل بعض الأقواس والصولجانات وقاربين صغيرين ومقصورة من المرمر والجرانيت .

والواقع أن الشكل المعمارى الجميل لمجموعة الملك منتوحتب كان مثلا أعلى لخليفته منتوحتب الثالث ، ثم فيما بعد للفنان المهندس سنموت الذى صمم معبد ومقبرة الملكة حتشبسوت من الدولة الحديثة والذى يقع إلى جوار مجموعة منتوحتب المذكورة مباشرة .

أهرامات الدولة الوسطى :

ومن ذلك يتضح أن مفاهيم الحياة تغيرت فى الدولة الوسطى ، وكذا نظرة الناس للملوك ، وكذلك نظرة الملوك إلى أنفسهم فلم تعد الحياة كلها مكرسة لبناء هرم الملك كما كان الحال فى الدولة القديمة ، وإنما أصبح الملوك يتفننون فى إخفاء مقابرهم عن أعين اللصوص ، ويفعلون المستحيل لتضليلهم بمختلف الحيل الهندسية . فلم تعد مداخل الأهرامات فى الجهة الشمالية كما كان التقليد دائما فى الدولة القديمة اعتقادا منهم أن ذلك يسهل مهمة صعود الروح إلى العالم الآخر . فالملك سنوسرت الثانى مثلا من الدولة الوسطى ، بنى هرمه الذى أسماه إشراقة سنوسرت « باللاهون » بالقرب من مدخل الفيوم ، حيث أقيمت أيضا عاصمة الدولة الوسطى إثت ـــ تاوى (عاصمة الأرضين) ، واختار له صخرة كبيرة أصلح بعض جوانبها ثم أكمل البناء فوقها بالأحجار والطوب اللبنى ، وكساه بالحجر الجيرى الأبيض ، وجعل مدخل الهرم فى الجهة الجنوبية . وكان المدخل يتم اغلاقه بعد الدفن بحيث لا يبدو منه ما يدل عليه من الخارج ، وحفر المهندس من حول قاعدة الهرم خنادق مليئة بالرمال لكى تمتص كمية الأمطار التى تتساقط على الهرم وتصرفها .

وألحق بالهرم معبد جنائزى وآخر للوادى على نفس طراز معابد الدولة القديمة إلا أنه خرب تخريبا شديدا . وكشف بالقرب من الهرم عن مدينة العمال الذين أسهموا فى بناء مجموعة سنوسرت الثانى الهرمية حيث كانت تشغل حوالى ثمانية عشر فدانا ، عثر فيها على برديات هامة ألقت الضوء على نظام الإدارة وحياة الناس فى ذلك العهد .

أما هرم أمنمحات الثالث الذى أقامه بهواره عند مدخل واحة الفيوم وأطلق عليه اسم « عظمة امنمحات » (وكانت كل مجموعة هرمية تحمل إسماً مميزاً) فبنى من الطوب اللبن أيضا ثم غطى بالحجر الجيرى من الخارج ، ولكن المهندس ابتكر له شتى الحيل لتضليل اللصوص ، وبسبب ذلك بذل المكتشف الحديث بترى Petrie جهودا مضنية للوصول إلى حجرة الدفن خلال مجموعة من الممرات الواحد تلو الآخر سدت مداخلها بإتقان ، رغم أن معظمها لا يؤدى إلى شئ . أما حجرة الدفن فنحتت فى الصخر الطبيعى الذى يقوم فوقه الهرم ووضع فى تجويفها كتلة واحدة من حجر الكوارتزيت الأصفر المصقول بعناية ، أفرغت بدقة فبدت مثل تابوت بلا غطاء كتلتها ١١٠ طن ، وفى وسط هذه الحجرة وضع التابوت المحلى بالزخارف والمصنوع أيضا من حجر الكوارتزيت ، وغطيت الحجرة بثلاث كتل من نفس الحجر وذلك بإنزالها بعد عملية الدفن مباشرة ، وأصبحت وكأنها خزانة محصنة لأحد المصارف يصعب اقتحامها .

وبالنسبة للمعبد الجنائزى الملحق بهرم الملك أمنمحات الثالث بهواره فإنه خرب تخريبا شاملا خلال العصور القديمة ، وكان الرحالة الإغريق والرومان مثل هيرودوت وسترابون وبلينى قد شاهدوه وأعجبوا بعمارته الضخمة الشاسعة ، وأشادوا فى وصفه وشبهوه باللابرنت (أى قصر التيه) لتشعب حجراته وممراته والذى تحدثت عنه الروايات فى مدينة كنوسوس عاصمة حضارة جزيرة كريت فى الزمن القديم .

ورغم أنه قد حدث تخريب شديد للمعابد الملحقة بالأهرامات الخاصة بملوك الدولة الوسطى ، إلا أن آثار المعبد الجنائزى الملحق بهرم الملك أمنمحات الثالث

بهوارة بالفيوم والذى يعرف بقصر التيه أو اللابرنت ـــ مازال بعضها باقيا حتى اليوم .

معابد الدولة الحديثة :

(أ) معابد الآلهة :

عندما انتقلت البلاد إلى عصر الدولة الحديثة ، بنيت سلسلة من المعابد الضخمة للمعبود آمون وغيره من معبودات الديار وعلى الأخص فى الجانب الشرقى من مدينة طيبة العاصمة ، أما الجانب الغربى فأقيمت فى واديه مجموعة من المعابد الجنائزية بعد أن استقر الرأى على إخفاء المقبرة الملكية كلها فى بطن الجبل وبناء المعبد الجنائزى على حافة الوادى بشرط أن يبنى المعبد على نفس محور المقبرة ، وكانت معظم معابد الآلهة فى جوهرها ذات تصميم واحد ، فكان للمعبد ميناء أو رصيف حجرى على النيل ـــ الذى كان يعتبر الوسيلة الرئيسية للمواصلات ومن هذا الرصيف يبدأ طريق مرصوف بالأحجار ومحاط من الجانبين بتماثيل على هيئة الكباش (رمز المعبود آمون) وينتهى عند بوابة بين صرحين أو برجين ، أقيمت أمامها المسلات التذكارية ثم ساريات تحمل الأعلام ، وعلى الصرحين من الخارج صور الملك فى وضع تقليدى يمثل انتصاراته على الأعداء بالنقش الغائر لأنه أبقى وأشد مقاومة لعوامل التعرية إذا ما قورن بالنقش البارز الذى كان يستعمل فى تغطية الحوائط الداخلية للمعبد ، والتى كان موضوعها دينيا فى الغالب . وبعد المدخل فناء مكشوف تحيط به البوائك ويلى هذا الفناء فناء آخر فى بعض الأحيان ، ثم يلى ذلك قاعدة الأعمدة المسقوفة وربما تليها قاعدة أخرى ، ومن خلفها الهيكل أو قدس الأقداس ، وكان يحاط بالقدسية والأسرار ويحتوى عادة على قاعدة حجرية عليها تمثال الإله الرئيسى للمعبد . وكان يحيط بالمعبد سور من اللبن ، ويلحق به بحيرة مقدسة للمهرجانات الدينية وفى بعض المعابد وجدت قاعات إضافية أعدت لحفظ السجلات وللدراسة ، وكان الكهنة فى المعابد يحتكرون المعارف والآداب والطب والسحر ويعتبرونها من الأسرار . وأهم المعابد من هذا النوع معبدا الكرنك والأقصر .

معابد الكرنك :

أما الكرنك أو فاتيكان الشرق فهو أكبر مجموعة مركبة من المعابد تنتمى إلى أجيال متعاقبة فى العالم ، وجدت نواتها منذ بداية الدولة الوسطى . وتعد قاعة الأعمدة الكبرى بالكرنك من روائع المنجزات المعمارية المصرية ، ولقد أشرف على بنائها كل من الملكين سيتى الأول وابنه رمسيس الثانى ، والقاعة مسقوفة وبها ١٣٤ عمودا أقيمت فى ١٦ صفا فى مساحة ٥٠٫٠٠٠ متر مربع على هيئة جناحين وممر متوسط ، أما أعمدة الجناحين فعددها ١٢٢ عمودا إرتفاع العمود ١٣ مترا ، وأما أعمدة الممر المتوسط فعددها ١٢ عمودا إرتفاع العمود ٢١ مترا ومحيط الواحد منها أكثر من عشرة أمتار ، استغل المهندس الفرق فى الإرتفاع بين أعمدة الوسط والجناحين لعمل فتحات على هيئة نوافذ حجرية ضخمة للإضاءة والتهوية . وضمن مجموعة الكرنك معبد صغير للملك رمسيس الثالث من ملوك الأسرة العشرين مازال فى حالة جيدة ويعتبر هذا المعبد الوحيد من العصر الفرعونى الذى بقى على حالته سليما ، ويعد نموذجا للمعابد التى كانت قائمة أيام الدولة الحديثة من حيث إبرازه لأهم العناصر المعمارية التى تألفت منها معابد ذلك العصر .

ومعبد الكرنك يعتبر سجلا وافيا لتاريخ البلاد فى زمن الدولة الحديثة ، حيث صورت وسجلت على جدرانه حوليات المعارك الحربية ، وبدت فى عمائره آثار المنازعات بين أفراد البيت الحاكم كما سجل أيضا التطور السلمى للبلاد خلال تلك المرحلة .

والإسم المصرى للكرنك ابت ـــ سوت Ipt-Sw.t (وفى اللغة القبطة Hne, Hni هينى) ومعناه الأماكن الحسية أو المختارة . أما كلمة كرنك فانها « مشتقة من الكلمة الفارسية « خورنق » ومعناها « قصر ذو نوافذ » تلك القصور التى رآها العرب لأول مرة لدى الفرس . ومن ثم أطلقوا على معابد طيبة هذا الاسم الفارسى عند فتحهم لمصر .

ذكرنا من قبل أن المعبود آمون كان فى الأصل أحد عناصر نظرية الخلق فى

إقليم الأشمونين إلى جانب عناصر الخلق الأخرى الظلام المطبق والفضاء اللانهائى والماء الأزلى ، فكان آمون يمثل الهواء والروح .

وبتأسيس الدولة الوسطى رفع الملك أمنمحات الأول المعبود آمون فوق الديار جميعا وجعله معبود الدولة الرسمى ، بعد أن نقله إلى طيبة ، وفى الكرنك قدست زوجته المعبودة موت الأم وقدس ابنه المعبود خنسو (إله القمر) أيضا .

ولقد بنى لأمون معبد فى الكرنك فى زمن الدولة الوسطى وقبل أن تصبح طيبة عاصمة البلاد ، وكان هذا المعبد النواة الأولى للمنشآت الدينية التى قامت من بعده ، فالملك سنوسرت الأول من الدولة الوسطى بنى مقصورة من الحجر الجيرى الأبيض الجميل ، ولكن مهندس الملك أمنحتب الثالث عاهل الدولة الحديثة أمر بفك المقصورة واستعمال أحجارها لحشو بوابته الثالثة الضخمة التى أمر بإقامتها بالكرنك ، وفى العصر الحديث كشف علماء الآثار المصرية عن أحجار تلك المقصورة وأعادوا بناءها فى المنطقة الفضاء الواقعة خلف السور الجنوبى للمعبد ، حيث لم ينقص منها حجر واحد لحسن الحظ ، ومن أهم المناظر التى حفظتها المقصورة قائمة بأسماء أقاليم مصر . وفى زمن الدولة الحديثة وخاصة فى زمن الرعامسة نمت تلك المنشآت الدينية وتطورت لتكون مجموعة مركبة من المعابد التى بنيت على غير خطة موحدة . ففى هذا المكان ساهم معظم ملوك الدولة الحديثة فى الإنشاءات أو فى الإضافات التى تضفى على البناء رونقا جميلا ، بما فى ذلك إقامة المسلات التذكارية والتماثيل واللوحات التاريخية .

وفى الكرنك أيضا أمر الملك أخناتون قبل أن يهجر طيبة إلى أخيتاتون (تل العمارنة) أن يقام معبد للمعبود آتون ـــ متحديا بذلك كهنة آمون فى عقر دارهم ، بعد أن وجه أتباعه لمعابد آمون ضربة قاصمة ، حيث أزالوا اسم آمون من على الآثار واستبدلوه باسم المعبود الجديد آتون . ولكن الدائرة دارت أخيرا على أخناتون ومذهبه واستعاد كهنة آمون مكانتهم القديمة ، فهدم معبد آتون وأخفيت أحجاره داخل بوابة أمر

باقامتها الملك حور محب ، وقد كشف عنها رجال الآثار بالمئات ، وحاولوا بالاستعانة بالعلم الحديث إعادة تشكيلها لتعطينا صورة عما كانت عليه من بهاء ورونق .

الأقصر :

أما معبد الأقصر فقد بناه الملك أمنحتب الثالث والذى سماه الفاتحون العرب بهذا الاسم نظرا لكثرة ما يقوم به من عمائر ، اعتبروها قصورا ، وأضاف اليه وأكمله الملك رمسيس الثانى واشترك فى تحليته بالرسوم الملك توت عنخ آمون ، فكانت تقوم أمام مدخله الضخم ستة تماثيل للملك رمسيس الثانى لم يبق منها إلا اثنان يمثلان الملك جالسا على العرش طول كل منهما ١٥ مترا ، وأمام التماثيل كانت تقوم مسلتان كبيرتان من حجر الجرانيت الوردى ما زالت إحداهما قائمة فى مكانها الأصلى . أما الأخرى فقد نقلت إلى باريس لتقام فى ميدان الكونكورد منذ عام ١٨٤٦م . ويؤدى المدخل الذى يتألف من برجين إلى الفناء الذى أقامه الملك رمسيس الثانى وهو محاط من جهاته الأربع ببوائك مسقوفة ذات أعمدة على شكل نبات البردى ، ويبلغ طول الفناء ٥٧ مترا وعرضه ٥١ مترا وعلى واجهة أحد البرجين الذى ينتهى إليها الفناء رسوم ونقوش فى غاية الأهمية بالنسبة لتاريخ الحضارة حيث صورت واجهة المعبد نفسه أيام افتتاحه بأبراجها ومسلاتها وأعلامها وتماثيل الملك ومن أمامها موكب دينى مهيب ، ويتصل بهذا الفناء من الجنوب بهو ذو أعمدة ضخمة بناه الملك أمنحيتب الثالث كان يقصد به فى الأصل أن يكون بداية قاعة الأعمدة الكبرى . أما الآن فيوجد به صفان من الأعمدة فقط كل صف منهما به ٧ أعمدة ، وعلى جدار السور الذى يحيط بهذا الفناء الذى تحول إلى بهو أو ممر أمر الملك توت عنخ آمون بتصوير كل مناظر المهرجان الكبير لأعياد آمون الذى يشبه فى صورته أعياد موالد الأولياء الصالحين عند المسلمين وما يقابلها عند المسيحيين فى مصر فى العصر الحاضر .

وهذا العيد كان يقام ابتهاجا بخروج موكب الإله آمون من مقره الرسمى الذى تخيلوه بمعبده بالكرنك ، فكان تمثال الإله يحمل فى قاربه المقدس على أكتاف كبار الكهنة خلال طريق صغير تحفه تماثيل للكباش على الجانبين ، ثم يتوجه الركب إلى

الميناء النهرى حيث يستقر القارب المقدس فى النيل ثم يسحب حتى يصل إلى معبد الأقصر مقر آمون الخاص حيث يأنس فيه بلقاء زوجته المعبودة موت (الأم) وابنهما المعبود خنسو (رمز القمر) . وأطلقوا على معبد الأقصر اسم « مقر الحريم الجنوبى » . أما معبد الكرنك فقد حمل اسم القصور الحسيبة أو الرفيعة الشأن . وخلال هذا الاحتفال الذى كان يستمر أسبوعين ويسمى عيد الحريم ، كانت تقام الأعياد فى الأقصر ، وقد سمى الشهر الذى يقع فيه هذا العيد فى التقويم القبطى باسم هذا العيد (بابه) وهو الشهر الثانى فى فصل الفيضان ، ويشترك فيها عامة الشعب من باعة جائلين وصناع إلى غير ذلك مما تتميز به موالد أولياء الله حاليا فى مصر ، ويؤدى البهو المذكور ذو الأربعة عشر عمودا إلى فناء بناه الملك أمنحتب الثالث ، وطوله ٥٢ مترا وعرضه ٤٥ مترا وتحيط به البوائك المسقوفة من ثلاث جهات ، ويتصل بهذا الفناء قاعة الأعمدة المسقوفة ذات الاثنين والثلاثين عمودا ، وسيقانها على شكل حزم البردى ، وتيجانها على هيئة براعم البردى التى لم تتفتح بعد . وهذه الأعمدة من حيث إخراجها الفنى تصعد بفن العمارة المصرى إلى مجال منافسة مثيله عند الإغريق من حيث الجمال الفنى وحسن الإخراج . وجدير بالذكر أن أمنحتب الثالث أقام فى صلب عند الشلال الثالث معبدا صغيرا أعمدته على نفس طراز أعمدة معبد الأقصر هذا .

ويلى ذلك بعض القاعات وخلفها الهيكل المعروف بهيكل الاسكندر الأكبر الذى أعاد بناءه وأمر بأن يصور على جدرانه نبأ انتسابه للإله آمون ــ رع ، تماما ، كما فعل بالنسبة لمعبد آمون بواحة سيوة عندما زارها ، وكما كان يفعل من قبل ملوك مصر الأقدمين ، وكما فعل الملك أمنحتب الثالث نفسه بانى معبد الأقصر على جدران قدس الأقداس الأصلى والذى يقع خلف مقصورة الاسكندر المذكورة ، حيث صورت أسطورة ميلاد الملك أمنحتب من صلب الإله آمون ، عندما تمثل هذا الإله لأم الملك فحملت منه جنينا ملكيا ، كما صور ميلاد الملك وروحه الحارسة (قرينه ــ الكا) فى حضور الآلهة الحارسة . هذا وقد حول المسيحيون الأوائل جزءا من الهيكل إلى كنيسة ، وحاولوا طمس معالمه الأصلية ، فكانوا يغطون الجدران بالجص ، ثم يعيدون

تلوينها بالمناظر المسيحية ، مما أعطانا الفرصة للتعرف على المناظر الفرعونية الأصلية بعد إزالة الجص ، كما فعلوا فى بعض معابد النوبة وغيرها من آثار القدماء .

أما طريق الكباش الطويل الذى يصل ما بين معبدى الكرنك والأقصر فقد خصص للمواكب الملكية ، وهو طريق ممهد صفت على جانبيه تماثيل أبى الهول وهى غير تماثيل الكباش رمز المعبود آمون . وفى زمن الرعامسة عندما انتقلت العاصمة إلى تانيس فى شرق الدلتا ، كان الملك يصل إلى طيبة كل عام ليكون حاضرا فى أعياد آمون .

ومن أعياد آمون بالأقصر أيضا ما يسمى بعيد الجبانة « بؤونة » وكان يقام فى الصيف فى شهر حمل اسم العيد بؤونة ، ويستمر من عشرة إلى خمسة عشر يوما ، يزور فيها موكب آمون « ولاية آمون » ، ويقصد بها كل المعابد الجنائزية فى الجبانة بالبر الغربى للنيل ، وكذلك جميع المعابد الخاصة بآمون كمعابد الرمسيوم لرمسيس الثانى ومدينة هابو لرمسيس الثالث . ومعبد حتشبسوت بالدير البحرى وغيرها .

وكان آمون يزور أيضا مكانا هاما وهو مقصورة الملكة نفرتارى وابنها أمنحتب الأول اللذين قدسا فى عهد الرعامسة باعتبارها من حماة الجبانة ، لأنهما كانا أول من أقام معابد جنائزية بالمنطقة ، وكان عيدها فى شهر برمهات نسبة إلى إسم الملك أمنحتب الأول . وغالبية عبادهما من الفقراء وعمال الجبانة فى مدينتهم التى تقع هناك .

تمثالا ممنون :

ومن أهم الآثار القديمة التى حرص السياح من العالم القديم دائما على مشاهدتها عند زيارتهم لمصر تمثالا ممنون فى طيبة الغربية ، وهما فى الأصل تمثالان للملك أمنحتب الثالث إرتفاع الواحد منهما ١٧٫٩ مترا ، أقيما عند مدخل معبد الملك المصرى على حافة الوادى بالبر الغربى للنيل على مشارف وادى الملوك حيث حفر الملك مقبرته فى باطن الصخر .

والسبب فى اهتمام الزوار من العالم الأوربى القديم بهذين التمثالين أن أولئك الزوار رأوا فى تمثالى الملك المصرى صورة أحد ملوك أثيوبيا وحليف ملك برجام المدعو ممنون والذى كان له دور فى إلياذة هوميروس ، وذكر أن هذا الملك قد سقط أمام طروادة بيد البطل أخيل ، والواقع أن النغمة الموسيقية التى قيل أنها كانت تصدر عن أحد التمثالين وتحاكى الأنين عندما تسقط أشعة الشمس عليه فى الصباح هى التى صنعت من هذا التمثال أسطورة فى نظر القدماء . ويحمل التمثال نقشا يخلد زيارة قام بها الإمبراطور نيرون فى عام حكمه الحادى عشر ، كما ذكر المؤرخ تاكيتوس فى حولياته أن الأمير جرمانيكوس زار التمثال فى عام ١٩م ، كذلك نقش أفراد حاشية الامبراطور هدريان (١١٧ ــ ١٣٨م) عند زيارته لمصر عامى ١٣٠/١٣١م أسماءهم على التمثال المشهور ، وقيل أن الامبراطور الرومانى سبتموس ــ سيفيروس (ساويرس فى المراجع القبطية التى تحدثت عن تعذيبه للمسيحيين) أمر بترميم التمثال بعد زيارة قام بها عام ١٩٩م ، ومن يومها اختفى النغم . ويقال فى تفسير تلك الظاهرة أن قطرات الندى التى كانت تتجمع فى الكسور التى حدثت للتمثال عندما تتبخر بفعل أشعة الشمس فى الصباح كان بخارها يتسرب خلال تلك الشقوق فيحدث ما يشبه الصفير المتقطع كالأنين .

معبد أبيدوس :

وبالإضافة إلى معبد رمسيس الثالث السالف الذكر هناك معبد الملك سيتى الأول فى أبيدوس ولقد بنى على محورين حسب طبيعة الموقع ، واشتمل على فناءين مكشوفين ثم قاعدة أعمدة ضخمة تؤدى إلى سبع مقاصير ، خصصت إحداها لتمثال الملك سيتى الأول صاحب المعبد ، والمقاصير الست الأخرى خصصت لعبادة الآلهة : حورس وإيزيس وأوزيريس وآمون وموت (زوجة آمون) وبتاح . ولهذا المعبد أهمية خاصة من الوجهة التاريخية ذلك أنه قد عثر على أحد جدرانه الداخلية على قائمة بأسماء ملوك مصر القديمة منذ أقدم العصور حتى زمن إقامة ذلك المعبد ، وبنى المعبد فى تلك البقعة المقدسة فى نظر القدماء . حيث كان يعتقد أنها مأوى الشهيد

أوزيريس . هنالك كثرت زيارات الحجيج طوال العصور الفرعونية ، تاركين وراءهم شواهد تدل عليهم ، هى لوحات حجرية مكتوبة ، ومصورة عليها زيارات أولئك القوم لأبيدوس . وكثير منهم قدموا القرابين متمثلة فى ملايين الأوانى الفخارية التى تكسرت وتحولت إلى شظايا ، ولم يبق منها سليما ، إلا قيعانها . ومعظم تلك المخلفات عثر عليها غير بعيد من ذلك المكان الذى تخيلوا فيه قبر أزوريس ، ولذلك أطلقوا على تلك البقعة « أم القيعان » . وبالإضافة إلى ما سلف ، فان أقدم المقابر الملكية أقيمت فى أبيدوس . فيها بعض مقابر ملوك العصر الثينى (عصر الأسرتين الأولى والثانية) . وكانت لتلك المقابر قدسية خاصة عند المصريين أشادت بها تعاليم الملك خيتى الثالث لولى عهده ، فكانت كلماته لابنه تقطر أسى ، لأنه كا قد تورط فى حرب مع أهل طيبة الأشداء خلال محاولاتهم المتكررة لإعادة الوحدة إلى البلاد بعد إنهيار الدولة القديمة وذلك فى العصر الأهناسى (نسبة إلى العاصمة أهناسيا المدينة بالفيوم التى كانت عاصمة للأسرتين التاسعة والعاشرة) ، وتسببت تلك الحروب فى تدمير مقابر أولئك الملوك الأقدمين فى أبيدوس . فكانت صدمة أليمة هزت جنبات الوادى وزعزعت أركان الملك فى أهناسيا ، وعندما شرع الملك خيتى فى كتابه وصيته لولى عهده أخذ يحذره بشدة من تكرار ذلك الخطأ الجسيم .

معابد العصرين البطلمى والرومانى :

وإلى جانب ما ذكر من معابد العصر الفرعونى لا يسعنا إلا أن نذكر معابد العصرين البطلمى والرومانى وهى معابد مصرية صميمة فى إخراجها مثل معبد الإله حورس فى إدفو وهو فى حالة جيدة ومعبد الإله حتحور فى دندره ومازال يحتفظ بشكله حتى اليوم ونقلت منه إلى متحف اللوفر صورة « الزودياك » الشهيرة ، وهى سقف حجرى لإحدى الغرف العلوية للمعبد ، رسمت عليه الأبراج الفلكية بكل تفاصيلها . وموقف تلك الكواكب من بعضها البعض يوم وضع أساس المعبد . وكان لوصول تلك القطعة الأثرية الفريدة إلى فرنسا فى مطلع القرن التاسع عشر صدى كبير فى جميع الأوساط العلمية والكنسية ، نظرا لأنها وصلت إلى هناك والصراع محتدم بين أنصار

علم الإجبتولوجى (علم الآثار المصرية) وأنصار الكنيسة من المحافظين . ويضاف إلى كل ذلك معبد كوم أمبو ومعبد كلابشة . وبعض المعابد الصخرية فى بلاد النوبة .

(ب) المعابد الجنائزية :

أما المعابد الجنائزية الملحقة بالمقابر الملكية والتى خصصت لعبادة الملك ودعت الحاجة إلى اخفاء المقبرة عن أعين اللصوص ، إلى فصلها عن المقابر فقد بنيت على نفس محور المقبرة على حافة الوادى . وكان أول من فعل ذلك هو الملك أمنحتب الأول ، وخير مثال لها معبد الرمسيوم الخاص بالملك رمسيس الثانى (لوحة رقم ١٧) ، وقد أطلق الإغريق عليه هذا الإسم ظنا منهم أنه يضم قبر الملك رمسيس الثانى ، وصورت على جدرانه حروب الملك مع الحيثيين وعلى الأخص معركة قادش على نهر الأورنت (نهر العاص) فى شمال سوريا (بالإضافة إلى تصويرها على معابد الكرنك وأبيدوس وأبو سنبل وتسجيلها على إحدى البرديات) ، فعلى جدار الصرح الجنوبى للمدخل صورت تفاصيل تلك المعركة ، فعندما تقدم الملك بعجلته الحربية وعبر نهر الأورنت حاصره جيش الحيثيين من كل جانب ، وكادوا يعزلونه عن بقية جيشه ويقتلونه ، لولا مهارته فى الإفلات من الحصار ولحاقه ببقية كتائب جيشه ، ولقد اعتبر الملك ذلك نصرا ، وعلى البرج الشمالى صور معسكر الجيش المصرى والمجلس الحربى الذى عقده الملك لكى يدير من خلاله المعركة التى لم تنته بنصر حاسم .

معبد رمسيس الثالث :

وهناك أيضا المعبد الجنائزى الخاص بالملك رمسيس الثالث فى مدينة هابو بالبر الغربى لمدينة طيبة ، وبنيت عند مدخله أبراج محصنة على خلاف ما كان معروفا فى مصر كما لو كان حصنا ، وصور الملك أخبار انتصاراته على أعدائه من شعوب البحار والقبائل الليبية المغيرة فى صورة مبالغ فيها ، وحفظت لنا الأيام بعض الرسوم الملونة التى صورت على الجدران الداخلية لهذا المعبد مثل مناظر إحصاء آذان

الأسرى وغيرها . كما ألحق بهذا المعبد قصر أو استراحة ملكية لكى يطل من شرفتها الملك على ما يدور فى قاعة المعبد الرئيسية من احتفالات .

مظاهر النظافة :

والجدير بالذكر أن أعمال الحفائر فى هذا القصر قد بينت أن المصرى القديم كان يعرف دورات المياه أو المرحاض بكل ما يعنيه ذلك من مظاهر النظافة العامة ، وبهذه المناسبة فان القواعد الصحية وأصول النظافة العامة كانت من تقاليد أولئك القوم عامتهم وخاصتهم ، وكانت النظافة عندهم من الإيمان بالآلهة . فكانوا يداومون على حلاقة الرأس والذقن بالموسى ، ويستعملون الشعر المستعار فى مناسباتهم المختلفة . وأعتقد أن عادة الختان للذكور وهى أصلا من أمور النظافة العامة نشأت فى مصر القديمة ، وهناك فى إحدى مقابر منطقة أهرام الجيزة من الدولة القديمة وهى مقبرة تسن ، صورت العملية بتفاصيلها . وفى نفس المقبرة منظر قص الأظافر (ومنظر لأمرأة مغمى عليها وهى تعالج) ، وكانوا يستعملون ملح النطرون لغسل الفم والأسنان مثل الصابون ، وكان دخول أحدهم ، وهو قذر ، إحدى المقابر أو الأماكن المقدسة من الأمور الممنوعة قطعيا .

الطيب والعطور :

كما عرف المصريون ألوان الطيب والعطور ، يتطيبون بها فى اجتماعاتهم . وكان الملك اذا ما أراد تكريم أحد رجاله المخلصين يأمر بأن يطيب بالعطور الملكية . وفى حفلات السمر ، وفى الزيارات بين الأسر ، وكذلك فى المناسبات الدينية يصور الرجال والسيدات وعلى رأس كل منهم قطعة مخروطية من دهن الطيب تفعل فعلها عندما تذوب تدريجيا وتنشر شذاها من حول حاملها . ومع أن المصريين لم يتوصلوا إلى طريقة تقطير الزيوت العطرية أى استخلاصها عن طريق التقطير إلا فى نهاية عهد الدولة المصرية فى العصرين اليونانى والرومانى ، إلا أنهم كانوا يلجأون إلى طريقة جمع الزهور حاملة الزيوت الطرية مثل « زهرة الزنبق » ويقومون بعصرها فى أوان خاصة لاستعماله كما هو . وتحت أيدينا مناظر لجمع زهور « الزنبق » وحملها فوق رؤوس

السيدات العاملات فيما يشبه « المشنة » أو الأقفاص المستديرة الشكل ، ثم عصرها فيما يشبه الشباك بواسطة رجلين ، ثم يجمع عصير الزيت فى الأوانى لحفظه مثل المناظر الملونة التى كانت مصورة على جدران إحدى المقابر فى بنى حسن ، وسجلها الباحثون فى حينه ولكنها الآن ضاعت بفعل الإهمال ، بالإضافة إلى نقش بارز محفوظ بمتحف اللوفر ، يمثل عمليات جمع وعصر زهور « الزنبق » ونقش آخر فى متحف ليدن بهولندا يحمل نفس المعنى .

ولا يفوتنا أن نذكر أكليل الزهور (اللوتس) الذى عثر عليه حول مومياء الملكين أمنحتب الأول وتوت عنخ آمون مما يؤكد للباحث أن كثيرا من التقاليد الحضارية التى نقلها العالم عن اليونان والرومان بدأت هنا فى وادى النيل مدرسة الإنسانية الأولى .

معبد الدير البحرى لحتشبسوت :

أما معبد ومقبرة الملكة حتشبسوت (لوحة رقم ١٨) فى الدير البحرى غربى طيبة فقد خرج مهندسه المدعو سنموت عن القاعدة المتبعة فى بناء المعابد الجنائزية ، فالمعبد بنى على مدرجات على غرار معبد ومقبرة الملك منتوحتب الثانى أشهر ملوك الأسرة الحادية عشرة من الدولة الوسطى والذى يقع فى نفس المنطقة . والملكة حتشبسوت لها فى تاريخ مصر وضع خاص ، ذلك أن أباها الملك تحوتمس الأول لم ينجب من زوجته الشرعية إلا حتشبسوت ولم ينجب ولدا يورثه العرش من بعده إلا تحوتمس (الثانى) ولكن من زوجة غير شرعية كانت إحدى جواريه، فسعى أولو العلم والدراية من كهنة آل فرعون إلى المناداة بتحوتمس الثانى هذا ملكا بعد أن زوجوه من أخته لأبيه حتشبسوت ، عندما مات أبوهما الملك تحوتمس الأول . والواقع أن الملكة حتشبسوت كانت هى صاحبة الحق فى العرش ، ومن أجل ذلك عاش زوجها تحوتمس الثانى فى ظلها ، وكانت هى صاحبة النفوذ والسلطان ، وغنى عن البيان أن الملكة واجهت معارضة شديدة من أفراد الأسرة المالكة ومن الكهنة ومن كبار القوم ، لكى تحكم البلاد بمفردها ، فالمعروف أن دنيا المصريين لم تتعود أن ترى على العرش إمرأة ، ولذلك وافقت على الحل الذى ارتضوه لها . وتكررت المشكلة مرة

أخرى عندما لم ينجب الملك تحوتمس الثانى ولدا إلا من جارية ، فبعد وفاة الملك تحوتمس الثانى استغلت الملكة حتشبسوت الفرصة ، وأعلنت وصايتها على الصبى (الملك تحوتمس الثالث فيما بعد) ، ووقف إلى جانبها حزب قوى يتزعمه سنموت المشرف على القصر الملكى وعلى أملاكه، بل وعلى إبنة الملكة المسماة نفرو رع ، وقام سنموت هذا بدور كبير فى زمن الملكة حتشبسوت وعلى الأخص خلال فترة اغتصابها للعرش ، وإبعادها للملك تحوتمس الثالث عن حياة الحكم والسياسة طوال الثلاثة عشر عاما ، وقد أمر سنموت هذا بحفر مقبرته فى صخور منطقة الدير البحرى غير بعيد عن قبر الملكة ومعبدها ، وكشف الباحثون عن وجود ممر على هيئة نفق طويل فى الصخر يربط بين مقبرة مهندس الملكة وبين قبرها . ويمتاز قبر سنموت بوجود رسوم نادرة على السقف الحجرى يمثل الأبراج السماوية . وكانت الملكة خلال تلك الفترة تظهر على الملأ ، وتصور على المعابد بوصفها ملكا ، بل أنها أسمت نفسها « ملك الجنوب والشمال » وكانت ترتدى زى الملوك وذلك حتى تتجنب الدهشة فى أعين الناس عندما ينظرون فيجدون على عرشهم أمرأة ، واتهم المؤرخون الملكة وأثاروا حول علاقاتها بسنموت كثيرا من الظنون ، ولا نملك الدليل على صحة أو كذب هذا الادعاء . والواقع أن أهم عمل قام به سمنوت هذا من وجهة نظرنا هو إشرافه على بناء معبد الملكة حتشبسوت فى الدير البحرى : فالمعبد يبدأ بطريق أحيط من الجانبين بتماثيل الملكة فى هيئة أبى الهول كما غرست أشجار النخيل ، وأحواض البردى على الجانبين فتحول الجبل إلى واحة خضراء رغم بعده وارتفاعه عن الوادى ، وبعد تخطى الفناء السفلى والشرفة الأولى ذات البوائك يصعد المرء إلى الفناء العلوى المكشوف أيضا ، ثم إلى طريق صاعد يقع فى نهايته بوائك على اليمين وهو ما يعرف ببهو الميلاد ، وعلى اليسار صورت رحلة بحرية إلى بلاد بونت ، وإلى يسار بهو الميلاد بنيت مقصورة للإلهة حتحور معبودة الجبل ، وإلى يمين بهو بونت بنيت مقصورة لأنوبيس إله الجبانة ، أما بهو الميلاد فصورت على جدرانه قصة نسب الملكة حتشبسوت إلى الإله آمون مباشرة رغبة منها فى تأكيد حقها فى العرش ، فنرى من الكتابات والصور كيف

أقبل الإله آمون إلى الإله توت (إله الحكمة والمعرفة) يسأله عن الملكة أحمس التى ستصبح فيما بعد أما لحتشبسوت فيمتدحها الإله توت أمام الإله الأكبر ، ويصطحب الإله إليها ، بعد أن تزيا آمون بزى الملك ، ويدخل آمون على الملكة فى صورة الملك فيجدها نائمة ، ولكن عطر الإله يوقظها وتسعى إلى الإله مسرورة فيهبها الإله قلبه ، وبعد أن يقضيا الليلة معا ينبؤها الإله بأنه وهبها ابنة ستصبح ملكة الديار ، لأنها من صلب الإله آمون ، وعندما تولد حتشبسوت تباركها الآلهة ، وتبالغ النصوص فى وصفها وتأكيد حقها الملكى .

وبهو بونت صورت على جدرانه مناظر البعثة التجارية التى أرسلتها الملكة إلى بلاد بونت (حول باب المندب عند الطرف الجنوبى للبحر الأحمر) ، بتكليف إلهى كما تقول النصوص المصاحبة للرسوم ، وعندما شكا الإله آمون للملكة من نقص البخور الجيد وطلب إليها أن توفد من يحضره من بلاده الأصلية ، أرسلت الملكة بعثتها البحرية إلى بلاد بونت حيث استغرقت زمنا ليس بالقصير ، وعادت السفن محملة بمحاصيل تلك البلاد . ولا جدال فى أن بعض الرسامين والكتاب رافقوا تلك الرحلة البحرية الطويلة ، وأنهم أجروا رسوما تجريبية لأهم الأشخاص والمناظر التى شاهدوها فى تلك البلاد لتساعدهم بعد ذلك فى رسم المناظر على جدران المعبد . وعندما وصل الأسطول التجارى المصرى إلى شواطئ تلك البلاد محملا بمحاصيل مصر ، قابله أهل بونت بالترحاب ومعهم حاصلاتهم ، ليتم التبادل وتعقد الصفقات ، ويحصل المصريون على ما كانوا يبغون ويقبل أمير بونت وزوجته البدينة جدا ، ومن خلفها حاملوا الهدايا لرسول ملكة مصر . كما صور الفنان بصدق قرية بأكواخها المخروطية الشكل ، وبلغ دقة النقل أن الفنان صور أنواعا من الحيوانات والأسماك الغريبة على الطبيعة المصرية فى الماء الذى صوره جاريا على مقربة من الأكواخ ، مما مكن العلماء والمتخصصين من التعرف ، من بينها ، على أنواع خاصة بالبحرالأحمر . ويصور الفنان الأسطول بعد أن عاد إلى طيبة . ولابد من أنه كانت هناك طريقة ما للانتقال بين النيل والبحر الأحمر . ولعل أحد أفرع النيل القديمة والذى تقوم مقامه

حاليا ترعة الاسماعيلية ، وكان يعرف قديما بوادى طميلات كان يصل إلى قمة خليج السويس ، تلك القناة التى تردد في الأخبار القديمة أن أول من أقامها هو الملك سنوسرت الثالث من الدولة الوسطى [١٠] . وعند رسو السفن فى طيبة تحمل البضائع وأهمها البخور حيث يكال الذهب الذى يوزن لتحدد مقاديره ، وغيره من المعادن الثمينة وأشجار البخور مزروعة فى أوعية كبيرة ليعاد زراعتها فى حديقة معبد الملكة بجبل طيبة . كل ذلك يعد حصيلة لا تنفذ لتاريخ الحضارة الانسانية ، وسجلا مصورا لمدى اتصال الحضارة المصرية بغيرها من الحضارات الأفريقية فى شرق القارة .

ومما تجدر الاشارة إليه، أن الملك تحوتمس الثالث عندما انفرد بالعرش بعد وفاة الملكة حتشبسوت بادر إلى محو اسمها من على عمارة المعبد الجنائزى وأضاف مكانه اسمه. إلا أن رجال الملك فى عجالتهم لم يراعوا أن النصوص كانت تتحدث عن ملكة ، أى بصيغة المؤنث ، وتركوها ــ كما هى ، شاهدا على عدوانهم .

وللملكة حتشبسوت تابوتان ، أحدهما وهى ملكة أى زوجة لرابع ملوك الأسرة الثامنة عشرة تحوتمس الثانى ، وقبل أن تتخذ لنفسها لقب « ملك » وهو الذى وجد فى مقبرة محفورة فى الصخر فى واد منعزل جنوب وادى الملوك ، H. Carter and A.H. Gerdiner,4, (1917), p. 115-118) والتابوت الثانى لها وهى ملك لمصر كلها ، وهو الذى دفنت فيه فعلا ، وقد عثر عليه فى مقبرتها بوادى الملوك « ورقمه فى المتحف المصرى ٦٣٠ » وهو دقيق الصنع نقوشه جميلة نشره العالم كارتر أيضا .

وهناك تابوت ثالث لحتشبسوت كملك أيضا ، عدل ليستقبل جثة أبيها الملك تحوتمس الأول ، ووجد فى قبرها بوادى الملوك وهو الآن بمتحف بوسطن وفى دراسة هذه التوابيت ما يوضح بعض التطورات فى موضوع وراثة العرش زمن الأسرة الثامنة عشرة .

الفصل السابع

الهكسوس

أول غزو أجنبى لمصر

(١٦٥٠ ـــ ١٥٤٢ ق.م.)

دار الزمن دورته ، وانحدرت البلاد نحو الهاوية بشدة ، وذلك عندما انتهت أيام الأسرة الثالثة عشرة ، وكان السبب الرئيسى لهذه الفوضى هو الحرب الأهلية والتنازع على الزعامة ، وأدى هذا الخلاف الى ضياع استقلال الوطن ، اذ دخله الهكسوس فاتحين ، ولم يكن فى البلاد قوة تستطيع الوقوف فى طريقهم « دخلوها فى غير حرب ، لأن المصريين كانوا يومئذ فى ثورة واضطراب » كما يقول مانيتون فيما وصل إلينا عن طريق المؤرخ يوسف اليهودى ، وذلك حوالى عام ١٦٥٠ ق.م. ويؤيد قوله ما جاء فى بردية ساليية الأولى (من زمن الملك منفتاح بالمتحف البريطانى) عن حدوث وباء بين المصريين وعدم وجود سيد بينهم يقوم ملكا عليهم فمهد الوباء للغزو ، كما ساعد على ازدياد سوء الحالة . وكان الهكسوس قد دخلوا البلاد بسلاح جديد هو العجلة الحربية والحصان . ومن واقع الآثار تبين أن الهكسوس دخلوا مصر قبل غزوهم النهائى فى شكل هجرات هادئة واستوطنوا فى شرق الدلتا مدة طويلة قبل أن يتمكنوا بواسطة الغزوة الأخيرة من السيطرة على مصر .

أما عن أصل التسمية فلها تفسيران :

أولهما ملوك الرعاة : على حد تفسير مانيتون لكلمة هكسوس ، معتمدا فى ذلك على لغة العامة (الديموطيقية) وهى السائدة حينذاك .

وثانيهما أسرى الرعاة : كما سماهم يوسف اليهودى فيما نقله عن مانيتون . والذى يدقق فى أصل اللفظ فى كل من الترجمتين يرى أن التسمية الأولى ملوك الرعاة ــ هى الأصح . ولعل السبب فى هذا الاختلاف يرجع إلى إشتباه بين لفظين فى النطق . وهما حقا = حاكم ، حاق = أسير أو غنيمة ، أى أن الشطر الأول من كلمة هكسوس وهو « هك » = حقا ، أما الشطر الثانى « سوس » فربما كان تحريفا

لكلمة خاسوت بمعنى البلاد الأجنبية . أو لعله تحريف لكلمة شاسوت = الرعاة ، وطبقا لذلك يكون مرجع الاسم الى كلمة حقة ــ خاسوت = حكام البلاد الأجنبية . والذى يؤيد هذا القول أن الهكسوس كانوا يسمون أنفسهم حقا وخاسوت ويسجلون ذلك على آثارهم . وربما كان أول ظهور هذا الإسم فى اللغة المصرية أن يكون أيام الأسرة الثانية عشرة كما سماهم « سنوهى » فى قصته ، وكما ورد هذا الاسم فى قبر خنوم ــ حتب أمير الإقليم السادس عشر من أقاليم مصر ويعرف حالياً ببنى حسن بمصر الوسطى ، حين هاجرت إليه تلك القبيلة الآسيوية التى يرأسها رجل لقب بحاكم البلاد الأجنبية .

أطلق المصريون على الهكسوس أسماء مختلفة يشير بعضها الى موطنهم ولكننا لا نعتمد عليها كثيرا لأنها مجرد إشارات عامة ، لم يتوخوا فيها الدقة ، ومن هذه التسميات : منتيو ــ ستت = البدو الآسيويون أوشاسو = الرعاة ، ومن قبل أطلقوا هذه الأسماء على البدو المتاخمين لحدود مصر الشمالية الشرقية .

أصل الهكسوس :

أما أن الهكسوس قوم ساميون ، قدموا على مصر من آسيا ، ودخلوها من مدخلها الشمالى الشرقى ، فهذا مسلم به ، وتؤيده كل آثارهم وآثار الفراعنة من بعدهم . وأقوال المؤرخين بعد ذلك .

وآراء المؤرخين عن موطنهم الأصلى تنحصر فى رأيين :

أولهما : يقول بانتمائهم إلى القبائل السامية فى فلسطين وسوريا والجزيرة العربية ، وأن سبب الهجرة عامل إقتصادى إضطرهم إلى البحث عن الرزق ولو بالحرب لأن أراضيهم أصيبت بالقحط بسبب الجفاف .

وثانى الرأيين : يقول بهجرتهم من سوريا بسبب ضغط الهجرة الآرية . والرأى الأرجح هو أنهم ساميون موطنهم الأصلى فلسطين ، فبعض أسمائهم مثل يعقوب أيل ، عامو ، عبد تقرب كثيرا من العبرية ، وأنهم هاجروا بسبب تضيق الآريين عليهم .

مدى نفوذ الهكسوس :

ولما دخل الهكسوس مصر اتخذوا لهم عاصمة فى شرق الدلتا هى أواريس وجعلوها قاعدة ويعتقد مانفريد بيتاك أنها هى تل الضبعة الحالية ، وأخذوا يمدون سلطانهم نحو أقاليم الوادى ، ثم اتجهوا صوب منف ، واحتلوها ، وأهم الأماكن التى عثر فيها على آثار الهكسوس هى تل الضبعة ، تل اليهودية وتل الصحابة عند مدخل وادى طميلات من الشرق ، تل الفراشة ، أنشاص ، تل بسطة ، غيته ويحدثنا مانيتون بأن زحف الهكسوس قد تخطى منف حتى بلغ الحدود الجنوبية للأقاليم الوسطى وقد اعتمدوا فى حكم البلاد على أمراء محليين موالين لهم ، ويؤيد قوله سندان من أسانيد التاريخ الهامة :

١ ــ أخبار لحتشبسوت مدونة فى غار أرتميدوس ــ معبد بخت ــ فى وادى بنى حسن على مقربة من الجبانة المعروفة هناك تقول بأن حتشبسوت قد أعادت بناء معبد حتحور فى القوصية الإقليم الرابع عشر من أقاليم مصر الوسطى ، وأنها أصلحت كثيرا من المعابد والعمائر التى خربها الهكسوس أعداء الإله رع ، وفى آثار تل بسطة ما يشير إلى التخريب والحرائق التى تسبب فيها غزو الهكسوس فى أواخر الدولة الوسطى .

٢ ــ وفى حديث الملك كامس بطل الثورة على الهكسوس ما يؤيد قول مانيتون فى احتلالهم لأقاليم شمالى أسيوط وبلوغهم القوصية حيث أوقع بالخائن فى نفروسى (لوح كارنافون) .

ويعتقد البعض أن نفوذ الهكسوس قد بلغ الجبلين نواحى طيبة ، إعتمادا على أسماء الملكين خيان وأبو فيس وهما أقوى ملوك الهكسوس مسجلة على الصخر هناك . ولعل الهكسوس فى غمرة انتصارهم قد وصلوا طيبة ثم اضطروا الى مغادرتها بسبب مقاومة أهلها ، أو أن بعض الموالين لهم من الخونة قد دونوا أسماء الملكين هناك ليثبتوا ولاءهم للفاتحين .

هل تأثرت مصر بعصر الهكسوس

حكم الهكسوس مصر نحو قرن من الزمان ، وكان لحكمهم للبلاد أثر كبير فى تغيير وجه الحياة فيها ، ففتحت أعين المصريون على أمور ظلت خافية عنهم . فعلى الرغم من المحن الجبارة التى ابتليت بها مصر على أيدى الغزاة الغرباء وما أصاب أهلها وآثار ملوكها الأولين من أهوال ، إلا أن هذا العصر لم يخل من حسنات :

فبفضل العربة الحربية والحصان إستطاعت مصر فيما بعد أن تكون إمبراطورية ، وعلى أثر غزو الهكسوس تنبه المصريون إلى حقيقة تعرض بلادهم لأخطار تأتيها من الشرق ، فعملوا على تأمين تلك المناطق عن طريق السيطرة عليها حتى لا تقع فى أيدى الطامعين وتعرض سلامة مصر للخطر .

كما ظهرت بطولات فردية من الشعب المصرى أثناء معارك التحرير ، ولم يعد التاريخ وقفا على آل فرعون دون سواهم .

كذلك إتسعت حركة التجارة فى حوض البحر المتوسط بشكل لم يسبق له مثيل من قبل فتم تبادل السلع بين فينيقيا وجزر بحر إيجة وبين مصر .

طرد الهكسوس ــ وحروب التحرير :

وقامت الثورة المسلحة ضد حكم الهكسوس تحت راية الدين ، اذ نرى الملك أبوفيس يدعو الملك المصرى فى طيبة سقنن رع إلى عبادة ربة ست ــ بعل والانصراف عن آمون . كما تعلل بأن أصوات أفراس النهر فى طيبة تقلق راحة الملك أواريس بشرق الدلتا (بردية ساليية الأولى) ، واستعان الملك سقنن رع بأوليائه من أهل الصعيد وخاصة من ادفو ، وكانت تشاركه فى الجهاد زوجته الملكة ايعاح ــ حتب أم خليفتيه وقبرها عثر عليه فى طيبة . ولكن سقنن رع سقط صريعا فى القتال وموميائه بالمتحف المصرى تشير الى أنه سقط نتيجة ضربات من فأس حرب آسيوية مما كان يستعمله الهكسوس ، ومات الملك بعد أن وضع الأساس لبناء نهضة حديثة .

وكان الوادى فى مطلع أيام الملك كامس ينقسم الى ثلاثة أقسام :

١ ــ الشمال والوسط تحت سلطان الهكسوس .

٢ ــ الصعيد تحت حكم ملوك طيبة المصريين .

٣ ــ أقاليم النوبة وشمال السودان تحت حكم أمراء كوش السودانيين .

وكان للملك كامس الفضل فى تطهير مصر الوسطى من الهكسوس حتى منف تقريبا (لوح كارنافون) .

وخلفه أحمس فحاصر الهكسوس فى عاصمتهم أواريس ذات الحصون ثم فى شاروبين بفلسطين . وعندما عقد له لواء النصر عاد وأقام نصبا تذكاريا فى الكرنك ، يخلد أعماله وأعمال أمه الملكة ايعاح ــ حتب ، واحتراما لذكراه عده المصريون قديسا بعد وفاته .

الفصل الثامن

محاولات توحيد
ممالك الشرق ووادى النيل

لم نعثر فى الآثار على شيء يدل على حروب قام بها الملك أمنحتب الأول ابن الملك أحمس فى الشرق ، بل تحدثت المصادر فقط عن حروبه فى الجنوب « لتوسيع حدوده » كما جاء فى سيرة رجل الدولة أحمس بن إبانا ، وانما الذى يجعلنا نفترض قيام حروب له فى الشرق ، أن نرى تلك السرعة التى استطاع بها خليفته الملك تحوتمس الأول توسيع الحدود فى الشرق .

ومما يذكر عن الملك أمنحتب الأول أنه قدس فى طيبة وخاصة فى منطقة دير المدينة ، ومعه أمه الشهيرة أحمس نفرتارى ، ربما كان السبب فى ذلك أنه هو الذى قام بوضع نظام مؤسسة العمال المخصصين للعمائر الملكية ، وقد عثر على تابوته على هيئة الآدمى وجسده مزدان بالزهور .

وخلف الملك أمنحتب الأول ، الملك تحوتمس الأول ، وهو إما من أولاد الملك أحمس من جارية أو من أولاد أمنحتب الأول من جارية ، واعتلى العرش وتزوج من الأبنة الشرعية .

ومصادر أخبار حروبه عديدة منها أثره فى طمبس فى النوبة ، وسيرة رجل الدولة أحمس بن أبانا وسيرة رجل الدولة أحمس الكابى . وكلها تشير إلى أنه تخطى حدود الدولة الوسطى عند سمنة وقمة الى دنقلة فى الجنوب ، والتى مدها الملك تحوتمس الثالث حتى الشلال الرابع عند جبل برقل حيث أسست مدينة نبتة .

أما حروب تحوتمس الأول فى الشرق فقد وصل بها إلى نهارينا عند وادى الفرات . وفى زمن الملك تحوتمس الثانى والملكة حتشبسوت ، لم تكن الفرصة متاحة

للحفاظ على ما أحرزه الملوك السابقون فى الشرق ، مما دفع أمراء آسيا الى التحالف ضد مصر تحت زعامة أمير قادش .

وخرج لهم الملك تحوتمس الثالث (لوحة رقم ١٩) فى موقعة مجدو ، وسلك الطريق الشاق ليحدث المفاجأة ويحاصر القلعة حتى تستسلم ، حينئذ يرسل له أمراء سوريا وغيرها ومنهم ملك الأشوريين الهدايا رمزا للصداقة . وفى حروب أمنحتب الثانى ورد ذكر العبرانيين لأول مرة . حيث ذكر أنه أحضر منهم آلاف الأسرى . وفى جنوب فينيقيا (فنخو) أقام حصنا ، وجعل على الأقاليم الآسيوية المفتوحة حكاما موالين ، لهم حرية التصرف بشرط دفع الجزية ، وكان يأخذ أولادهم ليتربوا فى القصر الملكى مع أولاد الملك حتى ينشأوا على حب مصر . وكان من نتائج حملته الأولى أن خضعت كل منطقة فلسطين ودمشق حتى أقصى جنوب لبنان ، بما فى ذلك بعض مدن الساحل الفينيقى . ولقد قام الملك تحوتمس الثالث بعد عودته الظافرة من هذه الحملة ببناء قاعة الاحتفالات الكبرى بمعبد الكرنك بالأقصر ، وسجل عليها إسماء المدن المفتوحة ، وصور بعضا من مظاهرها الطبيعية . وأتبع هذه الحملة بأربع عشرة حملة أخرى الى آسيا ، أتم بها الوحدة التى ضمت كلا من مصر وفلسطين والشام وبلاد النهرين ، وأقاليم النوبة وسودان وادى النيل ، وكان هذا التحالف موجها ضد خطر الحيثيين بعد أن قاست المنطقة من خطر الهكسوس من قبل .

وقصة الاستيلاء على يافا بقيادة القائد تحوتى ـــ أصبحت من قصص الآداب ـــ المصرية أيام الدولة الحديثة (بردية هاريس رقم ٥٠٠) وخلاصتها أنه عندما إستعصت أسوار المدينة على المصريين لجأ قائدهم إلى الحيلة عندما أدعى الخيانة ، وقص لحاكم يافا أساطير عن عصى فرعون السحرية ، فيرغب حاكم يافا فى الحصول عليها وتكون الفرصة لضربه وفتح الأسوار للجيش المصرى ليدخل المدينة ويفتحها .

وضمن حملاته المتعددة على آسيا ، قام الملك تحوتمس الثالث بإعادة فتح قادش (المرة الأولى كانت فى موقعة مجدو) ، ويذكر التاريخ عنها أن قائد الجيش المعادى لجأ إلى حيلة يشتت بها فرسان الجيش المصرى حينما أطلق فرسا تطلب

الوثب بين خيول الجيش المصرى ، ولكن سرعة تصرف القائد المصرى أمنحتب هى التى أنقذت الموقف عندما أسرع وقتل الفرس .

وهناك العديد من الشواهد التى تؤكد مهارة الملك تحوتمس الثالث قائدا حربيا ، اذ نراه يأمر بأن تبحر السفن محملة بالمؤن بمحاذاة الشاطىء الذى اتخذه الجيش طريقا بريا للزحف ، فيأمن بذلك قطع خطوط الإمدادات ، وعندما صمم على عبور الفرات لمواصلة القتال أمر ببناء السفن فى مدينة ببلوص الفينيقية على ساحل البحر وحملت قطعها لتركب أمام قواته على شاطىء نهر الفرات .

والملك أمنحتب الثانى خليفة تحوتمس الثالث ولد فى مدينة منف ، ولقد عثر عند أبى الهول على لوح حجرى ضخم يصور الملك وهو يتعبد لأبى الهول بوصفه إله الشمس ، ويسجل حياة الملك . ومصادر حروبه مدونة فى جزيرة فيلاى وآثار عمدا التى تتحدث عن الحملة الأولى وأمراء تخسى فى شمال سوريا .

أما نص عمدا الذى يتحدث عن حملة الملك أمنحتب الثانى فى شمال سوريا فى السنة الثالثة من حكمه وعمره احدى وعشرون سنة فهو كالآتى :

« ثم أمر جلالته بأن يقام هذا اللوح فى هذا المعبد ، من أجل الملك فليحيا سعيدا معافى ، محفورا عليه الإسم العظيم لسيد الوجهين ، إبن الشمس أمنحوتب . فى بيت أبى الآلهة ، بعد أن عاد جلالته من رثنو العليا ، وبعد أن قتل كل الثائرين ، وهو فى سبيله لتوسيع حدود مصر فى الحملة الظافرة الأولى . وعاد جلالته مسرورا لوالدة آمون ، بعد أن قضى على السبعة الكبار بنفسه ، الذين كانوا فى إقليم تخسى (فى شمال سوريا) ووضعوا فى هيئة معكوسة على مقدم مركب جلالته المدعى « عاخبرو ــ رع ــ سمنتاوى » . ثم علق ستة من هؤلاء الرجال أمام أسوار مدينة طيبة مع أيديهم . وأرسل جسد السابع بطريق النيل إلى بلاد النوبة وعلق على أسوار مدينة نبته ، لكى تشاهد إنتصارات جلالته إلى الأبد فى كل البلاد وفى البلاد الأجنبية وفى بلاد النحسى (السودان) » . ولوحا منف والكرنك يتحدثان عن الحملتين الثانية والثالثة . وهذه ترجمة عن المصرية :

« وضرب جلالته نهارينا حيث قضى عليهم بقوسه . وتقدم جلالته نحو رثنو فى حملته الحربية الظافرة الأولى من أجل توسيع حدوده على حساب من لم يكونوا على ولائه . وكان وجهه متجهما مثل باسطه وست ساعة غضبه .

فلما بلغ شمس — أدوم تجهم وجهه فأصبح كوجه بسطه ، هنالك أضحى مثل سوتخ .. فخربها فى لحظة ، وكان فى إقتحامه لها كالأسد الضارى ، عندما يذرع الغلاة ، فغنم منها بسيفه خمسة وثلاثين أسيرا .

وعبر جلالته نهر العاصي فى شجاعة فائقة وكأنه الاله رشب ، ثم استدار جلالته يرمى ببصره ليرى مؤخرة الجيش ، فلمح جماعة من السوريين المسلحين يتسللون من وراء جيشه ليداهموه ، فانقض عليهم كالصقر . ومع أنهم كانوا يثقون فى أنفسهم ، فقد وهنت قلوبهم وأخذ الواحد منهم يسقط أثر الآخر ، هنالك خارت قواهم وضعفت قلوبهم ، وأخذوا يتساقطون بعضهم فوق البعض الآخر بما فى ذلك قائدهم ، ولم يكن مع جلالته سوى سيفه البتار ، ثم أفناهم بطلقات السهام ، وعاد مسرورا من هناك كأنه منتو المنتصر ... وأسر جلالته فى يومه هذا اثنين من رؤساء القبائل ، وستا من النبلاء ، وغنم خيولهم وعجلاتهم وسلاحهم جميعا . وبلغ جلالته مصعدا مدينة « نى » (ربما كانت مدينة نينوى) فخرج أميرها وكل سكانها مستسلمين لجلالته . وظهرت على وجوههم الدهشة والاعجاب » .

وتوجه الى أوجاريت وهى من المدن الساحلية فى المكان المعروف برأس الشمرة . ولقد أمر أمنحتب الثانى باقامة لوحين على حدود ملكه إحداهما عند نهارينا فى آسيا كما فعل من قبل الملكان تحوتمس الأول وتحوتمس الثالث . وهكذا تأكدت وحدة المنطقة .

وعندما وصل ركب الأيام الى زمن الملك أمنحوتب الثالث كانت نهاية دورة هامة من دورات التطور ، إذ إستقرت الأمور فى الشرق وفى الجنوب . وبدأت المنطقة تقطف ثمار الوحدة ، وأخذت مصر تدخل فى مرحلة جديدة متحررة من كثير من

التقاليد . وهكذا يظهر الملك أمنحتب الثالث بمظهر الرجل المجدد محطم التقاليد :

(أ) فهو يراسل ملوك الشرق الأوسط القديم وأمرائه بلغة بابل ويعقد معهم مواثيق للسلام .

(ب) ويفتح القصر الملكى ليغشاه غير المصريين فى شكل زوجات الملك وموظفين مقربين .

(ج) ويخرج على الملأ بلباس عادى حيث يرى فى شرفات قصره بغير الزى الرسمى التقليدى المعروف ، ويتزوج من بنات الشعب (الملكة تى) .

(د) يبعث بولده تحوتمس ليكون كبيرا للكهنة فى منف لا أميرا للجيوش وهذا الأمير هو أول من فكر فى بناء قبر العجل أبيس فى منف وهو ما عرف فيما بعد باسم السرابيم بسقارة .

(و) وفى أواخر أيامه عندما غشيه المرض أظهر إيمانه بالأرباب الآسيوية .

(هـ) وقد عثر فى رودس وقبرص على آثار صغيرة تحمل إسمه وإسم زوجته . الى جانب ذلك كثرت عمائره الفخمة فى الكرنك ، حيث بنى معبدى المعبودة موت ، (زوجة آمون) ومنتو (اله الحرب) ، وأقيم صرح لمعبد الكرنك ، وأضيف طريق للكباش . وبنى معبد الأقصر الشهير ومعبد جنائزى فى طيبة الغربية بقى منه فقط التمثالان اللذان يمثلان الملك أمنحتب والذى أطلق عليهما المؤرخون إسم تمثالى ممنون . كما أقام قصرا فى الغرب بعيدا عن المعبد الجنائزى . وفى منف أقام قصرا ومعبدا للمعبود بتاح وبحيرة ملحقة بالمعبد . (راجع فى موكب الشمس الجزء الثانى للدكتور أحمد بدوى ص ٥٦٧) .

الفصل التاسع

الآداب في مصر القديمة

أوراق البردى :

كانت الأوراق البردية المصرية قد أنتقلت الى أوربا عن طريق ببلوص (Byblos) الفينيقية (جبيل حاليا على ساحل لبنان) ذات الشهرة التجارية فى الزمن القديم ، ومن أجل ذلك اشتقت كلمة « كتاب » فى الاغريقية من اسم مدينة ببلوص وتبعا لذلك سميت دار الكتب فى معظم اللغات الأوروبية باسم ببلوتيك كما حمل الكتاب المقدس أيضا اسم Bible بايبل أو بيبل . أما كلمة ورق Paper فهى مشتقة من كلمة بردى .

وعرف البردى فى مصر منذ بداية عصر الأسرات وكان يصنع من سيقان البردى الذى كان يكثر وجوده فى الدلتا وذلك بتقطيع سيقان البردى إلى شرائح متساوية فى السمك تقريبا توضع الى جانب بعضها فى وضع أفقى بحيث تكون حوافها متلاصقة ثم توضع فوقها طبقة أخرى من شرائح السيقان المتلاصقة فى وضع رأسى وتترك لفترة طويلة تحت ضغط قوى وبعدها تصقل الورقة الجافة بعناية وتهذب أطرافها ، وتتكون لفافة البردى من مجموعة من تلك الأوراق الملصقة بعناية فائقة ببعضها البعض قد تصل الى عشرات القطع .

الكتابة المصرية :

ومن آثار الأسرتين الأولى والثانية محاولات رائعة للتعبير بالكتابة المصورة أخذت فى التطور التدريجى حتى استقرت على قواعد راسخة ، فاستعملوا صورا من الطبيعة ومخلوقاتها فى التعبير عن الأصوات المختلفة ، وعندما شاهد الرحالة الإغريق فى العصور المتأخرة تلك الكتابات المصورة على جدران المعابد والمقابر سموها الهيروغليفية أى الكتابة المقدسة وقد ظلت مستعملة حتى نهاية القرن الثالث الميلادى .

أما الهيراطيقية فهى نفسها الكتابة الهيروغليفية مع تبسيط بعض حروفها عند إستعمال القلم والحبر والكتابة على الورق أو على الخشب وقطع الفخار . واستعملت الهيراطيقية أيضا منذ أقدم العصور مثلها فى ذلك مثل الكتابة المصورة .

والديموطيقية (أى الكتابة الشعبية) كتابة مبسطة مأخوذة عن سابقتها ، ظهرت متأخرة نسبيا فى نهاية القرن الثامن قبل الميلاد . واستعملت فى الأدب الشعبى وفى كتابة العقود فى المعاملات فى البيع والشراء والزواج والطلاق ... الخ .

أما آخر مرحلة من مراحل اللغة المصرية فهى اللغة القبطية وظهرت الى الوجود عندما استبدلت الحروف المصرية بالحروف الإغريقية ما عدا سبعة تعبر عن أصوات غير موجودة فى الاغريقية مأخوذة عن الديموطيقية وعثر على كتابات بالقبطية منذ القرنين الثانى والثالث الميلاديين ، وجدير بالملاحظة أن كلمة قبط مأخوذة من الكلمة الاغريقية « أجبتوس » بمعنى « مصر » . واتخذ المصريون للكتابة معبودة أسموها سشات Seshat هذا بخلاف الإله توت رب المعرفة . وكانت تصور مع الاله توت وهى تسجل على أوراق الشجرة المقدسة عدد سنوات حكم كل ملك .

الآداب الدينية :

وعن طريق الكتابة سجل المصريون آدابهم بأنواعها ولعل أقدمها هى مجموعة الآداب الدينية المعروفة باسم نصوص الأهرام ونصوص التوابيت وكتاب الموتى مما سبق الحديث عنه ، بالإضافة إلى كثير من المدائح الدينية لعدد من الآلهة والتى بلغت ذروتها أيام أخناتون فى مدائح المعبود آتون:

« أنت يا من يشرق بجماله فى آفاق السماء .. تعاليت فامتد نورك على الأرض . أيها الظاهر الباطن .. أيها الواحد الأحد .. لك الحمد .. رفعت السماء عن الأرض . استويت على العرش » .

الأدب التعليمى :

ومنذ زمن الدولة القديمة ظهر نوع من الأدب يعرف بالأدب التعليمى ، ولدينا منه مادة وفيرة تغطى جميع مراحل التاريخ المصرى . وأقدم نماذج وصلت إلينا هى تعاليم كاجمنى وبتاح حتب من الدولة القديمة ، مسجلة على بردية تعرف حديثا باسم بردية بريس Prisse (وهى محفوظة حاليا بدار الكتب الأهلية بباريس) ، وبتاح حتب هذا يوجه كلامه إلى إبنه محاولا أن يعطيه فكرة عن الحياة ، ويرغبه فى المعرفة بشتى الوسائل بإسلوب عذب واختيار موفق للكلمات فنراه يقول مثلا : « إبحث عن المعرفة اينما وجدت لأنها أخفى من الحجر الكريم ولكنك تجدها أحيانا بين أفقر الناس وأقلهم شأنا ، ولا تهمل إستشارة الأمى ذى الخبرة كما تستأنس برأى ذى العلم » .

وكانت تلك التعاليم تهتم ، بوجه خاص ، بغرس آداب السلوك القويم فى حضرة العظماء ذلك أن الغاية من وراء الأدب التعليمى كانت الإعداد لتولى مناصب الدولة لأن معظم وظائف الدولة كانت تورث من الأب إلى إبنه بموافقة الملك . ومن الدولة الوسطى تحت إيدينا تعاليم المدعو خيتى لولده وهو يعده لدخول المدرسة فيأخذ الأب فى تعداد المهن والأعمال اليدوية المختلفة لابنه ، وإلى إظهار عيوب كل منها بشكل مبالغ فيه حتى يصرف إبنه عن كل ما عدا وظيفة كاتب الدولة فيقول مثلا : « إن وظيفة الكاتب هى خير الوظائف جميعا ، فالناس يحترمون صاحبها وهو ما يزال طفلا ، ولقد رأيت صانع النحاس أثناء تأدية عمله عند فتحة الفرن ، وأصابعه تبدو كجلد التمساح ورائحته أسوء من رائحة السمك الفاسد . والحلاق الذى يعمل حتى الليل يمشى من درب الى درب آخر باحثا عن شخص يحلق له يعمل متعبا بيديه كى يملأ معدته (بالكاد) كأنه النحلة فى سعيها ؛ والفلاح الذى لا يغير ثيابه أبدا فهو دائما متعب وباستمرار يقع عليه الضر ، وصانع الأحذية ، وغاسل الثياب على شاطىء النهر ويجاور التمساح . فليست هذه بمهنة يسر لها المرء ، وصائد الأسماك أسوء حال . وكل وظيفة لها من يشرف عليها ما عدا وظيفة الكاتب فليس لها مشرف (أى

أنه سيصبح سيد نفسه) . ولا شك أن طبقة الموظفين كانت صاحبة الحظوة من بين طبقات الناس فى ذلك الزمن كما تدل على ذلك مخلفات مقابرهم . ومن الدولة الحديثة لدينا تعاليم كل من « أنى » « وأمنمؤبت » ومن العصر المتأخر لدينا حصيلة لا بأس بها من ذلك الأدب التعليمى .

ومن ناحية أخرى هناك لون آخر من الأدب التعليمى ، موجه من الملوك الى أولياء عهودهم فيه خلاصة خبرة سياسية وحربية طويلة يقدمها الملوك لأولياء عهودهم ، وليكونوا على حذر فى معالجة الأمور فى تعاملهم مع الرعية ، وعلى سبيل المثال هناك تعاليم الملك خيتى الثالث (من العصر الوسيط الأول) لابنه وولى عهده « مرى ـــ كا ـــ رع » ، يرسم له فيها صور الأحداث الجسام التى عاصرها ، وصراعه الدامى مع أهل طيبة فى محاولة إعادة توحيد مصر ، وكيف أن الصراع أدى الى تحطيم الأماكن المقدسة فى منطقة أبيدوس التى اعتقد المصريون أن أرضها تضم قبر الشهيد أوزيريس حيث وورى الثرى بعض من أقدم ملوك مصر القديمة وأن ذلك كان وبالا على الملك ، ويطلب من إبنه عدم تكرار الخطأ واحترام قدسية الأسلاف الأولين ، والإبتعاد عن معاداة أهل الصعيد « لأنه ليس من الحكمة فى شيء أن يهاجم المرء خصما أقوى منه » ، ويصور الملك لولى عهده تجاربه مع الثائرين فيطلب من إبنه قتلهم ، ومحو ذكراهم من الوجود حتى لا تقوم لهم بعد ذلك قائمة ، ويحذره من الأعراب وكانوا يتحينون الفرص للإنقضاض على قرى الحدود ، ويطلب منه تعمير البلاد على الحدود « لأن البلد العامر لا يأخذه الشر بسهولة » ويوصيه خيرا برجال الادارة وأن يجعل حياتهم هينة ميسورة حتى لا يمدوا أيديهم الى أموال الناس .

وتعاليم الملك أمنمحات الأول لولى عهده سنوسرت (لوحة رقم ٢٠) (فى بداية الأسرة الثانية عشرة زمن الدولة الوسطى) تصور القواعد الأساسية التى يجب أن يسير عليها الحكم ، فهذا الملك قد حمل عبئا ثقيلا فى إعادة بناء البلاد بعد الخراب الذى أصابها فى العصر الوسيط الأول بسبب النزاع على السلطة بين الأقاليم المختلفة ، ومع ذلك فان حياته انتهت بمأساة أودت بها . فكانت تعاليمه وهو على

فراش الموت تقطر مرارة ، فهو يذكر كيف أجهدته الأيام فى سبيل إقرار السلام فى البلاد ، وكيف عمر ، فأنشأ المدن ، وأقام المعابد للآلهة . وكانت النتيجة أن الذين هم أقرب الناس اليه كانوا أول من تحين الفرصة للانقضاض عليه ، وأن من أكلوا عيشه كانوا هم الذين خانوا العهد ، « ولتكن حارس نفسك عندما تنام فلا صديق فى ساعة الشدة » ثم يقول له « ان السعادة لا تتوافر لمن يتجاهل خبرة ماضيه » ، ويستطرد الملك فى وصف محاولة اغتياله عندما هاجمه المتآمرون فيقول :

« لقد كان ذلك بعد العشاء حينما أقبل الليل وكنت قد استرحت فى سريرى .. لأنى كنت متعبا . وبدأ النوم يغلبنى ولكنى رأيت أسلحة تلمع وسمعت من يذكر إسمى . فنهضت كثعبان الصحراء ، وكنت وحدى ولو كان فى يدى سلاح لقضيت على أولئك الجبناء ، أرأيت كيف سال الدم وأنت بعيد عنى ... أرأيت نساء يشتركن فى القتال » .

الأدب الوصفى :

وظهر نوع من الأدب الوصفى بعد سقوط الدولة القديمة يتمثل فى تحذيرات الحكيم (حكيم العصر) « أبو ــ ور » ومعناه أبو العظيم ، من خطر انهيار الحضارة وسقوط النظام وفيها يصور الحكيم حالة البلاد وهى مقبلة على الانهيار السياسى والاجتماعى ، ثم حالتها بعد أن وقع المحظور وانهار البناء الشامخ ، ثم يلوم الملك على موقفه السلبى من الأحداث الجسام التى تصيب شعبه فيقول له « لك الحكمة .. ومعك الحق (ومع ذلك) تركت الفوضى والمفسدين يعيشون فى الأرض .. » « لقد أصبح أهل البلاد غرباء فى أوطانهم . إن الكبار والصغار يقولون ليتنا نموت » « أمن العدل » أن الأطفال أبناء علية القوم يضربون فى الشوارع ويلقون فى الصحراء وأن يضطر آباؤهم للعمل فى أحط الأعمال ، وأن تسير زوجاتهم بالأسمال فى الطرقات كأنهن من الجوارى . والذين لم يسبق لهم امتلاك أى شىء أضحوا الآن من كبار الأغنياء ، والذين كانوا لا يرون وجوههم الا فى صفحة الماء يمتلكون الآن أعلى المزايا .. عجبا لقد اختلت الموازين ولم يعد للعدل من مكان بين الناس » .

وبالاضافة الى تحذيرات أبور هناك تصوير آخر لسوء الأحوال فى ذلك الوقت أو ما نطلق عليه « تخرصات الرجل اليائس » كتبه رجل ضاق بالحياة وما عليها وكان الموت أحب اليه منها ، يتألم من فساد الضمائر وسوء أخلاق الناس ومعصيتهم لخالقهم فعندما تخلى عنه الرفيق والصديق ، وعاداه الجار وقابل الناس احسانه السابق بالجحود والنكران ، ملأه الشك فى جدوى الحياة وحاور نفسه علها تطيعه اذا ما أقدم على الانتحار . ولكن النفس كانت تخشى من المجهول ، فأخذت تصور له طريق الموت المظلم المحفوف بالمخاطر .

ذلك لون من ألوان الأدب المصرى الذى يتناول بالوصف أحوال الناس ، أيام المحنة الكبرى أثر سقوط الدولة القديمة . وينتمى الى نفس هذا اللون تلك المقطوعات الأدبية الرائعة المعروفة باسم « شكاوى الفلاح الفصيح » التى ظهرت فى العصر الأهناسى أي عصر الأسرتين التاسعة والعاشرة ، نسبة الى العاصمة أهناسيا المدينة عند مدخل إقليم الفيوم . مكتوبة فى شكل قصة تدور حول فلاح من وادى النطرون (على مقربة من واحة الفيوم) قام وحمل دوابه من منتجات المنطقة كملح النطرون وبعض النباتات والأخشاب وفراء الحيوانات البرية وغيرها ، وبعد أن اطمأن إلى وجود ما يكفى لاطعام زوجته وأولاده أثناء فترة غيابه توجه قاصدا مدينة أهناسيا المدينة (فى محافظة بنى سويف وكانت عاصمة البلاد فى ذلك الحين) بوادى النيل للتجارة . وفى منتصف الطريق اعترضه رجل آخر من الوادى وسلب منه دوابه بما تحمل ، فذهب الفلاح بشكواه إلى الموظف الكبير وكان يعمل رئيسا لحجاب الملك ويدعى رنسى الذى يعمل عنده الرجل المعتدى . ولما لاحظ الموظف الكبير فصاحة الفلاح فى عرض شكواه ، أبلغ أمره إلى الملك نب ـــ كاو ـــ رع الذى أشار عليه بتعمد أهمال شكوى الفلاح الفصيح ليدفعه الى تقديم المزيد من الشكاوى البليغة ، وطلب منه أيضا أن يأمر بكتابة كل ما يقوله الفلاح ، كما أمر الملك بأن يصل الطعام يوميا إلى أسرته ، وأن يقدم المأكل للفلاح نفسه دون أن يعلم مصدر ذلك الطعام ، وهكذا انطلق الفلاح فى شكواه المؤثرة البليغة التى بلغت تسعا ، والتى

تصل بدورها الى أسماع الملك الذى كان يطرب لها أشد الطرب ويطلب المزيد . ولا جدال فى أن ذلك الأسلوب فى معاملة الرعية إنما يدل على الإستهانة بمقدراتهم ، ويشير الى سوء الادارة ، والى انعدام الأمن فى تلك الفترة الحرجة من فترات التاريخ المصرى التى يصورها الفلاح فى إحدى شكواه التسعة ، إذ يقول : « سيدى يا كبيرا بين الكبراء كن أبا للفقير وزوجا للأرملة ، أيها القائد ابتعد عن الجشع .. وكن عادلا أنت يا من تعلم بكل مشاكل الناس الا تعلم مظلمتى .. عاقب السارق وقف الى جانب المظلوم .. ولا تكذب فأنت الكبير . والا أصبحت كالبلد الذى ليس له رئيس ، وكالقبيلة بلا زعيم ، أنك متعلم .. ولكنك تتصرف كالآخرين تماما .. » وفى نهاية المطاف يأمر الملك برفع الظلم عن الفلاح وباستعادته لما فقده .

قصص المغامرات :

ومن روائع القصص القديم قصة البحار الذى أشرف على الغرق .ويطلقون عليها تجاوزا قصة البحار الغريق ، وقصة سنوهى ، وقصة الأخوين .

أما قصة البحار (١١) :

فتعتبر أكمل قصة وصلتً الينا وهى مدونة على بردية محفوظة بمتحف الارميتاج بمدينة لينتجراد . ولقد درج العلماء على تسميتها بالبحار الغريق على الرغم من أن البحار صاحب القصة هو الشخص الوحيد الذى نجا من الموت غرقا عندما تحطمت سفينته وهى فى عرض البحر أثر عاصفة هوجاء بعد أن تعلق بقطعة من حطام السفينة ، واخذت الأمواج تتلاعب به حتى قذفه البحر إلى شاطئ إحدى الجزر المجهولة . حيث وجد فيها خيرا كثيرا الا أنه أفاق من أحلامه على رؤية ثعبان ضخم لم تر عين مثله من قبل ، فانخلع قلبه خوفا ومن العجب أن الثعبان توجه الى البحار ، وأخذ يخاطبه بلسان مصرى صميم بطريقة طمأنت البحار الغريب على حياته ومستقبله ، اذ أخذ يسأله عما صادفه من أحداث ثم بدأ من جانبه يحكى له قصته ، ويعد بمساعدته خلال إقامته بالجزيرة ، ويتنبأ له بعودته الى الوطن عندما تصل قريبا إلى

الجزيرة إحدى السفن تحمله إلى أهله ، وفى النهاية تأتى سفينة وتحمل البحار إلى وطنه بعد أن يحمله الثعبان حاكم الجزيرة بعضا من خيراتها والسلام على أهل بيته وذويه . وربما كان المغزى من وراء تشبيه حاكم الجزيرة بالثعبان أن يشبه إحدى المعبودات المصرية ، وهى الحية رنوته إلهة الحصاد عند قدماء المصريين ، والقصة فوق أنها تصور روح المغامرة التى ميزت عصر الدولة الوسطى إلا أنها صيغت أيضا بأسلوب أدبى واضح ، ويرى بعض النقاد المسرحيين أن هناك تشابها دقيقا بين قصة البحار المصرى وبين بعض ما ورد فى الأوديسا لهوميروس عند وصف الأهوال التى لاقاها أديسيوس بطل الملحمة الشعرية وهو فى طريق العودة الى أرض الوطن بعد أن شارك فى تحطيم طروادة مع غيره من أبطال الإغريق دفاعا عن الشرف ، مما أدى إلى القول بأن هوميروس قد تأثر بهذا اللون الأسطورى الملحمى من الأدب المصرى القديم .

وقصة سنوهى :

وترجع الى مستهل عصر الأسرة الثانية عشرة من الدولة الوسطى وهى تبدأ بالحديث عن وفاة الملك أمنمحات الأول عاهل الأسرة الثانية عشرة ، وإعلان الحداد فى العاصمة « أتت تاوى » عند مدخل الفيوم ، وكان سنوهى بوصفه وزيرا يرافق ولى العهد على رأس جيش أرسل لرد غارات القبائل الليبية غربى الدلتا ، ويصل خبر وفاة الملك إلى الأمير ولى العهد فيكتمه عن الجيش المحارب حتى لا يؤثر فى معنوياته ، ويتجه نحو العاصمة ويتسرب الخبر الى سنوهى فيصف حالته حينئذ بقوله « هنالك إضطرب قلبى ، وتراخت يداى ، وارتعدت فرائصى ، فجريت بعيداً ، وخبأت نفسى بين الأعشاب » ذلك أن سنوهى شعر حينذاك بالوحدة بعد وفاة الملك الذى اصطفاه ، فى حين انه لم يكن على وفاق مع الملك الجديد . ويشرع سنوهى فى الهرب من البلاد خوفا على حياته حتى يبلغ أحد الحصون المقامة على الحدود الشرقية للدلتا ، فيختبىء حتى يتمكن من الفرار فى ظلام الليل . وفى الطريق المقفر يقع مغشيا عليه من العطش والإعياء ، ويكتشفه بعض البدو ، ويقدم إليه كبيرهم الماء

والطعام ويأخذه الى دياره ويستمر سنوهى بعد ذلك فى وصف بقية الرحلة فيقول « سرت أرض ترفعنى ...وأرض تخفضنى حتى وصلت الى مدينة جبيل فى فينيقيا » ويحكى كيف أن أحد مشايخ القبائل أغراه بالاقامة عنده بقوله « سوف تجد عندى ما يطيب لك وتسمع عندى أخبار مصر » ويقص سنوهى قصته على شيخ القبيلة وينتهى الى قوله « ولم أعلم إن كان بعض الوشاة وشوا بى عند الملك الجديد ، ولا أدرى ما الذى ساقنى إلى هذه الأرض وكأنما هى إرادة الله » ، ويبالغ الشيخ فى إكرام سنوهى بعد ما رأى من قوته ، وسعة ادراكه وأهميته فيزوجه كبرى بناته (١٢) . ويجعله على رأس أبنائه جميعا ، ويمنحه أرضا شاسعة . وأثناء إقامة سنوهى الطويلة هناك واجهته بعض المحن ، اذ تحداه أحد شبان القبائل للاقتتال وهو يطمع فى ماله وفى مكانته ، ويتعجب سنوهى من وقاحة ذلك الفتى « الذى لم يره من قبل ولم يسبب له أى أذى » ، إلا أن المبارزة انتهت بانتصار سنوهى على غريمه ، عندما أصابه بسهم قاتل . ولما طال به الزمن فى المنفى بعث برسالة الى القصر طامعا فى العفو ، حتى لا يموت فى أرض غريبة فيدفن بطريقة أسيوية بدائية ، ولا تكتب له الحياة الأخرى ، وحينما يتسلم سنوهى قرار العفو يصف مدى فرحته ، ثم يسرع إلى الوطن حيث يخر ساجدا مغشيا عليه فى حضرة الملك . وكانت قصة سنوهى من أشهر القصص الأدبية المتداولة بين طلاب المدارس فى مصر القديمة (١٣) .

أما قصة الأخوين :

التى كتبت باللغة الهيراطيقية الدارجة رغم ما فيها من مأس فإن لها طابع الأساطير ، وجوهرها صراع بين عفة الرجل ورغبة ودهاء المرأة وانتقامها ، فيها بعض من قصة سيدنا يوسف الكنعانى : فهى تبدأ بالحديث عن رجل يدعى « أنوبيس » وامرأته ، وكانا يعيشان فى الريف ، ويعملان فى الزراعة وكان للرجل أخ صغير يدعى « باتا » يعيش معه نظرا لوفاة الوالدين ويعاونه فى أعمال الزراعة وينام فى الحظيرة الى جانب الماشية التى يرعاها ويستطيع أن يتفهم لغتها . وفى يوم من الأيام طلب الأخ الأكبر أنوبيس من باتا أن يعد الثيران والحبوب لكى يخرجا لحرث الأرض ، وبذر

الحبوب . وبعد أن استمروا فى العمل لفترة ، طلب الأخ الأكبر من باتا أن يسارع باحضار كمية أخرى من البذور من البيت ، فهرول إلى الدار قبل أن يحل الظلام وهناك وجد باتا زوجة أخيه تمشط شعرها ، فقال لها اسرعى وأحضرى كمية أخرى من البذور فقالت له « اذهب واحضر ما تشاء فانى مشغولة » حمل باتا حمله الثقيل فاستوقفته زوجة أخيه وبدأت تمتدح قوته ثم راودته عن نفسه ، « فتجهم وجهه من الغضب كنمر من نمور صعيد مصر وقال لها إنك فى منزلة الأم وهو أخى الأكبر وعائلى ، فلا تكررى هذا القول الشرير على مسمعى ، ولن أبوح به لمخلوق » ثم عاد إلى الحقل ومعه البذور واستمر فى العمل مع أخيه وفى المساء قفل أنوبيس الأخ الأكبر راجعا بينما تخلف باتا قليلا مع الماشية ، وفى تلك الأثناء كانت الزوجة قد أعدت نفسها لتمثيلية مختلقة فسكبت على نفسها نوعا من الزيت الملون جعلها تبدو كمن وقع عليها أذى كثيرا ، ورقدت تتوجع ، ولما رآها زوجها على تلك الحالة قالت له هذا من عمل أخيك فثار لعرضه وكمن وراء الباب بسكَين طويل ليقضى على أخيه ، ولكن إحدى البقرات التى كان يرعاها باتا ويعرف لغتها شاهدت أنوبيس من خلف الباب بعدما دخلت الدار إلى الحظيرة فى مقدمة القطيع ، فأسرعت تنبه باتا الذى جرى ينجو بنفسه وأنوبيس فى أثره ، ولكن الآلهة فصلت بينهما بنهر يعج بالتماسيح ووقف كل منهما فى جانب ، وأتيحت الفرصة لباتا فأخبر أخاه بحقيقة ما حدث فيصدم أنوبيس بالحقيقة ويحاول تقديم اعتذاره لأخيه ولكن عبثا .

وعاد أنوبيس الى بيته وقد تملكته رغبة الانتقام من زوجته الخائنة الكذوب فانقض عليها وذبحها ومثل بجثتها .

أما باتا فتوجه الى وادى الأرز وعاش على ما يصطاد من حيوان . الا أن مجمع الآلهة أراد أن يهديه أجمل زوجة لتؤنسه فى وحدته ، ولكن تلك الزيجة كان لها دور خطير فى حياته فيما بعد ، اذ تستمر القصة فتقول : أنه فى يوم من الأيام ألقت تلك الزوجة عفوا بخصلة من شعرها المعطر الجميل فى البحر ، وحمل الموج خصلة الشعر الى مصر ، وإلى مكان يقوم فيه خدم الملك بغسل ملابسه ، وينتقل العطر الى ملابس

الملك الذى يكتشفه ويسأل عن مصدره فيؤتى له بالخصلة ، فيأمر الملك بالبحث عن صاحبة الخصلة ويبعث برجاله إلى وادى الأرز لتنتزع الزوجة من زوجها باتا ، الذى يدافع قدر طاقته عن حماه ولكن عبثا ، اذ تتمكن قوات الملك من أن تعود الى مصر ومعها الزوجة الجميلة وتتقبل المرأة حياتها فى قصر الملك ، ويتزوجها الملك بعد أن اتفقت معه أن يقتل زوجها باتا ، وتبوح له بسر خطير ائتمنها عليه زوجها باتا ، فتطلب من الملك أن يرسل إلى وادى الأرز من يقطع الشجرة التى يخفى باتا سر قوته داخلها وعندما تقطع الشجرة يموت باتا .

وتتحول القصة إلى أسطورة مرة أخرى حينما يتمكن أنوبيس من اعادة قلب أخيه باتا اليه فتعود اليه الحياة ويتحول الى ثور قوى ، وعندما تكتشف الزوجة الخائنة شخصيته تأمر بذبحه ، وتسقط نقطتان من دمه أمام مدخل القصر الملكى ، وتنبت مكانهما شجرتان ، وعندما تجلس الزوجة الخائنة تحت إحداهما تسمع صوت زوجها باتا فترتاع وتطلب من الملك أن يأمر بقطع الشجرتين واستعمال خشبهما فى أعمال النجارة ولكن شظية من خشبهما تدخل فى فمها فتحمل بولد هو باتا نفسه ويكبر الإبن ويعتلى العرش بعد وفاة الملك وينتقم من الزوجة الخائنة ويكافىء أخاه أنوبيس بتعيينه وليا للعهد (١٤) .

ومن أكثر القصص انتشارا لدى المصريين القدماء قصة « الأمير المقدور عليه » (The Foredoomed Prince) التى تتناول حياة إبن وحيد أبويه قدر عليه أن يموت فى شبابه أثر حادث أليم وتنبأ المنجمون أن تنتهى حياته بواسطة تمساح أو لدغة ثعبان سام أو عقرة كلب مسعور ، وحاول الأب أن يجنب إبنه شر المجهول ، فاتخذ حذره حتى كبر إبنه الذى استأذن أباه فى أن يضرب فى الأرض ، وساقته الأقدار إلى بلاد العراق القديم حيث كان ملك له إبنة جميلة جعل صداقها إظهار البطولات الخارقة بأن يقفز عريسها الى شرفة قصرها التى ترتفع عن الأرض ستة وخمسين ذراعا ولم يقدر على ذلك من الأمراء إلا الأمير المصرى ، فتزوج من الأميرة الشرقية التى

أحبته حبا جما ، وسهرت عليه تحاول أن تدفع عنه يد القدر ، ولكن القدر كان أقوى ومات الأمير بعد أن عقره كلب مسعور (١٥) .

الأساطير :

أما الأساطير فتعتبر من أقدم ألوان الأدب المصرى القديم وأسطورة إيزيس وأوزيريس التى أشرنا اليها فى مكان سابق هى واحدة من أروع الأساطير القديمة التى تتناول قصة الصراع بين الشر والخير فى النفس البشرية ، وتكملها أسطورة الصراع بين حورس وست وقصة المحاكمة التى عقدتها الآلهة للفصل فى النزاع . وتحيز البعض لحورس والبعض الآخر لست حيث تضاربت أهواؤهم ، ولم يخل الأمر أحيانا من مهاترات وسباب وخداع ومنازلات بين الآلهة (١٦) وتؤخذ الأصوات ويبعث كبير الآلهة آتون (الكامل) إلى المعبودة نيت (أم الإله) يسألها الرأى : ماذا نحن فاعلون بأمر هذين الرجلين (حورس وست) اللذين وقفا فى ساحة القضاء مدة ثمانين عاما ولم يستطيع أحد أن يفصل فى أمرهما .

وعندما يصل رد المعبودة « نيت » بإسناد العرش لحورس يهلل بعض الآلهة فيرد عليهم الإله الأكبر : موجها كلامه لحورس « إن جسمك لضعيف وهذا المنصب كبير عليك ، ماذا تنوى أن تفعل به أيها الطفل الصغير » فينبرى أحد الآلهة موجها كلامه للإله الأكبر : « ماذا تقول أنت يا من هجره عباده » فيقف الآلهة أعضاء المجمع المقدس يعترضون على تطاول ذلك الإله قائلين : « أخرج من هنا فجرمك كبير » .

ثم يكتب الآلهة لأوزيريس يطلبون رأيه فينحاز أوزيريس الى جانب إبنه حورس كما كان متوقعا ، ويأخذ الآلهة برأى أوزيريس ويتوج حورس ملكا على مصر .

وهكذا يتبين لنا من خلال الأسطورة كيف يجعل المصرى القديم عالم الآلهة صورة مطابقة لما يحدث بين البشر .

الأغانى :

وصلت الينا من أيام الدولة الحديثة أمثلة فريدة من أغانى الحب والغزل فى شكل أشعار رائعة يصف فيها الحبيب حسن محبوبته وما يلقاه من عذاب هجرها ، ثم هو يمنى نفسه بلقياها ويصف جمال اللقاء . وفى أغنية أخرى تتغنى الفتاة بحب فتاها الذى يسكن بجوارها ، ولكنها لا تستطيع أن تلقاه حتى لا تغضب أمها ، وعندما يصل اليها صوته من بعيد تصف آلامها ولوعتها وتكاد تجن من شدة شوقها اليه ، ثم هى تخاف أن يكون محبوبها لا يعلم ، والا لكان طلبها من أمها ، وأخيرا تتوجه بالدعاء الى ربة الحب أن تقف معها حتى تنال ما تتمنى (١٧) .

وفى أغنية ثالثة . يفكر الفتى فى طريقة تجمعه بمحبوبته فهل يتمارض لعلها تحضر اليه لتعوده ولم لا وهى بلسم جراحه ، أم يخرج للصيد وهناك فى الخلاء يسعد بمحبوبته وينسى الصيد والقنص ويكتفى بلقاء المحبوبة ، فاذا ما سألته أمه عندما يعود بدون صيد فلسوف يقول لها أن حبه قد ملك عليه فؤاده . أم هل يصبح جارية من جوارى المحبوبة حتى يكون دائما بالقرب منها أو حارسا على بابها . غير ذلك من خيالات المحبين .

وكان يتغنى بتلك الأغانى فى المناسبات بمصاحبة الآلات الموسيقية التى ظهرت بين آثار المصريين منذ أقدم عصورهم كالقيثارة والمزمار والربابة والعود والدف ، كما كان التصفيق بالأيدى لضبط الإيقاع معروفا وأحيانا أخرى استعملت قطع خاصة من الخشب أو العاج للتصفيق ، وفى حفلات الأغنياء كان يؤتى بالراقصات الرشيقات ليرقصن شبه عرايا أمام الضيوف وبمصاحبة الغناء والموسيقى .

الصور الهزلية :

ومما هو جدير بالذكر أن المصريين قد خصصوا معبودا للمرح والطرب والموسيقى والغناء ضمن ما عبدوه من الآلهة وهو المعبود بس Bẹs . وفى متحف تورينو بإيطاليا بردية من عصر الرعامسة المتأخر ، صور الفنان فيها بطريقة ساخرة معارك

هزلية بين القطط وبين الفيران . أو يصور فرس النهر بحجمه الضخم وقد اختبأ بين أغصان الشجر بينما يصعد إليه النمر على سلم من الخشب . ثم إذا الفنان يؤلف أشد الفرق الموسيقية الغنائية غرابة فيجعل الحمار هو المطرب المغنى ويضع في يده قيثارة ، إمعانا فى السخرية ويجعل من الأسد ضارب عود ومن التمساح لاعب ربابة وإذا بالقرد يمسك بمزمار مزدوج . وفى نفس البردية يجعل الفنان من القط راعيا لقطيع من الأوز فى سخرية من الأوضاع الاجتماعية التى ساءت فى أواخر أيام الدولة الحديثة .

الفصل العاشر

نبذة اقتصادية

الملكيات الخاصة :

وفى عصر الملك رمسيس الثانى وثيقة توضح مثالا لتوريث الأراضى مئات من السنين طبقا لوثائق يحتفظ بها مالكوها : ففى مقبرة رجل يدعى « مسو» نقش يقول فيه صاحب المقبرة أن أملاكه الزراعية قد ورثها عن أبيه ، وأن تلك الأراضى كانت قد منحت لأجداده منذ زمن الملك أحمس ، أى منذ حوالى ٣٠٠ سنة مضت .

ومنذ عصر الأسرة الثانية عشرة وحتى الأسرة الثامنة عشرة نجد أن الملكيات الخاصة كانت تصادر ، وبهذه الطريقة اختفت ملكيات منطقة منف بعد عصر الانتقال الأول (العصر الوسيط الأول) . وعندنا الدليل على ذلك من إحدى مقابر بنى حسن (محافظة المنيا) اذ يخبرنا أحد أفراد العائلات الجديدة التى أتى بها ملوك الأسرة الثانية عشرة أن الملك أمنمحات الثالث قد أعطى حدوداً جديدة للمقاطعات ووزعها على الأسر الجديدة .

ولدينا دليل آخر من مقابر مير (أسيوط) وبنى حسين والبرشا (المنيا) . اذ نجد أسرا جديدة لم تكن معروفة زمن الدولة القديمة قد بدأت تظهر . وكانت الأسر تفقد ممتلكاتها وأوقاف المقابر أيضا بهذا التغيير الجديد ، فلم تكن الخسارة مقصورة على الأراضى الزراعية فقط ، بل كانت تشمل المقابر أيضا . وهكذا بدأت أوقاف المعابد أيضا تتأثر بالتغيير فى النظام السياسى ، فنرى الملك تحوتمس الثالث يلغى مواثيق الملكة حتشبسوت ويمحوها من على الآثار .

أوقاف المعابد :

ومن المؤسف أننا لا نعرف حدود أوقاف المعابد . وفى معبد إدفو هناك قائمة بأوقاف هذا المعبد . وفى عهد الملك نختانبو الثانى (حوالى عام ٣٤٠ ق.م.) يذكر أن معبد إدفو كان وحده يمتلك ما يقارب ٢ / ١ر٣٦ك.م٢ وكانت تقع كلها فى المقاطعات الجنوبية لمصر العليا ، وجنوبى طيبة .

وهناك بردية ، تتحدث عن المنح الملكية الممنوحة فى زمن الملك رمسيس الثالث لمعابد مصر ، ومنها معابد طيبة وهليوبوليس ومنف ، وكانت تلك المنح مخصصة للإصلاحات والصيانة الروتينية ، وكانت لا تخصص لمعابد قديمة بنيت قبل عهد رمسيس الثالث ، وهكذا نلاحظ ان الملك منح حوالى عشر الأراضى المزروعة فى مصر كلها منحا للمعابد .

وإذا نظرنا إلى المساحة السابقة ، وإلى عادة الملوك الأقدمين فيما يتعلق بوقف الأراضى الزراعية على المعابد . فأننا نخرج بمبدأ خطير . إذ سيأتى يوم تبعا لذلك تكون فيه جميع أراضى مصر المزروعة وقفا على المعابد ، ولا يبقى للسكان ما يملكونه . ولكن التفسير الصحيح والواقعى أن كل ملك جديد لم يكن يمنح منحاً جديدة ، ولكننا نعتقد أن الملوك كانوا يأخذون الأوقاف القديمة ثم يمنحونها على أنها منح جديدة منهم .

حياة الفلاح :

وكانت حياة الفلاحين على ما يبدو شاقة ، ونعرف ذلك من بعض كتابات على ورق البردى . وكانت على ما يظهر كتابات طلاب المدارس وفيها موضوعات عن حياة الفلاح وما يصيبه من عنت وإرهاق ، وفي آخر الأمر لا يجد ما يسد رمقه : « ألاتتذكرون كيف يكون المزارعون عندما يسجل المحصول » ... « الدودة تلتهم نصف المحصول ، وعجل البحر يأكل النصف الآخر » . وهناك كثير من الفئران فى المحصول ، والجراد ينتشر ، والقطعان تأكله والطيور تأتى على البقية ، فوا أسفاه على

الفلاح ، وما تبقى بعد ذلك يوضع فى الجرن ويسرقه اللصوص ، والماشية تموت من كثرة التعب . ومن العمل الشاق . وفى تلك اللحظة يأتى الكتبة ويحصلون الضرائب ومعهم النوبيون يحملون العصى . فيضربون الممتنع عن الدفع . فهم يقولون له هات المحصول فيقول لهم لم يبق شئ . حينئذ يجلدونه ويرمى فى الترعة ، وزوجته تربط فى السلاسل . ويقف الجيران يتأسفون عليه ، وينظرون الى محاصيلهم ببأس » .

واذا ما نظرنا الى ذلك التصوير لحياة الفلاح فأننا نفهم أن حياته كانت سيئة ، ولكن ينبغى ألا نأخذ هذا التصوير لحياة الفلاح مقياسا لمعرفة حياته ، إذ أن تلك الموضوعات كانت تكتب عادة للطلاب لتزهدهم فى حياة الزراعة وترغبهم فى حياة العلم .

وهناك مثال آخر لتلك المبالغة فى التصوير نتبين منه أن هؤلاء الموظفين الذين يأتون إلى القرى لجمع الضرائب أو لتقديرها أو لأى عمل رسمى كان على أهل القرى أن يدبروا احتياجات هؤلاء الموظفين من إقامة وإطعام وغيرها . ويبدو أن تلك العادة كانت تقليدا قديما ، عندما كان الملك فى الزمن القديم يطوف للإشراف على سير الحياة العامة ومعه حاشيته . وفى تلك الحالة كان الفلاحون يرحبون بهم ويقدمون لهم ما يحتاجون إليه . من رجال لمساعدتهم فى القيام بأعمالهم . وفى زمن الملك حور محب نقش بمعبد الكرنك يذكر فيه أنه أمر بإنهاء تلك الفوضى .

ومن عهد الملك مرنبتاح بن رمسيس الثانى خطاب موجه من موظف إلى سيده يخبره فيه أن مستأجرى أرض فرعون الذين يشرف عليهم قد فروا ، ومن ذلك نرى أن الفلاحين أنفسهم بدأوا يضيقون بهذا الإلزام الذى يفرض عليهم ويتركون الأرض ، وفى الدولة الحديثة بدأ كثير من الفلاحين التخلص من عبء الأرض بالإنطواء تحت لواء سيد كبير يحتمون فى ظله ، ويقنعون بالحياة تحت لوائه نظير إطعامهم ، وليس أدل على ذلك من أننا نرى فى أواخر عهد الرعامسة أن حياة العبيد كانت أحسن حالا من حياة الفلاح الصغير الذى يمتلك أرضا .

ومن عهد الإقطاع فى فترة الانتقال الأولى هناك قول لأحد الحكماء :

« لقد أصبحت الأرض الزراعية قليلة ، ولكن الموظفين كثيرون . والأرض عارية والضرائب كثيرة والمحاصيل قليلة . ومقياس الضرائب كبير ، وتوزيع الضرائب غير عادل » .

ومن الوثائق نعلم أن الناس كانوا يكرهون أن يبعثوا فلاحين فى العالم الآخر ، فلا نجد أحدهم يتمنى أن يكون فلاحا فى العالم الآخر .

وفكرة عمل تماثيل المجاوبين ووضعها مع الميت فى قبره قصد منها أن تقوم بالعمل مقام صاحبها فى مزارع الإله أوزيريس فى العالم الآخر ، وذلك عندما ينادى عليها الإله فتجيب ، ولذلك سميت بتماثيل المجاوبين . وكانت تزود بالفؤوس والزكائب والجرار اللازمة للعمل . وكانت لكل مجموعة رئيس وقد يكون عددها ٣٥٠ تمثالا أو بعدد أيام السنة .

الحدائق وأنواعها :

كانت الحدائق ملحقة بمنازل الطبقة الغنية . كما أنها لم تكن وقفا على المنزل فقط ، ولكننا نراها ببعض المقابر حيث تلحق بها حديقة تزرع بمختلف الأشجار حتى إذا ما هبطت روح الميت من عالم السماء فإنها تجد مهبطا يبعث فى النفس الرضى .

ومع أن المقابر كانت تقام فى أطراف الصحراء عادة وخاصة فى الصعيد إلا أن الحدائق كانت تزرع أمام بعضها . وأوضح مثال لذلك فى معبد ومقبرة الملكة حتشبسوت بالدير البحرى بطيبة الغربية نجد أشجار البخور التى زرعت للملكة أمام معبدها ومقبرتها ، والتى مازالت آثارها وبقاياها موجودة حتى اليوم . وكانت الحدائق عموما مكانا للتسلية ولترديد الأغانى الجميلة . وإقامة الولائم وتعتبر مقبرة رجل الدولة القديمة « المدعو متن » أول مقبرة يذكر على جدرانها شىء عن الحدائق ، فصاحب المقبرة يقول فى نقوشه أنه صنع لنفسه حديقة مساحتها ١٠٤ أمتار مربعة ، وغرسها بمختلف الأشجار من عنب وتين ونخيل .. إلخ . كما أنه عمل فيها بحيرة جميلة . ولم

تكن الحدائق معفاة من الضرائب ، إذ كان يفرض عليها الضرائب كبقية الأراضى الزراعية ، وأرض مصر أخشابها نادرة لذلك كان لا يسمح بقطع الأشجار إلا باذن الوزير . ولم تكن الحدائق تقتصر وظيفتها على الزينة فقط ، ولكنها كانت موردا هاما للفاكهة والخضر . والمهندس إنينى الذى عاش فى عهد الملكين أمنحتب الأول وتحوتمس الأول يقول أنه خطط حديقة وزرع فيها من الأشجار عشرين صنفا مثل النخيل ، والدوم ، والجميز والخروب والتمر الهندى والنبق والرمان وغيرها من الأشجار المثمرة ولكننا غير متأكدين من أنواعها .

وفى الدولة الحديثة استحضرت أنواع كثيرة من الأشجار إلى مصر . فقد استوردت الملكة حتشبسوت إحدى وثلاثين شجرة بخور لتزرع فى الدير البحرى فى رحاب آمون . وكانت آمار هذه الاشجار تعصر ويستخرج منها الروائح العطرية . وكان العنب من أهم منتجات الحدائق الملكية ، وقد عرف من المقابر الملكية فى أبيدوس من العصر العتيق . وفى معبد سيتى الأول ورمسيس الثانى فى أبيدوس نرى الملك واقفا يقدم قربانا لإله الجبانة الخاص بسقارة ، وهو عبارة عن نوع من النبيذ المستخرج من العنب .

وقد عرفت أول أشارة عن زراعة العنب من عهد الملك زوسر ، حيث عثر من عصر ذلك الملك على إناء مقفل ومختوم بختم الملك ويحتوى على النبيذ ، وهو نوع من نبيذ الواحات الخارجة والداخلة . وفى عهد الرومان ذكر أن أجود أنواع النبيذ كان يأتى من منطقة مريوط ومن السويس ، ومن فاقوس وصان الحجر ومن قلعة القنطرة ومن تل الفراعين المقاطعة ١٩ بالدلتا . وفى عهد الرعامسة وخاصة رمسيس الثانى أقام مدينة جديدة فى شرق الدلتا هى بررعمسو ومن حول تلك المدينة كان يأتى نوع من النبيذ الجيد ، ويذكر أن تلك المدينة الجديدة زرعت بجميع النباتات الموجودة فى الدلتا والصعيد . وخاصة الأشجار التى تنتج الزيوت .

وفى الدولة الحديثة عرفنا أن أوانى النبيذ كانت تختم ليس فقط باسم النبيذ ولكن أيضا بتاريخ حكم الملك وكذلك باسم منتجها ، وفى قصر أخناتون فى تل

العمارنة عثر على عدة قدور من هذا النوع مختومة بتاريخ حكم الملك .

وفى زمن الدولة القديمة لم يكن النبيذ يشرب يوميا ، ولكنه كان يقدم فى الأعياد . وكان النبيذ يزرع فى تكعيبات مثلما يزرع الآن . أما طريقة عمل النبيذ فكانت كالآتى : يأخذون العنب ويضعونه فى مكان خاص ثم يهرسونه بأرجلهم ، ثم يؤخذ ويوضع فى قطعة قماش ويعصر فينزل العصير ، ثم يوضع فى أوان ويحكم عليه الغطاء ، ويترك حتى يتخمر ويصبح كحولا . ولم يكن النبيذ يستخرج من العنب فقط ولكنه كان يستخرج أيضا من التين .

العمال اليدويون :

كانت طائفة العمال اليدويين تشكل أكبر المجموعات الحرفية فى بناء المجتمع المصرى القديم إلى جانب طوائف الموظفين والكهنة والعمال الزراعيين والجنود ، والواقع أنه منذ العصر الباكر تقابلنا مناظر العمال على الآثار ، ولكنها ظهرت بشكل واضح فى نهاية الأسرة الرابعة مصورة على جدران المقابر فى الجيزة وسقارة وغيرهما . حيث يتضح أن العمل كان جماعيا ، ومقسما إلى مجموعة عمليات ، يقوم بكل عملية عامل متخصص ، فمثلا عمليات تصنيع الجلود فى مقبرة رخميرع ، مقسمة إلى أقسام ، كل قسم مختص بعملية واحدة يقوم بها عامل واحد . وأعمال النجارة ، هناك صانع المناضد ، وصانع الصوان ثم أخيرا من يقم بتلميع الأثاث ، وكذلك الحال بالنسبة للصناعات المعدنية وغيرها . وإذا ما تتبعنا صناعة التماثيل نجد أنها كانت تمر بمراحل عدة . حيث يقوم بكل عملية منها عامل متخصص فى حرفته ، مثل قاطع كتلة الحجر بالمطرقة ، ثم الصانع الذى يعمل فيها بالأزميل ليعطى للتمثال شكله المميز ، وأخيرا من يقوم بتلميع التمثال كمرحلة نهائية . ومن ذلك يتبين أن القطعة الفنية لم يكن يقوم بها عادة فنان واحد ، بل يشترك فيها مجموعة من الفنانين يعتمد كل منهم فى عمله على الآخر ، ويشرف عليهم رئيس المجموعة ، ثم المشرف العام على الأعمال . بحيث لا يمكن فى النهاية القول بأن هذه اللوحة أو هذا التمثال من عمل فنان أو صانع بعينه . ومن ألقاب هذه الطائفة من العمال يتضح أن أفرادها كانوا

فى الغالب يتبعون القصر الملكى ، أو الجبانة الملكية أو المعابد المختلفة أو كبار رجال الدولة . وحين تخف قبضة الدولة ، كان الصانع أحيانا يقوم بإنجاز عمل خاص محدد فى وقت فراغه من العمل الرسمى ، لمن يطلب منه من الأفراد ، مقابل أجر معلوم ، فى شكل أقمشة أو قطع نحاسية أو مواد تموينية . وقد حظى كل من النحات (صانع التماثيل) والرسام بتقدير خاص من صاحب العمل سواء كان الملك أو أحد رجال الدولة ، ربما لأن عمله متصل بالمعتقدات الدينية . وكان العمال الحرفيون يقومون بالعمل فى موقع البناء نفسه ، كعمال منطقة دير المدينة بالنسبة لعملهم فى وادى الملوك وفى المعابد الجنائزية . وعمال منطقة الأهرامات سواء فى جبانة الدولة القديمة فى منف أو فى مطلع واحة الفيوم فى جبانة الدولة الوسطى ، وربما إحتاج العمل لهؤلاء العمال فى المحاجر نفسها . وأحيانا أخرى كان للعمال الحرفيين ورشة ملحقة بالقصر أو المعبد ، أو ربما كانت تلحق بالمسكن أيضا .

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

الفصل الحادى عشر

الغزو الفكرى المصرى
للعالم الغربى القديم

عندما فتح الاسكندر الأكبر مصر وتحولت إلى مملكة بطلمية ، شعر ملوكها بعظمة المعتقدات المصرية وأصالتها ورسوخها ، فحاولوا التقريب بين الإغريق المستوطنين والمصريين فى مضمار العقائد الدينية فاختاروا ثالوثا إلهيا يتكون من أوزيريس وإيزيس وحورس ليعبده كل من المصريين والإغريق كل حسب هواه .

وهكذا عرف الإغريق إيزيس ، وأعجبوا بها ، وأصبح لها أتباع فى بلاد اليونان ، وفى العصر الرومانى انتشرت عبادة إيزيس انتشارا كبيرا ، عندما شعر الرومان بالحاجة الملحة إلى دين جديد ، يملأ فراغهم الدينى .

كان الامبراطور الرومانى تيتوس ابن الامبراطور فسبسيانوس محبا للعقائد المصرية ، وأظهر احتراما زائدا لتلك العقائد ، ولعل موقفه هذا يعتبر نقطة تحول فى سياسة الرومان تجاه العقائد المصرية عموما . أما عبادة إيزيس فانتقلت من مصر إلى روما منذ القرن الثانى ق.م. وربما قبيل ذلك التاريخ بوساطة الإغريق الذين وفدوا إلى عاصمة الامبراطورية الرومانية من مصر . وربما انتقلت عبادة إيزيس أيضا بواسطة إغريق المناطق التى خضعت لسيطرة الإغريق فى شمال افريقية ، أو إغريق جزر البحر المتوسط . أو بوساطة إغريق استوطنوا جنوبى شبه جزيرة إيطاليا . والملاحظ عموما أن معظم من اعتنق تلك العقيدة المصرية داخل « شبة الجزيرة الإيطالية » كانوا أجانب أو من العبيد ، بالإضافة إلى عدد من فقراء اليونان . إلا أننا عثرنا على بعض الاستثناءات ، حيث اعتنق مذهب إيزيس بعض سيدات الطبقة الأرستقراطية . وازداد أتباع تلك العقيدة ، وهناك تسرب الشك إلى المسئولين فى الحكومة الرومانية من نشاط تلك المجموعة من عباد إيزيس .

وفى سنة ١٦٨ ق.م. صدر أمر بهدم معابد إيزيس ومعابد سيرابيس المقامة فى روما إلا أن السلطات سمحت لأتباع إيزيس بأن يمارسوا شعائرهم الدينية خارج أسوار مدينة روما ، وبعد فترة من الزمن زاد نشاط اتباع تلك العقيدة ، وعلى أيام الدكتاتور سولا كونوا جمعيات دينية خارج المدينة ولم يتعرض لهم أحد. الا أن ديانة إيزيس أصيبت بضربة شديدة بعد وفاة سولا ، واستمرت طوال فترة الاضطرابات التى قامت من عهد سولا الى أيام يوليوس قيصر سنة ٤٧ ق.م. وفى حقيقة الأمر لوحظ أن عبادة إيزيس قد نالها الكثير من الاهتمام نتيجة لعلاقة الملكة كليوباترة السابعة أو الأخيرة بالدكتاتور « يوليوس قيصر » . ويعتقد البعض أن هناك علاقة بين انتشار مذهب إيزيس وبين حقيقة أن يوليوس قيصر كان زعيم الحزب الديمقراطى الشعبى الذى تألف معظمه من الطبقات الدنيا ، وهى نفس الطبقات التى عبدت إيزيس .

ولا شك فى أن عبادة إيزيس اصابها الكثير من الضرر عندما أعلنت روما الحرب على كليوباترة ، أيام الصراع الذى نشب بين أكتافيوس وأنطونيوس وحدثت موجة من العداء ضد الملكة ، وضد الألهة المصرية عموما وعلى رأسها إيزيس ، فقد جمع الرومان بين كليوباترة وبين إيزيس لأنها كانت تظهر كثيرا فى زى إيزيس . ووضح ذلك العداء فى أشعار الهجاء التى نظمها الشعراء الرومان . وكان من نتيجة ذلك الموقف السياسى صدور قرار سنة ٢٨ ق.م. يحرم عبادة الآلهه المصرية داخل روما بعد انتصار أكتافيوس . ولما شعر أتباع إيزيس أن الفرصة مناسبة سنة ٢١ ق.م. أثناء الاضطرابات التى قامت فى روما ، وهى نفس الفترة التى اضطر فيها أغسطس إلى التغيب فى الشرق ، دخلوا العاصمة روما ، ولذلك صدر قرار آخر يحرم عبادة إيزيس حول منطقة روما .

وفى أيام الامبراطور تبريوس (١٤ / ٢٧م) ازدادت حدة الاضطرابات ، وكثر اضطهاد تلك الجماعة ، إذ صدر قرار من السناتو سنة ١٩م حرمت فيه كل العبادات المصرية واليهودية فى إيطاليا كلها ، على أن يطرد كل أتباع تلك العقائد الدينية الأجنبية خارج ايطاليا اذا لم يرتدوا عن عقائدهم .

وفى زمن كاليجولا ٢٧ / ٤١م زاد نفوذ أتباع إيزيس وأصبح لإيزيس سابق نفوذها ، عندما أعاد ذلك الامبراطور بناء معبدها ، وكان الامبراطور ميالا نحو العقائد الشرقية مغرما بطقوسها ، ولعله وجد فى الديانة المصرية سندا يرتكز عليه فى نظرته إلى مسألة تأليه شخصه . ومن هنا يرجح بعض المؤرخين أن الاعتراف الرسمى بعبادة إيزيس صدر من الامبراطور كاليجولا . وفى زمن الامبراطور كلاوديوس (٤١ ــ ٥٤م) الذى خلف كاليجولا لم تتعرض عبادة إيزيس للاضطهاد ، مع العلم بأن هناك رواية تقول أن كلاوديوس أمر بطرد اليهود من روما عندما تسببوا فى كثير من الاضطرابات ، ويذكر المؤرخ صاحب تلك الرواية أن تلك الاضطرابات كانت قد نشأت من تأثير مبادىء المدعو (خرستوس) عليه السلام وبهذه المناسبة يذكر المؤرخ تاكيتوس فى حولياته إسم السيد المسيح خريستيوس صحيحا فيقول : « إنه قد أعدم على يد حاكم أرض يهوذا المدعى بنتوس بيلاتوس وهو الحاكم الرومانى فى زمن الامبراطور تبريوس » (١٤ ــ ٢٧م) .

أما زمن الامبراطور كلاوديوس فلم تتعرض عبادة إيزيس كما سبق أن ذكرنا للاضطهاد فهناك نقش من أيام كلاوديوس يسجل عودة عبادة إيزيس إلى سابق مجدها بعد أن كانت محرمة فى زمن تبريوس .

وكان بلاط الامبراطور نيرون (٥٤ ــ ٦٨م) واقعا تحت تأثير أشخاص لهم ميول مصرية ، وثبت أيضا أن زوجة نيرون كانت تتشبه بإيزيس وبعد وفاتها حفظت جثتها حسب التقاليد المصرية . ولا ننسى ــ والمعروف ــ أن نيرون نفسه كان قد توسل فى أواخر أيامه إلى أن يعين واليا على مصر . ولعل ذلك يوضح السبب فى عدم اعتراضه على العقائد المصرية .

وكان الامبراطور أتو من أنصار إيزيس ، وكان يمارس تلك العقيدة علنا ، وبلغ من نفوذ عقيدة إيزيس أن أصبح أصحابها يمارسون شعائرهم .

وذكر المؤرخون ومنهم تاكيتوس أن ابن الامبراطور فسباسيانوس المدعو دوميتيان اضطر للاحتماء بالكابيتول أثناء الحرب الأهلية سنة ٦٩م وقضى الليل مختبئا هناك ،

إلى أن أضحى النهار ، فتزى فى زى أحد أتباع إيزيس ، وفر من العاصمة . وعندما تولى دوميتيان العرش حاول أن يرد الجميل لإيزيس ولأتباعها ، فاعترف بتلك العقيدة اعترافا شبه رسمى . وكانت تلك الدوافع خاصة لدى الامبراطور وهى لا يمكن أن تمثل اتجاه الشعب الرومانى نحو الآلهة المصرية عموما . وسبق لإيزيس أن تمتعت بالحرية أيام فسبسيان أيضا ، حيث ورد أن أحد المواطنين فى جنوب إيطاليا قام ببناء معبد لإيزيس بمناسبة عودة الامبراطور من إحدى الحروب ، وأقام أمام ذلك المعبد مسلتين على الطراز المصرى عليهما وصف لإيزيس .

وهكذا نرى غزوا فكريا مصريا لعالم الغرب ، فى مواجهة موجات الغزو العسكرى والاحتلال المادى لشعوب الشرق .

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

الفصل الثانى عشر

تأثير الحضارة المصرية القديمة
على حضارات أفريقيا

هيأت الظروف الملائمة والموقع الجغرافى الممتاز لسكان مصر فى عصورها الموغلة فى القدم أن يسرعوا الخطى على طريق الحضارة ، وكانت النتيجة أن أخذت الحياة تنتقل بهم من أحد أنماط العصور الحجرية إلى النمط الأكثر تقدما ، وذلك فى زمن كان فيه معظم جيرانهم فى الجنوب والغرب لم يستقر بهم المقام لإظهار أول إنتاجهم الحضارى بعد .

وأخذت المراكز الحضارية تنتشر فى طول مصر وعرضها فى الدلتا وعلى طول الوادى وعلى حافة الصحراء وفى واحة الفيوم الخصبة ، والشيء الذى لا يختلف فيه المؤرخون أن سكان الدلتا سبقوا أهل الصعيد فى تكوين حضارتهم ، بل أنهم سبقوهم أيضا فى تكوين الدولة بما يعنى ابتكار كل عناصر الحضارة ، مما جعلهم فى النهاية يشعرون لأنفسهم بالقدرة على خوض معارك الوحدة لضم الصعيد تحت لوائهم ، وكانت الوحدة الأولى فى تاريخ إفريقيا ، ولقد أيدتها غير المصادر الأدبية مصادر تاريخية أخرى كلها تشير إلى أن مدينة هليوبوليس كانت مركز ذلك الاتحاد ، وحتى بعد أن انفرط عقد ذلك الاتحاد ونجاح أهل الصعيد هذه المرة فى فرض الوحدة اقتبس الملوك الجدد الكثير من نظم الحكم والإدارة التى كانت من صنع أهل الدلتا ، وظهر تفوقهم واضحا ممثلا فى نشاط كهنة الشمس فى هليوبوليس عاصمة الاتحاد الأول قبل نعرمر منذ أيام الأسرتين الأولى والثانية ، بل أن هناك بعض الآراء التى تقول بأن المهندس أيمحوتب الذى كان يعتبر الرجل الثانى بعد الملك زوسر والذى صمم ونفذ عمارة الهرم المدرج بمشتملاته فى سقارة كان من أهل الدلتا متأثرا بعقيدة الشمس .

والذى نريد أن نخرج به من وراء ذلك هو أن انتشار عناصر الحضارة المتقدمة بدأ من الشمال إلى الجنوب وإلى الغرب أيضا حيث واحة الفيوم متخذا الطريق الرئيسى

وهو النيل . وقبل أن تستقر الأمور فى مصر بالوحدة الثانية على يد نعرمر هناك الكثير من الشواهد التى تدل على بدء انتشار عناصر الحضارة درجة أخرى إلى الجنوب أى النوبة ، فالمخلفات الحضارية التى عثر عليها فى مقابر أهل النوبة من ذلك الزمن تشير إلى وجود صلات حضارية منتظمة ، فصناعات أهل مصر اليدوية عثر عليها بين مخلفات أهل النوبة ، هذا بالإضافة إلى ما قيل عن وحدة العنصر البشرى المكون لحضارة مصر والنوبة فى ذلك الوقت ، مما يؤكد وجود الصلات بين مصر وبين النوبة وربما يؤكد أيضا انتقال العنصر البشرى بما يحمل من عقائد وأفكار وتقاليد من مصر إلى النوبة .

وثبت من مقارنة حضارة العصر الحجرى الحديث فى كل من الفيوم وهى أقدم حضارات العصر الحجرى الحديث فى مصر وفى الخرطوم وجود تشابه لافت للنظر بين الحضارة المصرية والحضارة السودانية بينهما مسافة تزيد على الألف ميل وذلك فى العصر الحجرى الحديث .

كما تدل دراسة مخلفات أصحاب حضارة المجموعة الأولى فى النوبة (٣٢٠٠ ــ ٢٦٨٠ ق.م.) على استمرار الصلة بينها وبين الأسرة الأولى المصرية . ولعل أبرز دليل على ذلك هو ظهور المحاولات الأولى لصنع المنحوتات بين أصحاب تلك الحضارة فى ذلك الوقت المبكر .

ومن زمن الأسرة الأولى أيام الملك « جر » أثر كان منحوتا على صخور جبل الشيخ سليمان غربى النيل عند كور إلى الجنوب من بوهين وتم قطعه من الجبل ونقله إلى متحف الخرطوم ، والرسم رغم بساطته وكونه يعد نموذجا للمحاولات الأولى للتسجيل بالرمز الذى يكاد يقرب من الكتابة فى أول أطوارها يصور موقعة حربية بين جنود الملك « جر » وبين أهالى المنطقة فى مكان الجنادل حيث الملاحة الصعبة ، وربما يعنى ذلك أن قتالا قد دار فى النهر ونتج عنه إخضاع ثوار فى مدينتين فى منطقة الجنادل ، ومعنى ذلك أن عهد المصريين بارتياد بلاد النوبة يرجع إلى أواخر أيام الأسرة الأولى ، ثم أن معنى وجود مدينتين هناك بالمعنى المفهوم من النص المذكور هو أن

هذه البلاد.كانت قد تأثرت إلى حد كبير بحضارة الشمال فى ذلك الزمن السحيق ، وأن المصريين ربما كانوا قد أقاموا فى تلك البلاد مدننا لعمال المناجم .

ومما هو جدير بالذكر أن أحدث الأبحاث فى منطقة بوهين قد كشفت عن وجود مدينة سكنية كبيرة محصنة خصصت للعمال المصريين ومعهم عدد قليل من أهل المنطقة ، ينتمون إلى مجموعة حضارية فى بوهين وكانوا يعملون فى استخلاص معدن النحاس ، وتشير الكثير من الدلائل إلى أن تلك المدينة يرجع تأسيسها إلى العصر العتيق .

ولا جدال فى أن وجود مثل هذا المركز الهام بالقرب من قلب افريقيا له أثر كبير فى تطوير شعوب القارة ، وفى رأيى أن موضوع تبادل العلاقات بين مصر وبين بلاد النوبة وسودان وادى النيل أيام العصر العتيق يستحق الكثير من البحث والجرأة فى استخلاص النتائج ، فمثلا هناك أثر للملك خع سخم من الأسرة الثانية يسجل بطريقة رمزية انتصارا على أهل النوبة ، وهناك أشير إلى اسم تلك البلاد بالعلامة المتعارف عليها طوال التاريخ المصرى القديم وهى « تاستى » فى شكل واضح ليس فيه تردد المبتدئين مما يدل على معرفة سابقة بمدلولها ، ولو أخذنا فى الاعتبار العديد من الشواهد السالفة الذكر ، لما أصبح هناك مجال للتردد ، فى حقيقة أن المصريين ، وعلى الأخص فى النصف الثانى من العصر العتيق ــ قد ارتادوا تلك البقاع وعرفوها سواء للتجارة أو عند صد الغارات ، ويبدو ذلك بشكل واضح خلال التاريخ الطويل للأسرتين الأولى والثانية ، فالمتعارف عليه أن العصر العتيق قد دام نحو أربعمائة وخمسين عاما ، بل أن بعض المؤرخين يقدرها بحوالى خمسة قرون ونصف قرن وهى فترة كافية بلا شك لرسوخ أقدام الحضارة المصرية التى مرت قبل ذلك بتجارب رائدة ، ثم لوصولها إلى أقاليم النوبة فى هذا الوقت المبكر حيث أصبحت فى مكان أقرب نسبيا وجعل مهمة انتشارها أقل صعوبة .

وسجل الملك سنفرو ضمن حولياته على حجر بالرمو أنباء قيامه بحملة قوية ضد سكان النوبة الذين سماهم نحسيو وكان يعنى بها كل القبائل التى تسكن جنوبى

مصر ، ومن الأرقام الضخمة للأسرى بالإضافة إلى الغنائم الكثيرة يتضح أن مناطق النوبة كانت زاخرة بالسكان فى ذلك الوقت ، ولعل أهل النوبة وشمال سودان وادى النيل قد تحينوا فرصة انتقال الحكم فى مصر من أسرة إلى أخرى وحاولوا الاستيلاء على المؤسسات المصرية التى أقيمت قبل ذلك للمساهمة فى استمرار العمل فى المناجم والمحاجر وفى سهولة انتقال التجارة بين مصر والسودان ، وهكذا استمر الطريق الرئيسى لانتقال الحضارة من الشمال الى الجنوب مفتوحا طوال أيام الدولة القديمة واستمر وصول منتجات النوبة وأواسط القارة إلى مصر ، وانتقال الصناعات اليدوية والعقائد والأفكار ونظم الحياة المستقرة المتقدمة من مصر إلى النوبة فشمال السودان .

وازداد اهتمام المصريين بعلاقاتهم مع النوبة وشمال السودان منذ أواخر الأسرة الخامسة المصرية ، هناك ظهر منصب هام جديد أطلق على صاحبة « حاكم الجنوب » ويشترط فى شاغل المنصب عدا الخبرة بشئون التجارة والبدل أن يجيد لغات ولهجات القبائل المقيمة فى الجنوب ، ولا شك فى أن إنشاء منصب حاكم الجنوب بداية وضع الأسس للدبلوماسية المصرية ، ولعل فى اسم المدينة التى اتخذها هذا الموظف مقرا له وهى أسوان = سون = السوق ما يشير إلى مهمتها الفعلية ، وتدل الكتابات التى خلفوها على جدران مقابرهم فى هضبة أسوان وفى أبيدوس على قيامهم برحلات استكشافية رائدة إلى جهات كثيرة فى النوبة وشمال السودان للقيام بالمقايضة وتبادل السلع المصرية مقابل منتجات تلك البلاد . ومعنى ذلك أن قبائل وشعوبا كثيرة فى شمال السودان ، سواء من حول وادى النيل أو فى داخل الصحراء فى الغرب سمعت فى وقت مبكر عن الحضارة المصرية وشاهدت رسلها متمثلتين فى العديد من بعثات التجارة وطلاب المعادن ثم فيما تحمله من سلع هى نماذج تلك الحضارة . ولا نستطيع أن نتبين إن كان أولئك النفر من عساكر النوبة الذين كانوا يجيئون بغرض صد الغارات على حدود مصر الشرقية كانوا يعودون إلى أوطانهم بعد انهاء مهمتهم أو أنهم استقروا فى مصر . وتذكر المصادر الأدبية التى تردد صداها بعد سقوط الدولة القديمة فى مصر

آن جنود النوبة الذين كانوا ضمن حرس فرعون ساهموا فى إذكاء نار الثورة الكبرى .

وفى نفس الفترة ظهر فى النوبة السفلى شعب جديد سميناه بالمجموعة الثالثة فى المنطقة الواقعة من كبانية إلى الشمال من كوم امبو وحتى فرس[١٨] .

وإلى الجنوب منها ظهرت المجموعة الحضارية الأخرى التى سميت بحضارة كرمة ، نسبة إلى مركزها الرئيسى ، وهو قرية كرمة الحالية بالقرب من الشلال الثالث . وكلتا المجموعتين متقدمتان فى مضمار الحضارة ، وعلى الرغم من وجود عناصر حضارية محلية فإن مجرد قيامهما فى أقرب نقطة اتصال مع الحضارة المصرية ليبين استمرار إشعاع الحضارة المصرية ووصولها إلى نقطة متقدمة أخرى فى قلب القارة ، بصرف النظر عن التفاصيل المميزة لحضارة كرمة وحضارة المجموعة الثالثة ، فلا شك أنهما تأثرتا بالأفكار المصرية عن الحياة والموت والبعث ونظم الحكم . وتدل أبحاث فركوتى :

J. Vercoutter, Upper Egyptian Settlers in Middle Kingdom Nubia, Kush V.pp. 61-69.

فى بوهين والمنطقة المحيطة بها على احتمال استيطان عدد كبير من المصريين وبخاصة من منطقة طيبة أيام الدولة الوسطى ، وذلك بعد دراسة مخلفاتهم هناك ، والمعروف أن المصريين أيام الدولة الوسطى قد بلغوا فى تقدمهم جنوبا حتى الشلال الثانى ونقلوا الحدود من أسوان الى أقن عند وادى حلفا بعد أن أصبحت هى المركز التجارى الهام ونقطة الجمارك ، وهناك وضع الملك سنوسرت الثالث (١٨٧٨ ــ ١٨٤٣ ق.م.) لوحات الحدود يعلن فيها السماح لأهل الجنوب بالمرور فقط إذا كان الغرض هو التجارة أو تبليغ رسالة ، ولا جدال فى أن استثناء حامل الرسالة والسماح له بعبور الحدود يعنى وجود طريقة منظمة للاتصال بين مصر وبين جيرانها فى الجنوب أيام الدولة الوسطى .

وبعد سقوط الدولة الوسطى فى مصر ظهرت فى منطقة النوبة وشمال السودان دولة موحدة مستقلة فى الفترة التى حكم فيها الهكسوس شمال مصر (١٦٥٠ ــ

١٥٤٢ ق.م.) سميت دولة كوش ، وقفت على قدم المساواة مع الدولة المصرية فى طيبة ودولة الهكسوس فى الدلتا ومصر الوسطى ، وعلى الرغم من قلة المصادر التاريخية وندرة المادة الأثرية التى تساعدنا على رسم صورة واضحة لتلك الدولة الجديدة فلا شك فى أن مثلها الأعلى كان يتمثل فى الحضارة المصرية المجاورة ، والتى أصبحت عناصرها فى متناول الناس طوال فترة الاتصال منذ قيام الأسرات فى مصر . ولو أخذنا فى الاعتبار تلك الرسالة المكتوبة التى أرسلها ملك الهكسوس إلى ملك كوش ، التى استولى عليها أهل طيبة مع حاملها على طريق الواحات (وربما كان المقصود هو طريق درب الأربعين) ، والتى نسخت على لوحة كاموس الثانية بنصها ، لأمكن أن نقترح بأن اللغة الرسمية لدولة كوش كانت المصرية ، وهى نفس اللغة التى اتخذها الهكسوس لغة رسمية أثناء إحتلالهم لمصر ، أما عن لغتهم المحلية فمن الصعب التكهن بها ، وكذلك من الصعب جدا الادعاء بأنها صورة مبكرة للغة المروية التى ظهرت فيما بعد ، ولعل التقييم السليم لحفائر رايزنر فى كرمة يعطينا فكرة واضحة عن دولة كوش هذه والتى استلزمت من ملوك الدولة الحديثة جهدا كبيرا فى سبيل إعادة تأمين وإخضاع المنطقة للحضارة المصرية المباشرة .

ومع إعادة الاتصال أيام الدولة الحديثة أخذت تظهر فى النوبة وشمال السودان عناصر مميزة للحضارة المصرية ، وعلى سبيل المثال لم يكد عصر تحوتمس الثالث (١٤٩١ ــ ١٤٣٦ ق.م.) يبدأ حتى اختفى الشكل المحلى المعروف للمقابر ، وانتشرت الأشكال المصرية كالمقابر الصخرية أو تلك التى على شكل أهرامات صغيرة مثل مقابر دير المدينة بطيبة ، وأصبحت المراكز الحضارية مثل عنيبة وبوهين وغيرها تشبه فى مظهرها إلى حد كبيرالمدائن المصرية ، فالباحث فى مخلفات حضارة النوبة وشمال السودان أيام الدولة الحديثة يعثر على كثير من التوابيت وتماثيل المجاوبين (Ushebties) والجعارين (Scarabs) ورسوم المقابر وأسماء أصحابها المصرية إلى غير ذلك مما يطول تعداده من العناصر المصرية التى لا تخطئها العين .

وكثيرا ما أوفد الفنانون المصريون إلى كوش فى مهام رسمية للإسهام فى إقامة وتزيين المنشآت المعمارية المتعددة . فلقد ذكرت النصوص أن فنانى منف أرسلوا إلى كوه لإعادة بناء وتجميل معبدها الكبير ، كما حدث نفس الشىء بالنسبة لمعبد آمون الشهير فى جبل برقل ، وظهرت نتيجة هذا الاتصال متمثلة فى نشأة جيل من الفنانين المحليين المهرة الذين أسهموا فى تطوير الفنون فى شتى أنحاء السودان القديم .

وانتقلت الحدود جنوبا إلى ما وراء الشلال الرابع ، وتحولت الحصون القديمة الى مدن مفتوحة قامت بدور الأسواق ، واتسعت وزاد عدد سكانها زيادة ملحوظة ، وظهرت نبته كمدينة محصنة تقع فى أقصى الجنوب ربما لأول مرة ، وقامت المعابد العديدة التى شيدت فى كوش بدور كبير فى نشر الحضارة ، وبخاصة نماذج الثقافة والعقائد الدينية المصرية . بالإضافة إلى أن تشييدها تطلب إقامة عدد غفير من الكهنة والمتصلين بشئون المعابد . وهكذا انتشرت المعبودات المصرية فى أنحاء كوش انتشارا بلغ حدا أصبحت فيه نبته توأما لمدينة طيبة ، ومقرا ثانيا لمعبود الدولة الرسمى آمون رع .

ولنضرب مثلين نبين بهما الى أى حد أخذت كوش تتأثر تأثرا سريعا بالحضارة المصرية أيام الدولة الحديثة .

١ ــ فبدراسة مقارنة لمنتجات كوش من واقع الرسوم المسجلة على جدران المقابر من الدولة الحديثة من قبل ومن بعد فترة العمارنة نلاحظ أنه فى الفترة الأخيرة ظهرت المصنوعات اليدوية الجميلة المختلفة الأنواع بينما كانت من قبل لا تتعدى المواد الخام (١٩) .

٢ ــ واذا لاحظنا الأسماء التى حملها الحاكم المحلى لمدينة تحنوت ــ سيرا المدعى جحوتى حتب من زمن حتشبسوت وأسماء أفراد أسرته لوجدنا أن الأب والأم يحملان أسماء محلية بينما الأميرة وزوجها يحملان اسماء مصرية (٢٠) .

وازدهرت كوش وأصبحت تتمتع بمكانة مرموقة وزدادت ثروتها ومواردها البشرية

وأصبحت تكون عاملا مؤثرا فى سياسة الوادى فى أواخر الدولة الحديثة ، وظهر منها رجال لامعون وصل بعضهم إلى أرقى المناصب السياسية لدرجة أن جيش كوش إستطاع ان ينقذ مصر من خطر ثورة قام بها كبير كهنة آمون رع فى أواخر أيام الأسرة العشرين وذلك عندما عجزت قواتها عن إخماد الثورة .

وهكذا أصبحت كوش فى موقف استوعبت فيه الحضارة المصرية المتقدمة عقائدها وفنونها ونظم حكمها ، ثم ظهرت على مسرح الحوادث فى أكمل صورها عندما تمكن جيشها بقيادة ملوكها من فتح مصر وإنهاء حكم الليبيين فى الدلتا ومن مصر الوسطى ، ثم توحيد الوادى من مصب النيل على البحر المتوسط حتى التقاء النيل الأزرق بالنيل الأبيض ، وربما إلى أبعد من ذلك ، ومن ثم أعطيت الفرصة لانتقال الأفراد وعناصر الحضارة بشكل أوسع طوال حكم الأسرة الخامسة والعشرين السودانية (٧٥٠ ــ ٦٧١ ق.م. تقريبا) ما بين مصر وبين أنحاء وادى النيل القديم . وانتشرت المقابر الهرمية الضخمة كالأعلام فى أنحاء السودان وفى الكوه وفى نورى وبرقل ثم فى مروى القديمة بالإضافة إلى المعابد ذات الطابع المصرى وما يتصل بها من إقامة تماثيل ولوحات مكتوبة باللغة المصرية ، وكلها دلائل على تشبع هؤلاء القوم بالعقائد والفنون ونظم الحياة المصرية .

وبعد أن انفصلت السودان سياسيا عن مصر إثر تعرضها لسيل من الغزاة الأجانب من آشوريين وفرس وأغريق مقدونيين ورومان ، استمرت حضارة كوش فى الازدهار ألف سنة أخرى لم تنقطع فيها صلتها تماما مع مصر ، ورغم انتقال العاصمة من نبته عند الشلال الرابع إلى مروى جنوبا بين الشلالين الخامس والسادس . ورغم أن كوش حولت وجهتها شطر الجنوب استمرت جزيرة فيلاى (Philea) عند أسوان حيث هيكل المعبودة إيزيس نقطة التقاء هامة بين حضارة مصر من ناحية ، وحضارة مروى من ناحية أخرى ، ذلك أن كلا من المصريين وأصحاب حضارة مروى اشتركوا فى عبادة إيزيس ، فكان رسل الملوك المرويين يصلون إلى فيلاى فى كل عام حاملين الهدايا لمعبد إيزيس ، وذلك أيام البطالمة خلفاء الاسكندر الأكبر فى مصر ثم فى زمن

الحكم الرومانى لمصر . وأخذت الحضارة المروية تقوم بدور فعال فى نقل وتوصيل عناصر الحضارة المتقدمة من وادى النيل إلى مناطق أخرى من القارة الإفريقية (٢١) .

وبعد أن اتخذت تلك الحضارة بالفعل طريقها مخترقة منطقة الصحراء الكبرى ، أمكن بذلك لعناصر الحضارة المتقدمة لوادى النيل أن تنتقل جنوبا وغربا خلال دروب السافانا جنوبى الصحراء (٢٢) .

وبالرغم من الجدل الذى أثير حول الموطن الذى انتقل منه معدن الحديد إلى غرب إفريقيا فلا خلاف فى أن مملكة مروى كانت تعرف الحديد الذى وجد خامته بكثرة بالقرب من العاصمة مروى ، وأن أهلها توصلوا إلى طريقة اقتصادية لاستخراجه قبل الميلاد بفترة طويلة تبلغ أكثر من مائة عام على الأقل (٢٣) .

وكما كان استخلاص معدن الحديد يعتبر من الاكتشافات الحاسمة فى تاريخ البشرية فان مملكة مروى ظلت فترة ليست بالقصيرة تحتفظ بهذا السر ، ومن أجل ذلك تأخر وصول هذا الاكتشاف العظيم إلى وسط وغرب إفريقيا ، إلا أن ذلك التأخير فى وصول الحديد إلى غرب إفريقيا لم يتعد نهاية القرن الأول قبل الميلاد . ثم انتقل بعد ذلك إلى منطقة الغابات الجنوبية فى السودان الغربى متخذا الطريق الرئيسى عبر كردفان ، ثم دارفور إلى بحيرة تشاد ، ومن هناك إلى وادى النيجر الأوسط وإلى جنوبى الجزائر وهو نفس طريق قوافل الحجاج إلى مكة المستعمل حتى اليوم . وشهد هذا الطريق عبر السنين هجرات بشرية بين النيل وبين مناطق غرب القارة انتقلت معها عناصر الحضارة المتقدمة من الشرق إلى الغرب .

وليس هناك دليل مادى حتى الآن على أن مملكة مروى مدت نفوذها حتى شمال منطقة كردفان ، الا أننا نحاول أن نتناول هنا أثر العادات والعبادات ، وهى أمور لا يمكن إنكار أهميتها وأثرها على الحضارات ، مع الأخذ فى الاعتبار أن كردفان كانت وما زالت تتصل بوادى النيل مباشرة عن طريق درب الأربعين الذى يبدأ من النيل مباشرة عند أسيوط ، ويخترق الصحراء مارا بالواحات الخارجة ، ثم بواحة سليمه ومن

هناك يتفرع منه طريق يتجه إلى كردفان (الأبيض) ، أما الطريق الرئيسى فيتجه إلى دارفور (الفاشر) . إلا أن أوجه التقارب بين الملكية المقدسة التى قامت فى دارفور فيما بعد ، وبين مملكة مروى فى وادى النيل الأوسط ربما يشير إلى أن قيامها يعود الى أفراد من أسرة مروى يحتمل أنهم هاجروا من وادى النيل بعد انهيار مملكة مروى فى الربع الأول من القرن الرابع الميلادى وأنها قامت بموقعها المتوسط كمحطة للقوافل التجارية منذ القدم (٢٤) .

كما يدعم ذلك الرأى تلك القصص المتواردة بين أهل تلك البلاد والتى تشير إلى الأصول الشرقية لهذه الشعوب .

ولو اتبعنا قيام نماذج أخرى من الملكيات المقدسة فيما بعد على ذلك الطريق الرئيسى الذى يخترق القارة الافريقية بين الصحراء الكبرى فى الشمال ، ومناطق الغابات الاستوائية فى الجنوب لوجدنا أمثلة عديدة فمثلا حول بحيرة تشاد قامت إحدى كبريات الممالك التى ازدهرت فى المنطقة الممتدة بين النيل الأوسط وبين وادى النيجر متخذة بحيرة تشاد مركزا لها ونعنى بها مملكة كانم Kanem . وربما يرجع تأسيسها إلى القرن الثامن الميلادى ، واستمرت فى الوجود حتى القرن السابع عشر (٢٥) .

وتداولت الروايات حول نشأة هذه الدولة فقيل إنها تعود إلى هجرة أحد الشعوب التى وفدت من الشرق أو من الشمال الشرقى ، كما يربط البعض بين قيامها وبين انهيار مملكة مروى وما تبع ذلك من هجرة أفواج من أهلها إلى الغرب تحت ضغط العدو الأثيوبى فى أكسوم الذى سد عليهم الطريق نحو الشرق ، على فرض أن الطريق إلى الشمال نحو مصر كان مغلقا أيام الحكم الرومانى ، وأن الهجرة إلى الجنوب كانت محدودة نظرا لصعوبة الحياة فى مناطق الغابات الاستوائية . وهكذا نفترض أن قيام حضارة كانم (Kanem) كان نتيجة لاندماج حضارة المهاجرين الجدد من الشرق مع الحضارة المحلية لأهل البلاد من حول تشاد ويطلق عليهم اسم الساو (Sao) الذى يرجح أنهم أيضا مهاجرون قدامى من الشرق ، أولئك الذين كشفت أعمال الحفر حديثا

عن بعض مخلفاتهم الحضارية متمثلة فى مدنهم القديمة ، وفى مقابرهم . وكلها تبين أنهم كانوا على مستوى حضارى متقدم ، عرفوا صهر الحديد وغيره من المعادن التى شكلوها بنفس الطريقة التى عرفت فى وادى النيل ، وتركوا الكثير من الصناعات الفخارية المتقدمة والتماثيل ، ومنها ما هو على شكل الكبش الذى عرفته شعوب وادى النيل رمزا لمعبودهم آمون رع . مما يشير إلى وجود صلة بين أصحاب تلك الحضارة وبين حضارات وادى النيل ، وهذا بدوره يرجع إلى أن حضارة (Sao) نفسها كانت متأثرة بحضارات وادى النيل القديمة ، إلى الحد الذى جعل البعض يعتقد بأن تأثير حضارة مروى القديمة كان على نفس مستوى تأثر مروى بحضارة مصر القديمة .

ويضيف اركل Arkell [٢٦] إلى مملكة جوكون (Jukun) فى شمال نيجيريا كنموذج آخر للملكيات المقدسة التى اتخذت من ملكيات وادى النيل فى كل من مصر ومروى مثلها الأعلى رغم بعد الزمن [٢٧] . ويتحدث C.G.Seligman سلجمان [٢٨] عنهم على اعتبار أنهم ضمن الزنوج الوثنيين فى غرب إفريقيا . ويذكر أن أهم ما يميز مجتمعهم تلك الصفة المقدسة للملك ، ولهم فى ذلك بعض المعتقدات التى تشابه معتقدات المصريين القدماء ، وعلى سبيل المثال ما قيل عن قتل الملك بعد مضى سبع سنوات من حكمه فى احتفال رسمى لكى يلحق بأسلافه الأقدمين . وكان له ما يناظره عند المصريين القدماء متمثلا فى احتفالهم بالعيد الثلاثينى للملك ، الذى كان فى الأصل مخصصا لقتل الملك بعد أن يمضى فى الحكم ثلاثين عاما ، ثم تطور فى العصور التاريخية إلى مجرد إعادة الاحتفال بتتويج الملك مرة أخرى كأنما هو مات ثم بعث من جديد . كما أن الدور الكبير الذى تمتعت به الملكة الأم بين (Jukun) [٢٩] أنه ربما كان له ما يناظره فى مروى متمثلا فى دور الملكة الأم ، وفى هذا المقام يمكن مقارنة دور الملكة الأم عند شعوب (Akan) فى غانا [٣٠] .

وهناك فى غرب إفريقيا فى حوض نهر النيجر الأسفل [٣١] أسست قبيلة اليوربا Yoruba حضارة ذائعة الصيت بعاصمتها أيف Ife وتقع حاليا فى جنوب نيجيريا ، فى وقت ما بين القرنين السادس والثامن ، واستمرت مزدهرة حتى دخول البريطانيين سنة ١٨٦٥م [٣٢] .

وبالنسبة لشعب اليوربا فانه توجد عدة شواهد توضح أثر حضارات وادى النيل فى كُل من مصر والسودان على تطوره :

١ ــ الملكية المقدسة عند اليوربا يتحدث عنها أحد البحارة البرتغاليين الذى أبحر عام ١٥٤٠م إلى ساحل غينيا وإلى بنين والكنغو [٣٣] ولاحظ إلى أى حد يتمتع ملوك تلك البلاد بالقدسية ، ثم كيف كان هؤلاء الملوك يعبدون الشمس . ويعتقدون بأن الأرواح تصعد إليها بعد الممات ، وأدرك دافيد ــ سن (Davidson) صلة ذلك بالأثر القوى للملكية المقدسة فى مروى القديمة .

٢ ــ العقائد الدينية عند اليوربا فيها ما يؤيد الأثر القوى لحضارات وادى النيل القديمة ، فلقد اتخذ معبودهم شنجو (Shango) إله الرعد ــ قناعا على شكل الكبش وهو رمز المعبود آمون رع فى كل من مصر القديمة وحضارة سودان وادى النيل القديم ، وتماثيله منتشرة فى مصر وكذلك فى أنحاء منطقة البطانة السودانية وفى مروى القديمة وفى غيرها ، وأيضا موضوع تقديسهم للشمس الذى تحدث عنه البحار البرتغالى السابق ذكره ، ولو أن ــ سلجمان (Seligman) يشير إلى التعقيدات التى وصلت إليها عقائد اليوربا الدينية حاليا وليس بينها ما يؤكد تقديسهم للشمس [٣٤] . ويضاف إلى تلك نتائج الاكتشاف الذى أعلنه برنارد فاج B. Fage عندما عثر فى أحد المقابر فى أبرى (Abri) بالقرب من إيف على تمثال لرأس كبش وعلى أحد تماثيل الحيات من الفخار [٣٥] .
وكلاهما من مميزات حضارة وادى النيل سواء فى مصر أم فى مروى [٣٦] ، وليس هذا النموذج الوحيد لتمثال رأس الكبش فقد عثر فى لاجوس (Lagos) على قلادة (صديرية) على شكل رأس الكبش ، وفيها يظهر الأثر المصرى بجلاء ، ليس فقط بالنسبة لصورة الكبش رمز آمون رع ، بل أيضا بالنسبة لطراز الزخرفة ، وبجانب ذلك أيضا الصديرية التى نشرتها (Meryerowitz) والتى اكتشف فى بنين ونسبت إلى المعبود (شانجو) (Shango) [٣٧] .

٣ ــ وبالنسبة للأثر الفنى ــ بالإضافة إلى ما سبق ذكره فى رقم ٢ ــ فلقد لاحظ أركل [٣٨] (Arkell, History, fig. 32) وجود تشابه بين طراز المصابيح التى عثر عليها فى مقابر تنتمى إلى المجموعة الغامضة (X-Group) فى قرية فركه (Firka) بين الشلالين الثانى والثالث من القرنين الخامس والسادس الميلاديين وبين نظيرتها التى عثر عليها فى إحدى المقابر القديمة فى غانا الحالية ، ولكن ذلك كله يحتاج إلى دليل واضح .

ولقد اتفق على أن فن صب البرنز عند اليوربا بطريقة الشمع المذاب والتى انتقلت منها فيما بعد إلى بنين منقول عن شعوب وادى النيل [٣٩] .

أنظر أيضا تفاصيل طريقة صب البرنز باستعمال الشمع المذاب فى كتاب : Albert Thelle, Kunst in Afrika p.202 هذا مع العلم بأن تلك الطريقة كانت معروفة أيضا فى الصين فى الالف الثانى قبل الميلاد [٤٠] .

ولا جدال فى أن الروايات الشعبية المتوارثة عن الأصل الشرقى لأغلب القبائل المعروفة فى غربى إفريقيا وبخاصة تلك المتعلقة بالأصول القديمة لليوربا لها ما يبررها ، ولقد اهتم الباحث بيوباكو (Biobaku) بتقص الروايات فى دراسة تطلبت الكثير من الصبر ، وانتهى إلى تأكيد الأصل الشرقى لليوربا ، وحدد منطقة النيل الأوسط حيث حضارة مروى القديمة كمواطن للرواد الأوائل المؤسسين لتلك الحضارة . وبصرف النظر عن مدى إمكانية ذلك فاننا نستطيع أن نؤكد بدون خوض فى التفاصيل أن تلك الروايات المتوارثة عن الأصل الشرقى إنما هى تعبير واضح للتأثير القوى لحضارة وادى النيل على أصحاب حضارة اليوربا وغيرها ، وما دمنا فى مجال الحديث عن الأثر المصرى المحتمل على الحضارات القديمة داخل القارة الإفريقية فلا جناح علينا إذا تناولنا موضوع الرسوم الصخرية ذات الأثر المصرى والتى عثر عليها الباحث هنرى لوته (Henri Lhote) فى جنوب شرقى الجزائر فى (Tassili-n-Ajjer) [٤١] وتقع على طريق القوافل الرئيسى ما بين تمبكتو Timbuktu وبين طرابلس فهناك أثر من رسم يحمل بعض مميزات الفن المصرى القديم أيام

ازدهاره ، ففى رسم من Theile [٤٢] يرتدى الرجال والنساء أزياء مصرية صميمة بالإضافة إلى لباس للرأس ذى الحية على الجبهة ، ولو أن الفنان قد صور الأشخاص جميعا برؤوس الطير ، ومنظر الصياد مع كلاب الصيد فى موضع آخر [٤٣] يظهر فيه الأثر المصرى واضحا . ومنظر (السيدة البيضاء) وتسمى الإلهة ذات القرنين Horned Goddess [٤٤] . وفى الواقع إن المتأمل فى هذا الرسم للإلهة الذى يعتبره لوته نسخة من الإلهة المصرية إيزيس لا يجد ما يحمله على الاعتقاد بوجود أى تشابه بين الاثنين فلا الحركة ولا الزى ولا الوشم الذى يغطى أغلب أجزاء الجسم توحى بأوجه تشابه من أى نوع ، كل ما هنالك أن الإلهة المذكورة تحمل غطاء رأس يتكون من قرنين ــ كما كان الحال بالنسبة للإلهة المصرية إيزيس التى انتشرت عبادتها فى أماكن عديدة خارج وادى النيل ، حتى وصلت إلى روما حيث كان لها أتباع مخلصون ، إلا أن الشكل والوضع يختلفان كثيرا .

إننا فى تتبعنا لأثر الحضارة المصرية على حضارات إفريقيا الداخلية خلف الصحراء الكبرى لاحظنا الطرق التى سلكتها عناصر تلك الحضارة فى انتقالها فكان النيل أهمها ، ثم يلى ذلك دروب الصحراء وأشهرها طريق درب الأربعين الذى يخرج بالقرب من أسيوط ، ويمر بالواحات الخارجة وواحة سليمة ، حيث يخرج منه أحد الفروع متجها نحو الشلال الثالث ثم الى الدبة فأم درمان . ويستمر حتى يصل به أحد الفروع من منطقة اتصال النيل الأبيض والأزرق ويستمر حتى كردفان ودارفور ثم غربا إلى تشاد حتى يصل إلى تمبكتو Timbuktu فى وادى النيجر حيث يتصل بالطريق القادم من طرابلس ، ولا شك أن هذا الطريق قديم جدا .

بينا إمكانية إسهام حضارة النوبة وسودان وادى النيل القديم تحت اسمائه المتعددة ، فى نقل عناصر تلك الحضارة ، وكيف حافظت عليها بعد أن اضمحلت الدولة فى مصر ودخلت فى عصورها المظلمة ، وكيف أضافت إليها ونمتها وأثرتها ، فقدمت للشعوب الإفريقية جنوبى الصحراء الكبرى نماذج ملموسة قريبة لنظم الحكم المستقرة وللعقائد الدينية والفنون المتقدمة .

الفصل الثالث عشر

وحدة حضارة وادى النيل

إن البحث فى أصل الأسرة التى حكمت مصر والسودان القديم منذ حوالى منتصف القرن الثامن حتى حوالى منتصف القرن السابع قبل الميلاد (٧٥١ ــ ٦٥٦ ق.م.) ليزداد أهمية عندما نعلم أن تلك المرحلة تمثل جزءا هاما من تاريخ وادى النيل ، ولأنه يلقى الضوء أيضا على فترة غامضة من تاريخ مصر ، كما يتناول العلاقات الانسانية ومحاولات الوحدة بين شطرى الوادى فى مرحلة بلغت فيها الأحداث التاريخية فى وادى النيل ذروتها .

ولقد ظل موضوع البحث فى أصل تلك الأسرة مثارا للفروض ، وبعيدا عن البحث الشامل ، شائكا فى نظر المتخصصين نظرا لقلة المادة العلمية بين أيدينا . وعندما تناولت هذا الموضوع لم أجد أمامى إلا بعض نتائج أعمال الحفر لدنهام وريزنر فى كرمة ، وحفائر كل من فيرث وريزنر وشتين دورف يونكر فى منطقة النوبة السفلى ، هذا بالإضافة إلى الآراء المتناثرة فى بعض المؤلفات التى حاول أصحابها أن يدلوا بآرائهم حول الموضوع . وتتلخص تلك الفروض فيما يلى :

١ ــ الرأى القائل بأن أصل تلك الأسرة مصرى .

٢ ــ النظرية التى ترجع ذلك البيت إلى أصل ليبى .

٣ ــ النظرية القائلة بأن البيت الحاكم والمؤسس للأسرة الخامسة والعشرين فيما بعد هو من أصل محلى .

أولا : إن النظرة الفاحصة للأسانيد التى حاولت النظرية الأولى أن تتخذ منها دليلا ، توضح انها لم تتخطى مرحلة الفروض . فالقائلون بها يعتمدون على الطابع المصرى لحضارة تلك الأسرة ، وعلى تمسك أفرادها بعقيدة آمون ، وهى الديانة

الرسمية لمصر القديمة فى ذلك الوقت . ثم أنهم يشيرون إلى مدى تدين ملوكها . وبعد ذلك فهم يرون فى إسم بعنخى عاهل الأسرة (٧٥١ ــ ٧١٦ ق.م.) إسما مصريا صميما سبق استعماله أيام الأسرة الحادية والعشرين عندما حمله بعنخى بن حريحور . بل إنهم يعتبرون مؤسس هذه الأسرة من سلالة أسرة الكهنة فى طيبة ، التى فر بعض أفرادها إلى نبته خوفا من الهزيمة على أيدى الليبيين المتمصرين ، الذين ملكوا زمام السلطة فى مصر حينذاك وحكموها طوال الفترة بين سقوط الأسرة الحادية والعشرين وأسرة الكهنة وقيام الأسرة الخامسة والعشرين .

والمتتبع لتاريخ العلاقات الحضارية بين مصر والسودان منذ فجر التاريخ حتى تلك المرحلة من مراحل التطور يدرك تماما أن الطابع المصرى لأصحاب ذلك البيت لابد أنه يرجع إلى طول استقرار الحضارة المصرية فى السودان منذ فجر التاريخ بما فى ذلك استيطان أعداد كبيرة من المصريين فى النوبة ليعملوا ضمن أفراد الإدارة المصرية أو القوات المرابطة . كما أن انتشار الكهنة المصريين فى معابد النوبة حتى منطقة الشلال الرابع كان له أثر كبير فى نشر الثقافة والعقائد المصرية .

أما فيما يتعلق بظهور الأسماء المصرية بين أصحاب البيت المالك فى نبته فان ذلك لم يتعد إسمى الملكين بعنخى وحور سيوتف Horsiycotef (٤٠٤ ــ ٣٦٩ ق.م.) هذا إذا استثنينا الأسماء المصرية التى ظهر بعضها بين أبناء ملوك ذلك البيت مثل حور ــ إم ــ أخت بن شاباكو (حوالى ٧٠٧ ــ ٦٩٦ ق.م.) والذى حمل إبنه إسما مصريا أيضا ، كذلك فان طهارقا قد اعطى إثنين من أبنائه اسمين مصريين وهما نيسو نحرت (وهو « أوشناكورو » فى الحوليات الآشورية للملك « امرحدون » نيسوشو ــ تفنوت) . كما حمل بعض ملكات بعض الأسرة وأميراتها أسماء مصرية مثل « أما نيرديس » ومعناها عطية آمون ابنة الملك كاشتا (المتوفى عام ٧٥١ ق.م.) ، وإحدى زوجات الملك بعنخى ، وكانت تدعى « نفروكا كاشتا » والملكة « تاباك ــ نمون » إبنة بعنخى ، ثم إحدى بنات الملك « شاباكو » وأخيرا زوجة الملك اسبالتا (٥٩٣ ــ ٥٦٨ ق.م.) هذا بالإضافة إلى بعض الأسماء المصرية

التى حملها نفر من الموظفين والكهنة . ذلك هو شأن الأسماء المصرية بين أفراد العائلة المالكة .

أما بخصوص دور كهنة المعبود آمون ، فليس هناك جدال فى النشاط الكبير الذى قاموا به خلال حكم الأسرة الخامسة والعشرين ، فبإسمه أقيمت المعابد فى شتى أنحاء النوبة وتحت لوائه استطاعوا السيطرة على شمال الوادى بسهولة ، ولم ينظر إليهم على أنهم قوم غرباء ، بل كانوا هم من أنقذوا الوادى ، وحفظوا تقاليد البلاد وعقائدهم المقدسة ، كما لا يستبعد أن يكون فريق من الكهنة قد هرب فعلا إلى نبته بسبب هجوم الليبيين . كل ذلك يمكن اعتباره من العوامل المساعدة للبيت المالك فى نبته لكى يصل إلى العرش . أما المبالغة فى دور كهنة آمون فانها تؤدى إلى افتراضات ونتائج خاطئة .

ثانيا : والقائلون بالأصل الليبى للبيت الحاكم فى نبته يفترضون أنه خلال الهجرة الكبرى للقبائل الليبية الشمالية إلى الدلتا ومصر الوسطى وسعيهم للاستيطان فيهما ، اتجه فرع من الليبيين الجنوبيين — الطمياح — فى نفس الوقت تقريبا متخذا طريق الواحات جنوبا حتى وصل إلى دنقله . وحدث ذلك فى فترة حكم الملك الليبى شيشنق الأول فى شمالى الوادى (٩٢٠ — ٨٦٠ ق.م.) واعتبرها موطنا جديدا لعشيرته . هنالك استطاع رئيس تلك القبيلة أن يجمع إليه كل سلطة نائب الملك فى كوش ، وأصبح كغيره من الحكام الليبيين على الأقاليم المصرية ، يكاد أن يكون مستقلا عن الملك المصرى .

ولما كان الموقع الجغرافى لإقليم دنقله — بوصفه أقرب إلى قلب القارة الإفريقية بمحاصيلها وخيراتها الوفيرة — يجعل منه مفتاحا لمحاصيل القارة بالإضافة إلى سيطرة ذلك الإقليم على الطريق المؤدى إلى مناجم الذهب ، فقد ازدادت أهميته وكذا أهمية هؤلاء الحكام الجدد الذين اتخذوا من الكرو مركزا لهم وأخذوا فى نشر نفوذهم شمالا حتى بلغ حدود إقليم طيبة المصرى .

وحسب تقدير ريزنر صاحب هذا الرأى لابد أن تكون كل تلك الاحداث قد وقعت خلال الستة أجيال ، ما بين حكم الملك الليبى شيشنق الأول فى مصر ، وبين حكم الملك بعنخى عاهل الأسرة الخامسة والعشرين فى نبته (٧٥١ ــ ٧١٦ ق.م.) . ويرجح ريزنر أن صاحب أقدم مقابر الكرو ــ والتى قسمها إلى ستة أقسام على ستة أجيال متتالية ــ قد عاش فى زمن الملك شيشنق الأول . ويختم روايته فيذهب إلى أن أقدم مقابر الكرو هى مقابر أسلاف الملك بعنخى ، وهو يعتبرهم جميعا أمراء ليبيين جنوبيين (طمياح) .

ويعتمد ريزنر فى تأييد نظريته على بعض نتائج الحفر الذى أجراه فى الكرو :

١ ــ فهو قد عثر فى أربع من أقدم المقابر فى الكرو على رؤوس سهام هى فى رأية ذات طابع ليبى .

٢ ــ وخلال حفائره هناك عثر على لوحة مكتوبة (أعطاها رقم ٥٣) خاصة بزوجة بعنخى المسماه تابيرى Tabiri ، وعلى اللوحة قرأ ريزنر لقبا لها على أنها « سيدة الطمياح » ، وعلى أساس تلك القراءة اطمأن إلى أنه اكتشف دليلا قاطعا على أن الأسرة الملكية فى نبته تنتمى إلى الليبيين الجنوبيين أى إلى الطمياح . ذلك لأن الملكة المذكورة هى إبنة الارا Alara أقدم رئيس لأسرة الملك بعنخى ، كما ان الارا هذا كان أخا لكاشتا والد بعنخى .

٣ ــ ويدعى ريزنر كذلك أن أسماء أفراد الأسرة الحاكمة فى نبته ليبية الأصل وأنها تشبه فى بنائها غيرها من الأسماء الليبية .

٤ ــ وعلى قطعة مكسورة من إناء من الألبستر (نورى رقم ٣٨) عثر عليها ريزنر فى منطقة الحفائر فى نورى (وهى احدى أماكن الدفن الملكية التى كانت تتبع العاصمة نبته) قرأ ريزنر ما يلى : « ... الرئيس الأعلى للجيش باشد باست Pashedebast المرحوم ابن سيد الأرضين شيشنق مرى آمون » . (Reisner, JEA p.p. 54) وعلى هذا الأساس قرر ريزنر صاحب الرأى الليبى أن باشد باست

هذا ابن الملك الليبى شيشنق الثانى أو الثالث ، لابد من إنه هو نفسه والد كاشتا ملك نبته . وبناء على ذلك أرجع ريزنر أصل البيت الحاكم فى نبته مباشرة إلى الأصل الليبى للبيت الحاكم فى مصر فى الفترة ما بين ٩٥٠ ــ ٧١٥ ق.م. تقريبا .

وقد تبنى الكثير من المهتمين بالدراسات المصرية القديمة الرأى القائل بالأصل الليبى ، منهم مكادم وسميث وكاتز نلسن وإدوارد وسود ربرج وجونيه . ولو أن هناك منهم من أثار بعض التحفظات ، بينما عاد البعض مثل كاتز نلسن ورفض هذا الرأى .

وفيما يلى تحليل للنظرية الليبية :

١ ــ فيما يختص برؤوس السهام من حجر الصوان وحجر الكوارتز ، ذات الشكل المجنح والتى عثر فى أربع من أقدم مقابر الكرو ويرى ريزنر أنها ليبية ــ الأصل . نلاحظ أنه ذكر أيضا نبأ العثور على رؤوس سهام فى نفس تلك المقابر وفى مقابر أخرى تليها ، شكلها نصف دائرى ويعتبرها من أصل محلى . وبإحصاء عدد السهام لكل من النوعين السابقين يتضح أن النوع الليبى عدده ٣٢ سهما بينما النوع المحلى يبلغ ٣٩ سهما ، أى أن عدد رؤوس السهام المحلية أكثر من عدد تلك السهام ذات الطابع الليبى . كما أن ذلك النوع من السهام المجنحة كان منتشرا فى كثير من أرجاء وادى النيل منذ عصر ما قبل التاريخ ، حيث عثر على نماذج لها فى كل من الفيوم والبدارى وحضارة الخرطوم .

وبهذا لا يمكن اعتبار رؤوس السهام دليلا يمكن أن تعتمد عليه النظرية القائلة بالأصل الليبى للبيت الحاكم فى نبته .

٢ ــ وفيما يتعلق بلقب الملكة تابيرى الزوجة الأولى للملك بعنخى ، والذى قرأه ريزنر « كبيرة الطمياح » . فان المدقق يلاحظ وجود أخطاء فى قراءة اللقب كنتيجة لطريقة الكتابة بالمقاطع التى اتبعها المصريون فى كثير من الأحيان ، وبمراجعة الكتابات المختلفة التى وردت فى غيرها من النصوص المصرية

الأخرى فى القاموس الكبير للغة المصرية ، والخاصة بكلمة الطمياح يتضح أن قراءة ريزنر لتلك الكلمة بعيدة عن الصواب . والصحيح أن تكون القراءة « خاستيو » ومعناها « البلاد الأجنبية » فتكون الترجمة الصحيحة للقب الملكة تابيرى : « سيدة (أو كبيرة) البلاد الأجنبية » وعلى هذا لا يمكن الاعتماد على القراءة الخاطئة للقب الملكة تابيرى ثم القول بأن ــ سلالة الأسرة من أصل ليبى .

٣ ــ ثم نأتى لمناقشة الادعاء القائل بأن أسماء أفراد أ .رة نبته ليبية : يرى جريفيث أن المقطع « قه » الموجود فى اسم الملك الليبى شيشنق ليس إلا صورة أخرى للمقطع « قه » الموجود فى كثير من الأسماء الملكية لأسرة نبته مثل طهاوقة أو أمطالقة وأما نسطبارقة وغيرها . ويضيف مكادم الى ذلك فيعطى بعض الأمثلة على صحة هذا الرأى » :

إن اسم طهارقة وُرد مكتوبا : طهارقا وطهرقا .

إن اسم شيشنق قد عثر عليه مرة مكتوبا : شاشاقا .

ولو أمعنا النظر لوجدنا أن هذا المقطع الأخير « ــ قه » الذى ورد فى العديد من أسماء الملوك والملكات فى مملكة نبته : طهارقه ، أمطالقه ، أمانسطبارقه ، سيعبسبيقه ، طابرقه ، ناهيرقه (؟) هو نفسه المقطع « ــ قه » الذى استمر ظهوره فيما بعد فى نهاية الأسماء المروية سواء الملكية منها أو الخاصة بالأفراد ، والذى ترجمه البعض على أنه مقابل لكلمة المبجل أو المحترم . أى أن المقطع المذكور عبارة عن كلمة مستقلة وكانت تضاف إلى الإسم غالبا ، ولعلها كانت تقرأ معه ، كما يتضح من كتابتها بالحروف الهيروغليفية ضمن أسماء ملوك أسرة نبته مثل طهارقة وغيره .

ولذلك لا ينبغى أن تعتمد على ذلك التشابه النادر الحدوث فى كتابة نهاية اسم الملك الليبى شيشنق وبين نهاية اسم الملك طهارقة ، لنبرهن على

أن الأسماء المروية الخاصة بملوك نبته من أصل ليبى ، ويجب أن يؤخذ فى الاعتبار أن اللغة المروية التى ازدهرت فيما بعد تختلف إختلافا جوهريا عن اللغة الليبية ، وأن كثيرا من أسماء ملوك نبته يمكن تفسيره على ضوء معرفتنا باللغة المروية .

٤ ــ وأخيرا تبدو ضالة السند الأخير الذى اتخذه ريزنر ليؤكد نظريته الخاصة بالأصل الليبى الحاكم فى نبته . ونقصد به النص الذى عثر عليه فى نورى ، والذى يتحدث عن باشد باست بن شيشنق . ذلك النص المقتضب الذى اتخذ ريزنر من مجرد وجوده فى مدافن الأسرة الخامسة والعشرين فى نورى عند الشلال الرابع دليلا على وجود علاقة قرابة بين الأسرة الليبية فى شمال مصر وأسرة نبته فى شمال السودان .

وفى رأينا ، أن وجود هذا النص الذى حمله ريزنر أكثر مما يحتمل ، فى نورى ــ وهى إحدى جبانات الأسرة الخامسة والعشرين ــ قد يعنى العكس ، فلعل باشد باست المذكور هو ابن أحد ملوك الأسرة الليبية ويدعى شيشنق أيضا . وأن هذا النص المكتوب على جزء من إناء قد جاء الى نورى ضمن غنيمة أحضرها معه أحد ملوك نبته من الشمال .

وهكذا نجد أن النظرية الليبية لم تستطيع ان تصمد طويلا لاعتمادها على أدلة واهية .

ثالثا : النظرية التى تقول بالأصل المحلى للأسرة الخامسة والعشرين : رغم أن الأصل السودانى للأسرة الخامسة والعشرين منطقى ، بل هو أول ما يجب أن يتبادر إلى الذهن عند الحديث عن ذلك البيت الحاكم الذى دخل مصر من الجنوب . ثم تركها بعد حين متجها نحو الجنوب أيضا ليكون دولة مستقلة ظلت مزدهرة زمنا طويلا فى شمال السودان . إلا أننا نرى أن هذا الرأى قد أهمله الباحثون وانصرفوا عنه ، أما إلى النظرية التى تزعم أن مؤسسى ذلك البيت من أصل ليبى أو إلى الرأى القائل بالأصل المصرى . ومنذ عهد قريب بدأ المؤرخون ينادون بالأصل السودانى فمثلا

نجد أن أركل عند تعرضه لهذا ـــ الموضوع فى محاولة للتدليل على الأصل السودانى ، قد اعتبر عادة الدفن على سرير ، وعادة بناء القبر المستدير ، التى وردت فى الكرو وفى نورى أدلة على الأصل السودانى . حيث أن هاتين العادتين كانتا معروفتين فى النوبة . منذ عهد حضارة كرمة . ويضيف أركل إلى ذلك عادة زواج الأخ بأخته ، ثم يشير إلى مدن تدين عاهل الأسرة الارا ، يضاف إلى ذلك أيضا عادة التبنى التى قال أنها طابع تلك الأسرة وهو يعتبر كل هذه التقاليد من أصل محلى . كل ذلك دون أن يدخل فى أية تفاصيل .

ولقد أخذت هذه النظرية تكتسب انصارا أمثال كاتز نلسن السوفيتى و ولكان الفرنسى ، ومن قبل تردد الباحثون أمثال بدج وديوتون وفنديبه فى الأخذ بالأصل المحلى .

واذا ما اعتبرنا أن أصل الأسرة الخامسة والعشرين محلى ، أى من أهل المنطقة المحيطة بنبته ، فلابد إذا من التعرض لأصل هؤلاء السكان أى لأصل سكان شمالى السودان فى زمن ازدهار حضارة نبته ثم حضارة مروى . أو بمعنى آخر التعرض لأصل الحضارة المروية .

وقد سار البحث فى محاولة حل المشكلة كالآتى :

١ ـــ دراسة الحضارة الخاصة بالأسرة الخامسة والعشرين ، بما فى ذلك مخلفات أسلاف هذا البيت فى الكرو واستخلاص العناصر الحضارية المميزة ، واعتبارها هى نقطة البدء .

٢ ـــ البحث فى مخلفات الحضارات القديمة فى المنطقة قبل الأسرة الخامسة والعشرين عن عناصرها المحلية المميزة .

٣ ـــ البحث فى مخلفات الحضارات التالية لزمن الأسرة الخامسة والعشرين عن عناصر مميزة محلية .

٤ ـــ دراسة مقارنة العناصر المميزة لكل تلك الحضارات التى نشأت فى المنطقة حتى العصر المروى ، والخروج بنتيجة عامة .

وقد اثبت البحث أن هناك عناصر حضارية محلية ، وتقاليد تربط كل تلك الحضارات بعضها بالبعض الآخر مما يؤكد وجود صلة قرابة بينهما بطريقة أو بأخرى ، وأن حضارة الأسرة الخامسة والعشرين هى حضارة ليست غريبة عن المنطقة التى نشأت فيها ، وإنما هى تكون حلقة فى سلسلة الحضارات المحلية التى قامت فى النوبة وفى شمال السودان وهذه العناصر الحضارية تنحصر فى :

١ ـــ طريقة بناء القبر .

٢ ـــ طريقة الدفن .

٣ ـــ عادة التضحية بدفن الانسان والحيوان مع صاحب المقبرة .

٤ ـــ انتشار عادة التحلى بالاقراط المستديرة بالنسبة للرجال .

٥ ـــ يضاف إلى ذلك نتائج دراسة المصورات المختلفة لأصحاب كل من حضارة نبته ومروى فى محاولة للتعرف على شكل هؤلاء القوم . فبالنسبة لحضارة المجموعة الثالثة وجدنا العناصر المحلية الآتية :

(أ) شكل القبر المستدير .

(ب) طريقة الدفن على سرير (فى الفترة الأخيرة فقط) .

(ج)انتشار عادة دفن الدواب وغيرها من الحيوانات الأليفة عند وفاة صاحبها .

(د) انتشار عادة التحلى بالأقراط المستديرة وخاصة بين الرجال .

وبالنسبة لحضارة كرمة وجد أن عناصرها المحلية كالآتى :

(أ) شكل القبر المستدير .

(ب) عادة الدفن على سرير .

(ج) عادة دفن الحيوان .

(د) عادة التضحية بالأتباع ودفنهم أحياء مع صاحب المقبرة .

(هـ) انتشار عادة التحلى بالأقراط المستديرة .

وبالنسبة لحضارة الكرو وحضارة الأسرة الخامسة والعشرين وجدت العناصر المحلية الآتية :

(أ) شكل القبر المستدير (فى المقابر العتيقة) .

(ب) الدفن على سرير .

(ج) عادة دفن الحيوان .

(د) التحلى بالأقراط بالنسبة للرجال .

وبالنسبة لحضارة مروى وما بعدها كانت العناصر المحلية كالآتى :

(أ) القبر المستدير (بين مقابر الأفراد) .

(ب) الدفن على سرير .

(ج) عادة دفن الأتباع (ولو أنها ما زالت تحتاج الى دليل) .

(د) دفن الحيوان .

(هـ) التحلى بالأقراط المستديرة وبغيرها .

ومن دراسة تلك الحضارات يتبين لنا أن تمسك هؤلاء القوم أصحاب الأسرة الخامسة والعشرين بتقاليد عتيقة رغم قوة تيار الحضارة المصرية ، وعلى الأخص بالنسبة لتقاليد الدفن ، إن دل على شىء فإنما يدل على مدى تمسكهم بتقاليد آبائهم وأجدادهم . فلو فرض وكان هؤلاء القوم مصريين لما كانت لهم حاجة إلى ممارسة تلك التقاليد البالية التى لا يتفق بعضها مع ما وصلت اليه الحضارة المصرية من رقى وبخاصة فى فنى التحنيط والعمارة ، وهما من أوضح معالم تلك الحضارة .

والتفسير المنطقى لبقاء تلك التقاليد المحلية طوال هذه المدة حتى زمن الأسرة الخامسة والعشرين ، رغم تأثير عناصر الحضارة المصرية المباشرة على كل من حضارة المجموعة الثالثة وحضارة كرمة ، هو أن تلك العشيرة التى خرج منها بيت الأسرة الخامسة والعشرين ربما عاشت أيام الدولة الحديثة بعيدا عن متناول الأثر القوى للحضارة المصرية ، ربما اتخذت من جزيرة مروى موطنا لها . فمن المعروف أنها أصبحت أخيرا عاصمة الدولة المروية ، وقد كانت من قبل ومنذ البداية موطنا

لفرع من فروع البيت الحاكم أيام الأسرة الخامسة والعشرين . وإذا صح هذا الفرض فان توسع هذا البيت يكون قد بدأ من الجنوب الى الشمال ، وبالتالى يمكن اعتبار ملوك نبته (الأسرة الخامسة والعشرين) ملوكا مرويين .

☆☆☆ ☆☆

الفصل الرابع عشر
المومياوات الملكية

لم يعثر بداخل المقابر الملكية الخاصة بملوك الدولتين القديمة والوسطى إلا على بقايا عظمية لا تفسح المجال لدراستها بطريقة واضحة ، مع العلم أن فن التحنيط عرف منذ أوائل عصر الدولة القديمة .

وكان من الصعب تناول موضوع المومياوات الملكية قبل اكتشاف خبيئة الدير البحرى بالبر الغربى التى كشف عنها سنة ١٨٧١ م واحتفظ اللصوص بالسر حتى وصل إلى علم رجال الآثار فى سنة ١٨٨١ م فنقلت مجموعة من أهم مومياوات فراعنة مصر فى زمن الدولة الحديثة فى موكب جنائزى على مراكب فى نهر النيل ، يشبه تلك المواكب المصرية القديمة . وكان الموكب يستقبل من أهالى القرى على النيل بالنحيب والعويل ، كما كان يحدث فى الماضى السحيق تماما ، والذى حفظته لنا المناظر على الآثار .

أما الخبيئة التى عثر عليها فى داخل مقبرة الملك امنحتب الثانى بوادى الملوك بطيبة الغربية ، فقد ضمت إلى جانب مومياء صاحب المقبرة الملكية ــ الذى احتفظ بمكانه الأصلى داخل تابوته وحوله باقات الزهور ــ سبعا من فراعنة الدولة الحديثة منهم مومياء الملك تحوتمس الرابع ، ويبدو أنه كان نحيلا جدا ، وأنه مات وعمره حوالى ثلاثين سنة .

ثم الملك أمنحتب الثالث ، والمومياء فى حالة سيئة ، ويبدو أنه قد أجريت محاولات لإعادة تحنيطها فى الزمن القديم ، وتشير الدراسة إلى أن صاحب المومياء مات وسنه تتراوح بين أربعين وخمسين سنة . وتحوتمس الرابع وأمنحتب الثالث كلاهما من ملوك الأسرة الثامنة عشرة .

ومن ملوك الأسرة التاسعة عشرة مومياء مرنبتاح ، وتشير الأبحاث إلى أنه كان مريضا بتصلب الشرايين ، والتهاب المفاصل (النقرس) ، وأن جثمانه قد تعرض لإصابات جديدة بعد الوفاة . أما اللون الأبيض الذى ظهر على المومياء بسبب شدة الأملاح التى استعملت فى التحنيط فقد أرجعه البعض إلى مياه البحر الأحمر ، واعتبروا ذلك دليلا على غرق الفرعون فى مياه ذلك البحر ، وهو يطارد النبى موسى وقومه وهم فى طريقهم للخروج من مصر .

وهناك أيضا مومياء كل من الملك سيتى الثانى ، والملك سيبتاح ، والأخير يبدو أنه مات وسنه تتراوح بين عشرين وخمسة وعشرين سنة ويلاحظ أنه كان مصابا باعوجاج فى قدميه ، نتيجة تعرضه لمرض شلل الأطفال .

ومن ملوك الأسرة العشرين مومياء كل من الملك رمسيس الرابع ، ورمسيس الخامس ، ولعل الأخير أصيب بمرض الجدرى ، ومات وسنه تتراوح بين ثلاثين وخمسة وثلاثين سنة . ورمسيس السادس ومومياؤه حالتها سيئة ، وقد حدثت الوفاة بين السنوات الثلاثين والخامسة والأربعين من عمر الملك .

وخبيئة المومياوات بالدير البحرى غير بعيد من موطنها الأصلى فى المقابر الملكية بوادى الملوك ، زخرت بالعديد من مومياوات مشاهير الملوك والملكات من الدولة الحديثة . فمن الأسرة السابعة عشرة مومياء الملك سقنن ــ رع ، والذى يدعى أيضا تاعا ، وظاهر من مومياته أنه سقط صريعا فى ميدان القتال مع الهكسوس ، نتيجة تعرض رأسه لضربات بلطة أو فأس قتال آسيوية الطراز . ومعروف عنه أنه من أبطال حروب التحرير الذى أسهم فى طرد الغزاة ، ويلقب بالشجاع . وإلى جانب سقنن رع مومياء أمه الملكة الشهيرة تتى ــ شيرى ذات الأثر الجليل ، فهى زوجة الملك سقنن ــ رع الأول أو تاعا الأكبر عاهل تلك الأسرة ، وتأتى على رأس القائمة لجيل من الملكات كان لهن عظيم الأثر فى تاريخ مصر ، منهن إبنتها الملكة ايعاح ــ حتب ، زوجة البطل سقنن ــ رع الثانى صاحب المومياء . وهى أم بطلى الجهاد كامس وأحمس ، ومن بعدها الملك أحمس ــ نفرتارى زوجة الملك أحمس الذى

أوقع بالهكسوس وهزمهم هزيمة نكراء ، لم تقم لهم من بعدها قائمة ، وأعاد إلى مصر وحدتها واستقلالها .

ومن ملوك الأسرة الثامنة عشرة مومياء الملك أحمس وهى فى حالة سيئة . ويلاحظ أن الجمجمة مفرغة من المخ ، وهى أول حالة نعرفها حتى الآن كما أن الفرعون لم يتم ختانه ، وعندما كشفت عنه أكفانه عثر على أكليل من الزهور حول عنقه . ثم مومياء أخته وزوجته الملكة أحمس ــ نفرتارى .

ومومياء الملك امنحتب الأول كانت مغطاة بالزهور ، وضعت داخل تابوت على هيئة آدمى ، ملون باللون الأبيض ، وما زالت المومياء ، ملفوفة جيدا بلفائف الكتان ، مما يشير إلى أنه قد أعيد عمل لفائف التحنيط له مرتين فى زمن الأسرة الحادية والعشرين . وفى منطقة سكن عمال البناء فى دير المدينة بالبر الغربى بطيبة ، والذين كانوا يعملون فى وادى الملوك ، اعتبر الملك أمنحتب الأول إلها ، يتضرعون إليه ويقدمون له الولاء ، فلعله أول من اهتم بأمرهم فنظمهم وأعطاهم حقوقهم ، ومن أجل ذلك رفعوه إلى مصاف الآلهة . وهؤلاء العمال يمثلون أكبر تجمع عمالى مستقر فى العالم القديم . وهم أول من قاموا بالثورة المنظمة على الملوك ، وقصة ثورتهم مسجلة بالتفصيل فى البرديات المصرية المعاصرة .

وهناك أيضا أخته وزوجته الملكة أحمس مريت أمون ، ومازالت المومياء ملفوفة بإحكام . ثم مومياء الملك تحوتمس الأول ولكن نسبتها إليه غير مؤكد ، نظرا لأن صور الأشعة توضح أن الوفاة حدثت فى سن العشرين ، بينما المعروف تاريخيا أنه مات فى سن الخمسين على الأقل ويعتقد أنه من أبناء سلفه الملك أمنحتب الأول من أحدى الجوارى .

وكان له وريث هو الأمير أمون ــ موسى ولكنه مات فى حياة والده ، فسعى تحوتمس الأول لتزويج إبن آخر له من جارية تدعى موت ــ نفرت ، بإبنته الشرعية الأميرة حتشبسوت ، الوريثة وصاحبة الحق الأول فى العرش بعد وفاة ولى العهد ،

لكى يجعل منه وريثا شرعيا ووليا لعهده معترفا به من الجميع وقد اعتلى العرش بعد وفاة والده تحوتمس الأول . وهو الذى بنى بهوا ذا عمد لآمون فى الكرنك ، وأقام عند مدخله مسلتين بمناسبة الاحتفال بعيد جلوسه ، وما زالت إحداهما قائمة فى مكانها . وفى خبيئة الدير البحرى عثر أيضا على مومياء الملك تحوتمس — الثانى ، وكان عمره عند الوفاة حوالى ثلاثين سنه . وقد أكد أحد رجال الدولة المدعى إننى حينذاك خلافة الملك تحوتمس الثانى للعرش بعد وفاة والده تحوتمس الأول . كما تحدث قائد الجيش المدعى أحمس الكابى عن أعمال الملك الحربية ضد بدو الصحراء على حدود سوريا ، حيث أحضر فى حملته عددا كبيرا من الأسرى . وعلى الصخور — الجرانيتية الواقعة على الطريق ما بين أسوان ومنطقة الجندول الأول ، كتابات تسجل أخبار حملة أرسلها تحوتمس الثانى إلى بلاد كوش فى السودان القديم لإخماد ثورة قامت هناك .

ويشاء القدر أن تنجب زوجته الملكة حتشبسوت إبنتين فقط وتحرم من الولد ، فكادت آمالها فى الاستقلال بالعرش التى راودتها من قبل بعد وفاة والدها تحوتمس الأول أن تتبخر مرة أخرى ، تلك الآمال التى كان من الممكن أن تتحقق لو أنها رزقت بمولود ذكر ، وقامت منه مقام الوصية ، لتتاح لها الفرصة للانفراد بالملك .

الا أنه والحالة هذه سعى رجال القصر المقربين إلى إيجاد مخرج لمليكتهم لكى يجنبوها شر المنازعات والخلافات الحادة . فلجأو إلى إبنة الملكة حتشبسوت واسمها « نفرو — رع » صاحبة الحق فى العرش فزوجوها من أمير يدعى تحوتمس من أولاد الملك تحوتمس الثانى من جارية . وكان الزوجان فى عمر الصبا ، فأعلنت الملكة حتشبسوت نفسها وصية على العرش . واستلمت مقاليد الحكم والسياسة ، يساعدها فى ذلك بعض مشاهير رجال الدولة ، وعلى رأسهم المهندس « سنموت » وكان مقربا من الملكة ، إذ أصبح فى فترة وجيزة مربيا وراعيا لابنتها الأميرة « نفرو — رع » الوريثة الشرعية ، ومنهم أيضا الوزير المدعو « حبوسنب » ، وكان من أشد المقربين من الملكة ، وكان يحمل لقب لسان الملك وسمعه وبصره فى أنحاء الوادى ، وقد

سيطر « حبوسنب » على السلطة الدينية فى مصر كلها ، عندما أصبح كبيرا لكهنة المعبود « آمون — رع » .

وفى خبيئة الدير البحرى كشف عن مومياء الملك تحوتمس الثالث التى تعرضت لمحاولات عديدة فى تحنيطها وإصلاح ما فسد بها ولذلك يصعب التعرف على عمر الملك لدى وفاته .

وهناك أيضا مومياء لملكة كان يظن أنها لحتشبسوت ، ولكن يعتقد حاليا أنها للملكة « تى » زوجة الملك أمنحتب الثالث (لوحة رقم ٢١) .

ومن ملوك الأسرة التاسعة عشرة مومياء الملك سيتى الأول ومومياء ابنه وخليفته الملك رمسيس الثانى (لوحة رقم ٢٢) ، ذلك الذى حظا من بين ملوك مصر القدماء بشهرة الأهرام أو نهر النيل ، وانتشرت آثاره فى كل مكان من أرض مصر وفى مناطق أخرى كثيرة من حولها (لوحة رقم ٢٣) .

أما مومياء الملك رمسيس الثالث بطل المعارك الكبرى مع هجرات شعوب البحار ، فقد عثر داخل التجويف الصدرى لها على عدد من التماثيل الصغيرة . ومن دراسة حالة المومياء تبين أنه مات فى سن الخامسة والستين .

بالإضافة إلى هاتين الخبيئتين فى كل من الدير البحرى ومقبرة أمنحتب الثانى . عثر فى المقبرة رقم « ٥٥ » بوادى الملوك على مومياء كانت تنسب خطأ للملك أخناتون ، ولكن الراجح أنها للملك « سمنخ كا — رع » من ملوك الأسرة الثامنة عشر ، الذى يعتقد أنه الأخ الأكبر للملك « توت — عنخ — آمون » . وجدير بالذكر أن المقابر الملكية التى كشف عنها فى تانيس لم تحتوى إلا على هياكل عظيمة فقط ، وفى مقبرة الملك « توت — عنخ — آمون » عثر على موميائه فى مكانها الأصلى داخل التابوت لم تمس .

وقد خضعت المومياوات المذكورة للدراسة والفحص ثلاث مرات : الأولى لدى اكتشافها ، وقام بها رجال المتحف المصرى . والثانية سنة ١٩١٢م بواسطة

العالم اليوت سمث وهو يعد كتالوج المتحف عن المومياوات الملكية . والمرة الثالثة ما بين سنتى ١٩٦٦م ، ١٩٧٣م بوساطة فريق أمريكى طبى استعمل الأشعة السينية ، فأعطى الفرصة لدراسة تلك المومياوات الملفوفة بإحكام ، كما تعرضت مومياء الملك رمسيس الثانى لدراسة مركزه لحمايتها من التحلل .

وشرعت الدولة حاليا فى بذل أقصى طاقة لحماية مومياوات الملوك ، فوضعت الدراسات من قبل اللجان المتخصصة التى تقدمت بحل عاجل ومشروع مفصل : أما الحل العاجل فيشمل تغيير الوضع الحالى للمومياوات فى مكانها بالمتحف المصرى لتخفيف تكدسها فى قاعة واحدة ، مع التحكم بالوسائل الحديثة فى نظام التعقيم والتهوية ودرجات الحرارة والرطوبة وكمية الأشعة الضوئية . واعادة تعقيم المومياوات بأكفانها ، وتطهير توابيتها وهى توابيت بديلة .

والمشروع المفصل هو ضريح أو متحف جماعى ماوزوليوم يتناسب مع جلال وعظمة الفراعنة ، ولا يحرم الزائر من التعرف على براعة التحنيط . يختار مكانه فى منطقة وادى الملوك بالأقصر أو بمنطقة هضبة الجيزة ، أو على موقع مناسب فى أرض المعارض بالجزيرة بالقاهرة ، بشرط أن يتجانس معماريا مع طبيعته وبشكل المقابر الملكية المحفورة فى جبل طيبة الغربى .

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

الفصل الخامس عشر

الصراع على السلطة ودور الكهنة
فى كتابة تاريخ مصر

كانت معبودات المصريين على اختلاف صورها من وحى الطبيعة . فهم قد جالوا بأبصارهم فيما حولهم من كائنات ، وكانت نظرتهم فاحصة ، تسعى لادراك بواطن الأمور قبل ظواهرها ، فقدسوا كثيرا من الحيوان ونبات والشجر والحجر مقدرين أن فيها أسرار إلهية . ثم ارتقوا ببصرهم وعقيدتهم ، فبلغوا السماء يبحثون فى كواكبها ونجومها ، وطبيعى أن تحظى الشمس باهتمامهم ، فتخيلوها طفلا يولد فى الشرق أسموه (خبر) أى الكائن المستمر . فإذا ما بلغت كبد السماء فى الظهيرة أسموها (رع) . وعندما تأخذ أهبتها للمغيب حملوها اسم (آتوم) أى الكامل وجعلوا منه خالق الخلق ، وأبا لكل المخلوقات .

بدأ تقديس المصريين للشمس فى هليوبوليس ، التى سميت قديما باسم « أون » أى المرصد أو البرج حيث كانوا يرقبون الشمس منه . وحمل كاهنها الأعظم اسم عظيم الراصدين ، وتطورت العقيدة مع الزمن حتى استطاعت أن تثبت نفسها فى المدة التى استخلص فيها المؤرخون أن المصريين قد كونوا حكومتهم المتحدة الأولى فى هليوبوليس حوالى عام ٤٢٤٠ ق.م .

وكان لأصحاب عقيدة الشمس فى الخلق نظرية فكان آتوم ــ رع ربا للكون ، وخالقا لكل شىء وهو الأول وهو الآخر ، خلق الماء والهواء ، ومنهما ولدت الأرض والسماء اللذان انجبا أول جيل من البشر اثنين من الذكور ، واثنين من الإناث وهو ما يعرف بتاسوع هليوبوليس كما سبق ان ذكرنا .

وعندما ضعفت الدولة المتحدة الأولى فى هليوبوليس ضعفت معها عقيدة الشمس ، ولا ندرى كيف كان حال مصر بين فترة الاتحاد الأولى وتلك التى تلتها على يد الملك « نعرمر ــ مينا » مؤسس الأسرة الأولى .

وجاءت الدولة المتحدة الجديدة بدين جديد هو دين « بتاح » ومعناه « الفتاح » والفتح هو أول خطوة من خطوات الصناعة التى تميزت بها منف عاصمة ذلك الاتحاد ، وأصبح بتاح رمزا للصناعة والفن . فمصر كانت قد استكملت نهضتها الزراعية وبدأت تتطلع إلى الصناعة . وكان قربها من المحاجر الجيدة سببا فى ازدهار فن البناء والتعمير .

وتنقضى أيام الأسرة الأولى ، وفى أيام ملوك الأسرة الثانية نلاحظ أن دين الشمس يحاول أن يبعث من جديد . وذلك يبدو فى إسم ثانى ملوك هذه الأسرة المدعو « نبى — رع » ومعناه (ربى — رع) . ومعنى ذلك أن الدعوة إلى مذهب الشمس وصلت فعلا إلى الملوك . ولو اضفنا إلى ذلك ما وقع من خلافات دينية أيام الملك « برايب — سن » حيث تعارضت عقائد أهل الجنوب أصحاب الاتحاد الثانى مع عقائد أهل الشمال . ثم ما وقع من قتال مع الثوار وبناء القلاع عند بلدة الكوم الأحمر (قرب الكاب) أيام الملك « خع — سخموى » لاتضح مدى نشاط التبشير لمذهب الشمس .

فكرة بناء الهرم :

وفى أيام الملك زوسر يخرج لنا المهندس الوزير « ايمحتب » ، آية من آيات مذهب الشمس وهى فكرة بناء القبر الملكى على هيئة الهرم . « ايمحتب » كان رجلا من أهل الشمال متأثرا بعقيدتهم مؤمنا بها ، وكان الإلهام الرئيسى لفكرة الهرم دينيا .

وتدخل مصر فى حكم الأسرة الرابعة ، ويبدو جليا إذا أستثنينا إسمى سنفرو وخوفو من أسماء ملوك هذه الأسرة ، أن أهل الشمس لم ييأسوا من التبشير لمذهبهم . أما أسماء ددف — رع وخفرع ومنكاورع فإسم رع (أى الشمس) يؤلف جزءا أساسيا من ألقابهم . كما أن هؤلاء الملوك بنوا مقابرهم على النحو الهرمى الضخم . وفى زمن الأسرة الرابعة ظهر لقب جديد حمله الملوك هو لقب ابن الشمس مثل الملك خفرع ومنكاورع ومن بعدهما من الملوك .

وفى بردية فستكار المحفوظة حاليا فى متحف برلين عدة قصص أدبية ، حاول واضعوها ، الذين لا نشك فى أنهم من كهنة الشمس أن يكفروا الملك خوفو لأنه لم يسمح لهم بالتدخل فى السياسة .

معابد الشمس :

فى أواخر أيام الأسرة الرابعة انصرف ملوكها عن بناء الأهرامات ، وربما كان ذلك رمزا لانصرافهم عن مذهب الشمس بدليل أن أسماءهم تخلو من ذكر كلمة (رع) مثل الملكة « خنت ـــ كاوس » والملك « شبسسكاف » . ولا ندرى كيف انتقل الحكم من الأسرة الرابعة إلى الأسرة الخامسة حيث وصل كهنة الشمس إلى عرش مصر وأسسوا الأسرة الخامسة ، وفى أيامهم غدا المظهر كله دينيا صرفا ، فهذه عمائر ملوك الأسرة الخامسة تكاد تنحصر فى إقامة هياكل الشمس .

ومعبد الشمس . كان بناء مكشوفا لا يحجبه عن ضوء الشمس حائل ، تقوم فى وسطه مسلة على قاعدة عالية يبلغ ارتفاعها حوالى ٦٠ مترا . ومن أمام المسلة مذبح من المرمر تقدم عليه القرابين ، وهناك أماكن لنحر الذبائح وحفظ الغلال . وتتحدث المصادر أن قمم هذه المسلات كانت تغطى بمخلوط الذهب والفضة ، كما ورد على لسان أحد رجال الدولة أيام الملكة حتشبسوت أنه قد عمل مسلتين للملك تحوتمس الثالث وغطى قمتيهما بمخلوط الذهب والفضة ، فإذا ما سطعت أشعة الشمس انعكست على قمة المسلة وكأنها مصدر الضوء . وكان هناك طريق مسقوف على جدرانه رسوم تمثل الجيوش المنتصرة ، وفضل إله الشمس على الناس .

ويلاحظ أن هياكل الشمس كانت خالية من التماثيل ، باستثناء زورقين أحدهما لرحلة الشمس نهارا ، والآخر لرحلة إله الشمس ليلا تحت الأرض ينحتان فى الحجر ، ويقعان خارج المعبد ، ومعابد الشمس بنيت فى منطقة أبو صير بين الجيزة وسقارة ، واستمر بناء معابد الشمس أيام ملوك الأسرة الخامسة حتى عصر الملك « إسيسى » ، فمنذ عهده لم تبن للشمس هياكل ، إذ بدأت عبادة أزوريس تطغى عليها .

وبناء معابد الشمس على هذه الكيفية مرجعه إلى الماضى السحيق ، عندما كانت الشمس تعبد فى هليوبوليس ، وكان معبدها فناء مكشوفا فى وسطه شجرة يأوى إلى ظلها المصلون وقت الظهيرة ، ولاحظ الكهان طائرا هادىء الحركة ، أبيض اللون سموه طائر البنو وهى يقابل العنقاء فى الأدب العربى وسماه الإغريق فونكس ، يأوى إلى هذه الشجرة فى فترات معلومة ، ويغادرها فى مواعيد محددة . وظن كهنة الشمس أن هناك علاقة بين الطائر وبين إله الشمس ، فاتخذوا منه رمزا للشمس ، وظلت تلك الصورة فى ضمير الناس لا تمحوها الأيام إلى أن استطاعت أن تعبر عن نفسها فى العصر التاريخى ، فاستبدلوا بالشجرة مسلة قائمة . وأما الطائر — رمز الشمس — فقد صور على قطعة من الحجر على شكل الهرم الصغير تمثل قمة المسلة فى العصور التاريخية المختلفة . ومصدر معلوماتنا عن ذلك المعبد القديم من الأساطير المتأخرة فى قبر الملك سيتى الأول بوادى الملوك .

وفى أواسط أيام الأسرة الخامسة بدأ الملوك يضيقون ذرعا بنفوذ الكهنة الذى استشرى كثيرا ، ظهر ذلك فى قصة الكاهن رع — ور المسجلة على جدران قبره فى الجيزة . وإن قبر هذا الكاهن وما كان يحويه من تماثيل بلغت ١٢٠ تمثالا ليعد دليلا ماديا على مدى اتساع نفوذ كهنة الشمس .

نصوص الأهرام :

وفى زمن آخر ملوك الأسرة الخامسة ظهرت نصوص الأهرام ، وهى كتابات دينية مدونة على جدران غرفة دفن الملك من الداخل ، وهى تتضمن مراثى لفرعون المتوفى مقسمة إلى بنود (عزائم) منها ما يقال يوم وفاته ، ومنها ما يقال يوم الدفن ، وهى تشير ، بطريقة غير مباشرة ، إلى كثير من نواحى الحياة السياسية والملكية فى مختلف أدوارها ، وفيها تصور عقيدة الناس والملوك فى كثير من العهود ، وتبين مكان الملك من الرعية ومكانه من الآلهة ، كما تصور النزاع على الملك ، وأدوار الكفاح من أجل الوحدة وفيها أدعية وأناشيد رددها الناس فى الملاحم الكبرى بين الملوك الذين وصل حب الناس لهم حد التقديس ، وفيما ما يشير إلى عقيدة

أوزيريس ، وتلتقى العقيدتان فى كثير من الأحيان ، كل ذلك دون فى بطون أهرامات خمسة ملوك — أولهم أوناس آخر ملوك الأسرة الخامسة .

ولعل السبب المباشر فى ظهور هذه النصوص الدينية على هذا النحو ، هو ذلك الصراع المحتدم بين أصحاب مذهب الشمس القديم ، وبين مذهب بتاح الناشىء ، ويبدو أن الخلافات الحزبية الشديدة بين بعض الملوك وبين كهنة الشمس قد دفعت الملوك الى البحث لأنفسهم عن شىء وسط ، فجعلوا هذا المزيج المختلط دينا وسطا ، معدوم اللون بحيث لا يدفع الناس الى الجدل ، وخلق المشاكل بين الأحزاب . فمتون الأهرام لم تحتضن مذهبا من المذاهب ، بل تناولت كل المذاهب على السواء .

والواقع أن ذلك التحذير المتعمد من جانب الملوك لم يؤثر فى كهان الشمس بالذات ، فالمؤرخ المصرى مانيتون يذكر أن الملك تتى مؤسس الأسرة السادسة مات مقتولا ، ولا يستبعد أن ذلك كان من فعل كهنة الشمس ، لأنه جاهرهم بالعداء ، وفضل عليهم الإله بتاح ، وفى المتحف البريطانى لوح لكاهن بتاح المدعو سابو يؤكد ذلك .

وسارت أمور الدين بعد ذلك فى طريق وسط لا عنف فيه ولا جدال . ومضت الأسرة السادسة فى هذا السبيل حتى شاخت وزالت دولتها . وليس من شك فى أن زوال هذه الأسرة قد مهد لأصحاب الشمس أن يواصلوا جهادهم فى سبيل نشر الدعوة ، فلم تكد شمسها تختفى حتى بدأ دين الشمس يغزوا الأقاليم المصرية غزوا وئيدا ، فلم يحاول كهنته مواجهة معبودات الأقاليم ، وإنما حاولوا أن يوجدوا الصلات بينها وبين الشمس ، فخلعوا اسم الشمس على كثير منها مثل خنوم — رع الذى عبد فى أقليم أسوان عند الشلال الأول وفى إسنا وفى بنى حسن وأهناسيا وما جاورها — ومثل سبك — رع معبود الفيوم ... وهكذا .

وفى زمن الأسرة الثانية عشرة من الدولة الوسطى استمر دين الشمس فى الازدهار ، فهذا أول ملوكها أمنمحات الأول ، لقب نفسه باسم (سحتب — إيب

رع) أى مسعد الشمس وفى ذلك دليل على ما كان لأصحاب مذهب الشمس من حظوة لدى الملوك ، كما أنه بنى قبره فى اللشت على النحو الهرمى وكذلك نهج خلفاؤه من بعده .

أما الملك سنوسرت الأول فقد كان بعيد النظر ، إذ بدأ مبكرا فى بناء معبد لإله الشمس (حورس سيد الأفق = حور أختى) فى هليوبوليس ، لم يبق من آثاره سوى إحدى المسلتين اللتين كانتا تقومان عند مدخل المعبد . كما أن هذا الملك قد حمل لقب (خبر ـــ كا ـــ رع) أى أنه انتسب إلى الإله رع .

وانتهى عصر الدولة الوسطى ، ووقعت البلاد فريسة الانقسامات والخلاف واستغل الهكسوس ذلك واحتلوا مصر ، وأتوا بمعبودهم « بعل » ووحدوا بينه وبين المعبود « ست الذى كان يعبد فى شرق الدلتا فى ذلك الحين ، ولكن بعض مظاهر عقيدة الشمس بدأت تظهر فى أسماء أولئك الغرباء .

وانتهت أيام الهكسوس ، وأقيلت مصر من عثرتها على أيدى ملوك طيبه ، التى أصبحت عاصمة للديار كلها فى عصر الأسرة الثامنة عشرة ودانت بدين آمون ، ثم أسموه آمون ـــ رع . وكانت كل معابد آمون تصوره وتصفه على أنه رع . وحملت طيبه نتيجة لذلك لقب البرج الجنوبى أو هليوبوليس الجنوبية . وكان آمون يلقب برب المشرق والمغرب مثل رع تماما .

واتخذ المصريون من منف عاصمة إدارية وحربية تعسكر فيها الجيوش ، ويقيم فيها ولى العهد ، حيث يربى تربية عسكرية صارمة ، وكان من بين هؤلاء الأفراد الأمير تحوتمس (وهو الملك تحوتمس الرابع فيما بعد) ، نسبت إليه قصة طريفة خلاصتها أنه خرج يوما يصطاد فى صحراء الجيزة ، ولما اشتدت حرارة الشمس آوى إلى جوار أبى الهول يستظل بظله ، فلما أخذته سنة من النوم تراءى له الإله رع رب المشرقين صاحب تمثال أبى الهول ، ووعده الإله بحكم مصر دون سائر أخوته جميعا إن هو أمر بتحريره من طغيان رمال الصحراء ، وفعل الملك وأوفى الإله بوعده ، وأمر الملك بتسجيل ذلك على لوح حجرى أقيم عند قدمى أبى الهول (يعرف باسم لوحة

الحلم) ، ويعتقد المؤرخون أن القصة من وضع كهنة الشمس دعاية لمذهبهم . ومعنى ذلك أن الدعوة لمذهب الشمس بدىء بالتمهيد لها منذ أواسط أيام الأسرة الثامنة عشرة . ومن الأدلة الأخرى على نشاط الدعوة فى عصر الملك تحوتمس الرابع ، ذلك اللوح الذى عثر عليه فى معبد أمنحتب الثانى بجوار أبى الهول ، وعليه دعاء إلى إله الشمس كى يمنح الملك تحوتمس الرابع حياة رغدة . وأعلا اللوح صورة لقرص الشمس بجناحين يمتد منه يدان .

وفى زمن الدولة الحديثة طلع الكهنة على الناس بما عرف باسم كتاب الموتى وهو مجموعة من التعاويذ توضع مع الميت ليقى نفسه شر أهوال العالم الآخر . والملاحظ أن تلك التعاويذ تشير إلى عقيدة الشمس .

والمتتبع لحياة أمنحتب الثالث الذى خلف تحوتمس الرابع يرى أنه كان يعمل دائما على إضعاف قوة كهنة آمون والأخذ بدين الشمس : فنحن نعرف أن كهنة آمون ساعدوه على بلوغ العرش رغم أنه لم يكن من أولاد تحوتمس الرابع ، وحبكوا لذلك أسطورة مفادها أن آمون تمثل لأمه المدعاة موت ــ أم ــ ويا فى صورة تحوتمس الرابع ، وحملت منه بأمنحتب الثالث ، الذى أراد له ربه آمون أن يحكم بعد سلفه . كل ذلك لأن كهنة آمون كرهوا أن يلى العرش أحد أبناء تحوتمس الرابع ، بعد ما رأوا منه صدا لدينهم وميلا إلى مذهب رع .

إلا أن أمنحتب الثالث لم يسر على هوى كهنة آمون ، فلم يتردد فى بناء معبد الشمس داخل ديار آمون بالكرنك ، لم يبق من آثاره إلا قطعة واحدة توجد حاليا بمتحف برلين مصور عليها إله الشمس ، على هيئة آدمى له رأس صقر ، وعلى رأسه قرص الشمس ، وحمل كل صفات إله الشمس التى عرف بها منذ نهضته الأولى زمن الأسرة الخامسة وحتى زمن ذلك الفرعون ، فهو حورس صاحب الأفق وهو شو ، وهو الذى فى قرص آتون . واللقب الأخير يدل على أن أمنحتب الثالث وقومه قصدوا الشمس فى كوكبها أى فى قرصها المضىء تماما كما فعل اخناتون من بعد ، عندما قام بثورته الدينية .

ويلاحظ أن الملك امنحتب الثالث قد خرج على الناس بتقليد جديد ، ذلك أنه أرسل ابنه الأمير تحوتمس إلى منف لا ليكون على رأس الجيش فحسب ، بل جعله كبيرا للكهنة أيضا ، وأعطاه إمارة الدين فى مصر كلها لكى يبسط سلطانه على كهنة آمون ويضعف من نفوذهم . ونراه قد اهتم بمنف فبنى لنفسه قبرا ، وبنى للاله بتاح معبدا ، هدمه رمسيس الثانى لبناء معبدا له . وقصد بذلك أن يصرف الناس عن طيبة وكهنة آمون ، وأمنحتب الثالث كان قد سجل قصة نسبه إلى الإله آمون ليثبت بها نسبه الشرعى ويؤكد أحقيته فى العرش ، إلا أنه بعد أن اطمأن إلى قوته ، وراعه ما لكهنة آمون من نفوذ ، أخذ يعمل على إضعافهم .

من ذلك نرى أن ثورة أخناتون كانت ثورة طبيعية لها مقدماتها وأسبابها فى هذا الوطن المصرى . وهى انتصار لمذهب الشمس عندما ثار الملك على كل المعبودات ووحدها كلها فى إله واحد ، جعل أهم مظاهره قرص الشمس تخرج منه أشعة تنتهى بأكف توزع الخير على الناس أجمعين .

وقد ادعى أحد المؤرخين أن مذهب التوحيد مذهب دخيل ، وفد على مصر من بلاد الشرق القديم حيث انتشرت عبادة إله يدعى أدوناى أو أدون أو آتون طبقا للهجات القبائل المختلفة هناك أى أن المؤرخ افتراضه على أساس تشابه فى اللفظ .

ولقد فاته أن مذهب الشمس هو أقدم وأعرق دين عرفته مصر ، وأن المصريين قد أسموا الشمس آتون ومعناها الكامل ، وآتون وهو قرص الشمس الذى اتخذه أخناتون ربا . والمؤرخ لم يدقق فى معنى آدون ، أدونيس ، ذلك أن أهل الشرق قصدوا به ربيع الحياة وبعثها ، وليس فى هذه الصفات ما يمكن أن يقربه من إله الشمس معبود المصريين آتون .

الفصل السادس عشر

الأسماء والألقاب الملكية

كما كانت أسماء الآلهة ذات طبيعة سحرية فى نظر القدماء . كذلك كانت أسماء وألقاب الملوك ذات قوى سحرية خاصة . فمنذ زمن الدولة الوسطى أكتملت الأسماء والألقاب واستقرت على خمس أسماء هى : الاسم الحورى أو المنسوب للاله حورس ، الوريث الشرعى لملك مصر . والسيدتان أو التاجان أو الإسم الذى ينسب إلى ربتى الشمال والجنوب الكوبرا والعقاب ، وفى نصوص الأهرام اعتبرت كل من الآلهتين مرضعتين للملك . ثم الإسم الذهبى على اعتبار أن الذهب معدن ملكى وقد ذكر فى الآداب إلدينية أن أعضاء الملك كانت من الذهب . وبعد ذلك لقب أو اسم العرش ، وجميعها يتقلدها الملك عند ارتقائه العرش . وأخيرا يأتى الإسم الذى حمله الملك منذ مولده ، أى الإسم الأصلى ، وكان الإسمان الأخيران يحاط كل منها ببيضاوى ، يطلق عليه إسم خرطوش ، على اعتبار أنهما أهم الأسماء الملكية ، ويرمزان إلى الحماية المطلقة المزودة بالسحر :

١ ـــ أما اللقب الحورى فقد ظهر فى أول العصر التاريخى منذ ظهور الكتابة ، فالملك « العقرب » والملك « كا » من قبل ظهور الملك « نعرمر ـــ مينا » مباشرة حمل كل منهما لقب حورس ، وكذلك الملك « نعرمر ـــ مينا » على لوحه المشهور ، ويمثل الملك بوصفه الوريث الشرعى لملك الإله حورس ، حيث كتب الاسم داخل صورة مصغرة لواجهة القصرالملكى ، ويربض عليه طائر الصقر رمز المعبود حورس . وفى الأسرة الثامنة عشرة وحتى الأسرة الثالثة والعشرين ، أضيف إلى هذا اللقب صفة « الثور القوى » أيضا .

٢ ـــ ولقب السيدتين أو الربتين (نبتى) ، عرف من عصر خامس ملوك الأسرة الأولى .

٣ ـ أما اللقب « الصقر الذهبى » فقد ذكرت الحوليات من زمن الأسرة الخامسة المسجلة على حجر بالرمو أنه كان معروفا منذ عصر ما قبل الأسرات ، ولكن ليس لدينا دليل على ذلك . وقبل زمن الدولة الوسطى لم يكن الصقر قد استقر كجزء من هذا اللقب ، فوق علامة الذهب .

٤ ـ ظهر إسم العرش ، أول الأمر زمن الملك « نفر ـ إر ـ كارع » من ملوك الأسرة الخامسة ، وكان يميز بالبيضاوى أو الخرطوش وأصبح من أكثر الألقاب الملكية شيوعا منذ أواخر أيام الدولة القديمة .

٥ ـ إسم الميلاد الذى حمله الملك وهو ما يزال أميرا ، ويستمر فى حمله بعد بلوغه العرش . ولم يظهر إلا زمن الملك سنفرو فى بداية الأسرة الرابعة ، مع أن قوائم الملوك فى الحوليات أشارت إلى استعماله منذ زمن الملك (مينا) . وكان يكتب داخل الخرطوش ، الذى يميز أسماء الملوك ويسبقه منذ أواخر أيام الدولة القديمة لقب (ابن الشمس) .

وكان يتقدم موكب الملك حاملو الأعلام والشارت أطلقوا عليهم أحيانا إسم أتباع حورس ، مهمتهم فى نظر العقيدة الدينية حماية الملك ، وإبعاد الأعداء عن طريقة ، ثم مساعدته بعد الوفاة فى أمور كثيرة تتصل بالطقوس المعقدة التى تخيلوا أنها ضرورية من أجل البعث والنشور .

وبمساعدة تلك القوى السحرية كان المفروض أن الملك يستطيع أن يتشكل فى أى صورة من الصور عندما يصعد إلى السماوات العلى .

الفصل السابع عشر

أسباب سقوط الدولة فى مصر القديمة

قامت الدولة القديمة المصرية (٢٦٦٠ ــ ٢١٦٠ ق.م.) قوية راسخة البنيان بعد أن مهدت لقيامها مرحلة للإعداد والتمهيد متمثلة فى العصر « العتيق » أو العصر « المبكر » (٢٩٥٠ ــ ٢٦٦٠ ق.م.) الذى دام زمنا طويلا يقدره البعض بأربعمائة وخمسين سنة على الأقل [٥] .

وكان الملك فى نظر المصريين إلها تبنى المعابد الجنائزية الملحقة بالأهرامات لعبادته وتتحدث عنه اللغة الرسمية بما يقال عادة لإله الشمس ــ رع . فحين يتوج الملك يقال « أشرق الملك » وعند مماته يقال رحل الملك إلى السماء أو صعد إلى أفقه (لوحة رقم ٢٤) .

إزدياد نفوذ الكهنة :

وفى الأحاديث والمكاتبات الرسمية هناك الكثير من الحذر عند الإشارة إلى الملك فتارة يدعونه الإله أو الحاكم أو جلالته أو حورس وتارة أخرى يبنى الفعل للمجهول . وكان موكب الملك يحاط دائما بهالة من القدسية ، وكان كل ما يتصل به مقدسا كالتيجان والصولجانات وشارات الملك وغيرها ، وروى أنه خلال أحد الاحتفالات الدينية زمن الملك « ساحورع » م الأسرة الخامسة (٤٢٧٠ ــ ٢٣٢٠ ق.م.) حدث أن مست عصا الملك أحد كبار الكهنة عفوا ، وكان معنى ذلك أن يتعرض ذلك الكاهن للموت لولا أن تدخل الملك شخصيا فأزال السحر بكلمة منه ، كما ورد فى أسطورة ميلاد ملوك الأسرة الخامسة المدونة على بردية فستكار :

Papyrus Westcar, Berlin p. 3033 A. Erman, Die Maerchen des Papyrus Westcar, Berlin 1890.

أنه عندما يحين ميلاد طفل ملكى تسعى إليه آلهة خاصة للإشراف على مولده ولحمايته ، أما الأسطورة ذاتها فهى محاولة من كهنة إله الشمس — رع للتمهيد والإعداد لاستيلائهم على السلطة ، وفرض مذهبهم على الدولة بعد صراع طويل عرف طريقه إلى القصر الملكى فى أواخر أيام الأسرة الرابعة ، وأسهم ملوك الأسرة الخامسة فى ضياع هيبة الملك بتنازلهم عن قسط كبير من سلطاتهم للكهنة ردا للجميل لطوائف كثيرة من الأقارب والأصهار ، والذين لم يكن لهم من عمل سوى الحصول على رواتب سخية من الخزائن الملكية ، ثم سعيهم لبناء مقابر تضارع فى عظمتها مقابر الملوك وكان ذلك اتجاها خطيرا لتغير بنيان الدولة المصرية .

الصراع على السلطة :

سقطت الأسرة الخامسة — أسرة كهنة إله الشمس — رع نتيجة للصراعات الحادة بين القصر الملكى وبين الكهنة ولكنها خلفت وراءها ظلالا كثيفة من الشك حول قدسية الملك فى نظر الرعية بعد أن كانت من قبل من المسلمات .

وفى بداية أيام الأسرة السادسة (حوالى ٢٣٢٠ — ٢١٦٠ ق.م.) عرفت الثورة طريقها إلى القصر ، وسقط الملك « تتى » مؤسس هذه الأسرة صريع المؤامرات التى اشترك فيها بعض نساء القصر ، كما نتبين من أقوال رحالة العصر « أونى » الذى عاش فى أوائل زمن الأسرة السادسة وسجلها على جدران مقبرته بأسوان : « فى الحريم الملكى أقيمت الدعوى ضد زوجة الملك فى سرية ، ولقد أمرنى جلالته أن أتوجه للإشراف على المحاكمة » .

نفوذ أمراء الأقاليم :

ومما أسهم فى ازدياد الأحوال سوءا ، أن تطورا خطيرا آخر حدث فى الأقاليم متمثلا فى تصرفات أمراء المقاطعات الذين أخذوا يحاكون الملوك فى كل شىء ، إذ أصبح أمير الاقاليم يلقب نفسه « بالحاكم الأعظم » و« الكاهن الأكبر للإله

المحلى » و« قائد الفرقة الحربية المحلية » ، أى أن حاكم الإقليم أصبح يجمع فى يده كل السلطة فى إقليمه . كما اتخذ الأمراء لهم القصور الفخمة والمقابر الكبيرة التى أقاموها فى أقاليمهم بعد أن كان مستقرهم دائما حول الملك فى العاصمة منف « ميت رهينة » ، وبلغت بهم الجرأة حد تأريخ الحوادث بسنى حكمهم كما يفعل الملوك ، أى أن أمراء الأقاليم أخذوا ينازعون الملك السلطة . ومن قبل كان الملك يستعين بقوات أمراء الأقاليم فى حماية الحدود وفى ضرب القبائل المغيرة (لوحة رقم ٢٥) ، حيث لم تكن هناك حاجة لتكوين الجيوش . كما كان الجزء الأكبر من دخل الخزينة الملكية مصدره الضرائب تدفعها الأقاليم .

سقوط الدولة القديمة :

وهكذا أدت تلك العوامل مجتمعة إلى سقوط النظام كله وإلى انهيار الدولة القديمة ثم إلى قيام الثورة ضد الملوك والأغنياء ، وهى الثورة التى صورها الحكيم « أبو ـــ ور » Ipu-Wer وتوجع من نتائجها حوالى عام ٢١٨٠ ق.م. [٤٦] والبردية محفوظة بمتحف ليدن بهولندا (Leiden 1344) واضطربت الأحوال وتعرضت البلاد لخطر غارات البدو من جميع الجهات . وخربت القصور وبعثر ما فى القبور . كانت محنة قاسية انتهزها الفقراء والمستضعفون للنيل من الأغنياء وأصحاب السلطان وشاهد الناس بأعينهم خرافة قدسية الملوك .

تطور نظام الحكم فى الدولة الوسطى :

ولما أعيدت للبلاد وحدتها على أيدى ملوك الدولة الوسطى (٢٠٤٠ ق.م.) تغيرت الأمور . فأضحى الملك عندئذ يعتمد على قوته الفعلية لا على سلطة إلهية . وهكذا دعت الحاجة إلى قيام الجيش المركزى بمعناه المعروف لأول مرة ، وأعطيت قيادته دائما لولى العهد ، كما عمل الملك على ألا يغادر العاصمة لأى سبب من الأسباب ، وقضى على الإقطاع قضاء مبرما فى زمن الملك سنوسرت الثالث ،

واستعان الملوك بنخبة ممتازة من قواد الجيش فى ادارة شئون البلاد ، وبذلك انتهى نظام الاعتماد على أفراد البيت المالك فقط فى حكم البلاد ، وهو ما كان سائدا من قبل .

سقوط الدولة الوسطى :

وواصلت الدولة المصرية وحضارتها ازدهارهما زمن الدولة الوسطى . إلى أن اعترض مسيرتها أول غزو أجنبى للبلاد بوساطة تجمع تدريجى لعدد كبير من القبائل السامية المهاجرة والتى عرفت بإسم الهكسوس ــ وهى كلمة مصرية حقا ــ خاسوت Heqa-Khasut ومعناها حكام البلاد الأجنبية ، الذين استطاعوا فى النهاية اسقاط الأسرة الضعيفة التى حكمت أواخر الدولة الوسطى فى ظروف من الضعف والفوضى والأوبئة ، واحتلوا الدلتا وجزءا كبيرا من الصعيد لفترة تقرب من قرن من الزمان كانت المصادر المصرية فيما بعد تشير إليها بالمرارة . فيها أذل الشعب ولم تحترم مقدساته ، وتعرضت الحضارة المصرية كلها لضربة قاصمة إلا أن ذلك العصر لم يخل من حسنات ، إذ دخل الحصان والعجلة الحربية مصر لأول مرة على يد هؤلاء الهكسوس الذين استطاعوا بهذا السلاح الخطير الذى خلق ثورة فى وسائل القتال وتحرك الجيوش ، أن يسيطروا على البلاد ردحا من الزمن . ولكن الثورة قامت فى الصعيد من إقليم طيبه لطرد الغزاة .

استعادة السيادة :

وبعد صراع طويل مرير من أجل الحرية استطاع آخر ملوك الأسرة السابعة عشرة المدعى أحمس طرد الهكسوس ومطاردتهم فى أراضى فلسطين ، واستعادت الحضارة المصرية زمام أمرها وضمدت جراحها فأعيد بناء ما هدم من عمائر السلف ومن معابد الآلهة ، واستعادت العواصم القديمة رونقها وبهاءها ، وبدأ الملوك المصريون يشاركون فى أحداث الشرق الأدنى القديم بعد أن فتح غزو الهكسوس أعينهم على ما كان يدور فى تلك البلاد من أحداث خطيرة ، عرضت الوادى الأمين لخطر الاحتلال مرة أخرى

فخرجوا على رأس جيوشهم فى حملات حربية إلى بلاد الشرق الأوسط القديم ، ووصلوا فى بعضها إلى أعالى نهر الفرات ، واضعين نصب أعينهم تطهير المنطقة الشرقية من أطماع ممالك ميتانى وآشور ثم خيتا عندما بدأت تسعى لتكوين إمبراطوريات تدق أبواب مصر وتعرضها للمهالك .

نظام الحكم فى الدولة الحديثة :

واقتضت ظروف العصر إعادة النظر فى نظم حكم وإدارة البلاد على أسس جديدة تتفق مع روح العصر الذى انفتحت فيه أبواب مصر على العالم القديم نحو آسيا فى الشرق أو نحو السودان القديم فى الجنوب أو ليبيا فى الغرب .

وكان الوزير فى الدولة الحديثة بمثابة رئيس الوزراء ، هو الرجل الثانى بعد الملك يجمع فى يده مقاليد أمور البلاد كلها ، وهو المسئول أمام الملك عن تبليغ أوامره وتصريف شئون الدولة ، إليه ترفع التقارير الخاصة بمنسوب مياه النيل لتحديد قيمة الضرائب على المزارعين ، ويأمر بفتح السدود للزراعة التى تعتمد على نظام الرى الموسمى أى على طريقة رى الحياض .

وكان الوزير هو الذى يسيطر على خزائن الدولة ومخازنها ، والمشرف على إقامة العمائر الملكية وعلى إعاشة الجيوش الجرارة من العمال وعلى مخازن الأسلحة ، وهو رئيس الشرطة الأعلى ، وهو الذى يستقبل الوفود الأجنبية ، ويشرف على الدخل العام وعلى استلام جزية الأقاليم ، ثم فوق ذلك كله اعتبر الوزير كبير قضاة الدولة ، وكان يقام احتفال كبير فى المعبد بمناسبة تنصيب الوزير وهناك يتسلم التعاليم الخاصة بمنصبه من الملك : « فعندما يأتى (إليك) صاحب شكوى .. فاحرص على التصرف معه طبقا لهذا القانون الذى فى يدك حتى يصل كل إمرىء الى حقه وعامل من تعرفه كمن لا تعرفه » الخ ...

واستعان الوزير بجهاز كبير من موظفى الدولة لإدارة شئون البلاد مثل حكام المدن ، وحكام الأقاليم ورؤساء الإدارات المختلفة والمبعوثين الخصوصيين أو المفتشين .

وإذا ما تطلع المرء إلى عمارة معبد الكرنك مثلا وإلى قاعة الأعمدة الكبرى بوجه خاص والتى أقامها الملكان سيتى الأول ورمسيس الثانى بروعتها وضخامتها أو إلى عمارة معبد الرمسيوم [٤٧] أو إلى تماثيل رمسيس الثانى الهائلة الحجم المقامة من أمامه ، لا يتبادر إلى الذهن أن نظاما هذه انجازاته يمكن أن ينهار ، إلا أن المنشآت المعمارية لم تكن فى يوم من الأيام وحدها دليلا على سلامة النظام السياسى والاجتماعى ، فنحن نعرف أن أجمل العمائر الإسلامية فى مصر نفذت وأقيمت فى زمن المماليك فهل معنى ذلك أن عصر المماليك يعتبر أجمل العهود الإسلامية (؟) .

عصر العمارنة :

كادت الدولة الحديثة أن تزلزل الأرض من تحت أقدامها نتيجة للصراع الدينى الحاد بين حزب كهنة آمون بطيبة وحزب التوحيد الذى تزعمه أخناتون عندما نسى ذلك النبى أن للدولة شئونا أخرى غير التفكير فى نشر مذهبه فى وحدانية الإله ، ومحاربته لتعدد المعبودات . فأهمل البلاد فى الداخل والخارج ، وكانت الردة أكثر حدة وقوة ، وفى سنة ١٨٧٧م عثر بين أنقاض مدينة أخناتون ــ تل العمارنة ــ على جزء من محفوظات أو سجلات وزارة الخارجية من زمن الملكين أمنحتب الثالث وأخناتون . ومعظمها رسائل من ملوك آشور وسوريا وفلسطين وآسيا الصغرى إلى ملك مصر ، وضمنها رسائل استغاثة لبعض الملوك والأمراء تطلب من الملك أخناتون أن يسارع إلى نجدتهم قبل أن يقعوا فى قبضة الملوك الحيثيين وأتباعهم .

وكان عصر العمارنة تحولا واضحا فى نظرة المصريين نحو الأجانب و حيث بدأت الاستعانة بأعداد كبيرة منهم فى مختلف مناصب الدولة ، فكان الكاهن الخاص لأخناتون سورى الأصل ، ومن قبل عرف القصر الملكى فى طيبه طوائف مختلفة من الأميرات الأسيويات فى حريم الملك أمنحتب الثالث . وفى زمن الرعامسة ملوك الأسرتين ١٩ / ٢٠ ظهر كثير من غير المصريين فى الجيش وفى الأدارة ، وكان معظم الأجانب المستخدمين بالجيش فى الأصل أسرى حرب ،

واستقر هذا العدد الضخم من الأجانب فى مصر رغم ضياع امبراطوريتها ، وفقدت العاصمة نتيجة ذلك طابعها الوطنى ، كما أرهقت ميزانية الدولة بما كان يدفع لهؤلاء من مخصصات . والملاحظ أن البلاد أخذت تألف ذلك الوضع بالتدريج اذ حدث بعد وفاة الملك الشاب توت عنخ آمون ، أن زوجة الملك المسماه « (عنخ ـ إس ـ إن ـ بأتون » اتصلت سرا بملك خيتا (فى آسيا الصغرى) وطلبت منه أن يرسل أحد أبنائه لتتخذه زوجا وملكا على مصر . ولكن قائدى الجيش المصرى « أى » و« حور محب » آنذاك علما بالأمر ، فترصدا للأمير الخيتى وقتلاه عند الحدود الشرقية .

عصر الرعامسة :

وفى زمن الملوك الرعامسة (نسبة إلى رمسيس أو رع ـ مسو) ، تعددت ميادين القتال ، ودخلت مصر فى صراع مرير مع الامبراطورية الحيثية وأهم مواقع القتال ـ قادش (منطقة فى سوريا معروفة باسم « تل بنى مند قرب بحيرة حمص على نهر الأورنت) حيث استطاع ملك مصر رمسيس الثانى أن يحرز نصرا جزئيا على الحيثيين ، ولم يستطع أحد الطرفين إحراز نصر حاسم على الطرف الآخر ، بعد أن أنهكت القوات واستنزفت ثروات البلاد ، من أجل إعداد الحملات الحربية العديدة ، بل أن مصر فقدت خلال صراعها بعض البلاد الموالية لها فى آسيا ، وتوصل الطرفان أخيرا إلى إنهاء حالة الحرب بينهما وعقدت معاهدة سلام وحسن جوار بين مصر وخيتا عام ١٢٧٨ ق .م . عثر على نصوصها فى كل من طيبة (لوحين عثر عليهما فى معبدى الرمسيوم والكرنك) . .

وبوغاز كوى (عاصمة الحيثيين التى عرفت قديما باسم خاتوشاش ومن شروط المعاهدة بين رمسيس الثانى ملك مصر وبين خاتوسيل الثالث خليفة الملك موطل ملك خيتا ما يأتى [٤٨] :

١ ـ عدم اعتداء أحد الطرفين على أملاك الطرف الآخر ومراعاة احترام العهود السابقة .

٢ ــ اشتراك كل طرف فى الدفاع والمساهمة فى حماية الطرف الآخر داخليا أو خارجيا .

٣ ــ تسليم الفارين .

٤ ــ مساعدة كل منهما لولى عهد الآخر عند الضرورة .

وبعد ذلك بمدة وجيزة تزوج فرعون مصر رمسيس الثانى من إبنة ملك خيتا بعد أن ماتت زوجته الشهيرة الملكة نفرتارى . وبعد ذلك فى أيام الملك مرنبتاح فى الثلث الاخير من القرن الثالث عشر ق .م . (وهو منفتاح ابن رمسيس الثانى فرعون موسى كما يظن البعض) وفى زمن الملك رمسيس الثالث (فى مطلع القرن الثانى عشر ق .م .) تعرضت مصر لأكبر وأخطر غزوة فى تاريخ حضارتها القديمة قام بها ما يعرف باسم تجمع شعوب البحر ومعظمهم عبارة عن مجموعة شعوب هندوأوربيه ، منهم الآخيون وهم الأغريق الأوائل سكان شبه جزيرة البلقان ، ومنهم الصقليون والفلسطينيون الذين استقروا بعد ذلك فى فلسطين وغيرهم ، حيث هاجموا البلاد من الشمال عن طريق البحر ومن الشمال الشرقى عن طريق سيناء ، وتذكر بردية هاريس كيف جمعت البلاد كل ما توفر لها من قوة لصراع المصير ، فتلك الهجرة الكبرى هى نفسها التى قضت على الحضارة الإغريقية فى طروادة (على ساحل آسيا الصغرى) وهى التى اكتسحت الدولة الحيثية تماما ، ونصر الله مصر بعد معركة برية وبحرية عند مصب فرعى دلتا النيل بلغ فيها القتلى أعدادا خيالية ، وقد صورت مناظرها على جدران معبد الملك رمسيس الثالث فى مدينة هابو فى البر الغربى لطيبه .

وتعرضت حياة الملك رمسيس الثالث هذا لمؤامرة خطيرة دبرت لاغتياله ، وتزعمت المؤامرة إحدى زوجات الملك وكانت تدعى « تى » (وهى غير الملكة تى زوجة الملك أمنحتب الثالث أم الملك أخناتون) وكان هدفها أن تصل بابنها الأمير بنتاور Pen-ta-Wer إلى العرش .

واتخذت تلك الزوجة بمساعدة أتباعها من رجال القصر من السحر وسيلة لبلوغ غايتها ، فانتهزت فرصة إقامة الملك بمدينة طيبة فسعت تستنزل العلل عليه وعلى

أتباعه ، ونجحت فى القضاء على الملك ، ولكن المؤامرة انكشفت تفاصيلها ، وقدم المتآمرون للمحاكمة وفيهم بعض نساء الملك وذلك فى زمن الملك رمسيس الرابع وهو ابن اخر للملك رمسيس الثالث وصدرت ضدهم الأحكام .

وفى زمن الملك رمسيس الثالث أسرعت الجيوش المصرية نحو الغرب لتواجه تحالفا آخر بين شعوب البحر وبين الليبيين ورغم نجاح جيوش مصر زمن الملك رمسيس الثالث فى حماية البلاد ضد ذلك السيل المنهمر من المهاجرين الغزاه ، إلا أن العبء كان أثقل مما يمكن أن يتحمله شعب بمفرده ، فبدأت تظهر على البلاد أعراض الشيخوخة ، فازدادت الحالة الاقتصادية سوء ، ونقصت المواد التموينية وأصبحت خزينة البلاد خاوية وارتفعت أثمان الحاصلات فى الأسواق ، وشرع الناس فى الشكوى من سوء الإدارة وانعدام العدل ، ومن نتيجة ذلك أيضا إضرب عمال البناء فى العمائر الملكية بسبب قلة المؤن ، وتأخر استلام الرواتب ثم ظهرت العصابات للسطو على المقابر من بين عمال وموظفى الجبانة الملكية ومن صغار الكهنة (٤٩) .

إضرابات العمال :

تتحدث الوثائق التاريخية (٥٠) من عصر الرعامسة عن إضراب قام به العمال القائمون على بناء العمائر الملكية فى مدينة هابو فى الجانب الغربى من طيبه حيث معبد الملك رمسيس الثالث وكان العمال يقيمون بالقرب من ذلك المكان فى مدينة خصصت لهم مع أولادهم وزوجاتهم وكانوا يتسلمون رواتبهم وحصصهم التموينية كل شهر ، وتدل مخلفات مدينتهم السكنية بالقرب من مقار أعمالهم وكذا مقابرهم على أنهم كانوا أحسن حالا من غيرهم ، وأنهم كانوا فى العادة يجزون فى مقابل أعمالهم ، وحدث عندما تأخرت رواتبهم أكثر من مرة أن نفذ صبرهم فقاموا بالتظاهر واجتازوا المنطقة ، ووصلوا خلف معبد تحوتمس الثالث ، ولم تنفع معهم تهديدات الموظفين

ولا الكهنة وفى اليوم التالى وصلوا إلى الباب الجنوبى لمعبد الرمسيوم (المعبد الجنائزى لرمسيس الثانى) ، وفى اليوم الثالث استطاعوا اقتحام المعبد ، فاتخذ الأمر صورة خطيرة وحاول الكهنة من جديد تهدئة العمال فكانوا يرددون « أننا جياع ... أرسلوا إلى الملك ، أرسلوا إلى الوزير .. » واثمرت تهديداتهم فعلا فتسلموا مقررات شهر وبعد انقضائه ، عادوا إلى العمل ولكن أحوال البلاد كانت تسير من سيئ إلى أسوأ فاضطروا إلى الإضراب مرة أخرى تدخل فيها الوزير وأعطاهم ما استطاع ولكنه قليل . ذلك طرف مما سجلته البرديات عن ثورات العمال فى ذلك الحين .

سرقات المقابر الملكية :

والواقع أن الدولة المصرية حتى ذلك الحين كانت قد تخطت كل مراحل الشباب والقوة ، ووهنت قواها فأذنت شمسها بالمغيب ، وتتحدث برديات من عصر الرعامسة المتأخر (برديات أبوت ، أمهرست ، ليوبولد ، ماير) عن عصابات تألفت بغرض السطو على المقابر الملكية فى طيبه . فلقد سرت شائعات أيام حكم رمسيس التاسع من الأسرة العشرين عن سرقة مقابر الملوك ، وأن عمال الجبانة الملكية وموظفيها قد أضحوا لصوصا للمقابر طمعا فى الربح والثروة ، وقد استغل حاكم القسم الشرقى لطيبة خصومته مع حاكم القسم الغربى وأرسل بلاغا للوزير عن السرقات ، حينئذ أمر الوزير بإرسال لجنة للتحقيق فى الأمر وقبض على بعض صغار اللصوص وقدموا المحاكمة ، إلا أن حاكم القسم الشرقى لم يقتنع بتلك النتيجة ، بل كان يتهم غريمه حاكم القسم الغربى باشتراكه شخصيا فى السرقات ، وأنه حاول أن يغطى موقفه أمام اللجنة التى أرسلت لتقصى الحقائق بتسليمها بعض صغار اللصوص . فكتب حاكم القسم الشرقى مرة أخرى للوزير تقريرا ضمنه اتهاماته ، فأمر الوزير بعقد المحكمة الكبرى فى قاعة العدالة بطيبه وكانت تتألف من الوزير ، ثم طرفى الاتهام والادعاء وكاهنين كبيرين هما الكاهن الأكبر لمعبد رمسيس الثالث فى مدينة هابو ، ثم اثنين من الموظفين من ذوى الرتب العسكرية ، وعلى الرغم من ذلك لم تثبت إدانة حاكم القسم الغربى ، ولكن السرقات لم تنقطع فبعد ذلك بثلاث سنوات سرقت مقابر

الملوك فى وادى الملوك وقبض على ستين متهما من العتاه أدينوا ولم يكونوا فى هذه المرة من الفقراء ، بل كان بينهم أحد كهنة آمون وكاتب خزينة آمون وكاهن المعبود خنسو (القمر) وكاهن المعبود سبك (التمساح) وغيرهم من العاطلين الذين قاموا بسرقة خزينة معبد الملك رمسيس الثالث إلى جانب نهب مقابر الملوك [٥١] .

ولم تستطع محاولات رجال الأمن أن تنقذ المقابر من مصيرها المحتوم ، ففكر الملوك الكهنة زمن الأسرة الحادية والعشرين فى إنقاذ جثث الملوك على الأقل فجمعوها بعد أن فتحت مقابرها من قبل . ورغم محاولة إخفاء معالمها فى جبل طيبه الغربية ، واختاروا لها حفرة عميقة فى موقع غير بعيد من وادى الملوك يعرف حاليا باسم « الدير البحرى » واستقرت جثث الملوك سقنن رع ، أحمس ، أمنحتب الأول ، تحوتمس الثانى والثالث ، ورمسيس الأول وسيتى الأول ورمسيس الثانى والثالث فى مكانها حتى كشف عنها النقاب أحفاد أولئك اللصوص عام ١٨٧١م — وامتدت ايديهم إليها ، ينزعون منها ما يمكن عرضه بأثمان باهظة لتجارة الآثار ، واحتفظت تلك العائلة التى كشفت عن الخبيئة بالسر حتى وصلت أخبارها إلى الحكومة المصرية عام ١٨٨١م نتيجة خلاف بين أفرادها على توزيع الغنيمة ، هناك تم نقل المومياوات الملكية إلى المتحف المصرى فى احتفال كبير .

كما أكتشفت خبيئة لمومياوات ملكية ، فعند فتح مقبرة الملك أمنحتب الثانى فى وادى الملوك عثر على مومياته سليمة داخل تابوتها الأصلى ، وعثر من حولها على جثث الملوك تحوتمس الرابع ومرنبتاح وسيتى الثانى وسبتاح وكل من رمسيس الرابع والخامس والسادس ، وكانت تلك محاولة أخرى من محاولات الأقدمين لإنقاذ عدد من مومياوات الذين نهبت مقابرهم وكلهم من ملوك الدولة الحديثة (الأسرات ١٧ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٠) .

قيام الثورة :

وفى أواخر عصر الرعامسة قامت الثورة واستمرت الاضطرابات حوالى تسعة أشهر تعرضت فيها البلاد لأخطار بالغة ، وكان من أهم الأسباب المباشرة للثورة

سيطرة أفراد أسرة واحدة من الكهنة وهى أسرة الكاهن الأكبر لآمون رع المدعو أمنحتب على أهم المناصب فى الدولة ، فكان منها الكاهن الأكبر لآمون أى المتصرف فى خزائن وأملاك وأوقاف الإله آمون رع ، وكان منها جامعوا الضرائب وبذلك سيطر أفراد الأسرة الواحدة على أهم الوظائف الدينية والمدنية وأثروا ثراء فاحشا ، وعندما قامت الثورة أخذت فى طريقها الكاهن الأكبر لآمون وعائلته ، ولم يجد الملك الضعيف رمسيس الحادى عشر من يستعين به سوى نائبه فى كوش (النوبة وشمال السودان) المدعو « بانحسى » بجيشه القوى فأرسل يستدعيه للقضاء على الفوضى . وأقبل بانحسى ملبيا الدعوة ، وبعد أن انجز ما عهد اليه قفل راجعا بجنده إلى عنيبه فى النوبة السفلى ، حيث مقر عمله وموطنه أيضاً . واسم « بانحسى » معناه باللغة المصرية « السودانى » وهناك شواهد أخرى توحى أنه ربما كان من أهل المنطقة أو شمالى السودان ، والواقع أن بانحسى هذا يعتبر من الشخصيات النادرة فى التاريخ ، فقد كانت الفرصة مواتية له للقضاء على بقايا الأسرة العشرين والاستيلاء على العرش ، إلا أن تصرفه على نحو ما فعل أعطى الفرصة لأحد المغامرين من كبار الكهنة ويدعى « حريحور » Herihor للاستيلاء على السلطة بعد وفاة آخر ملك من ملوك الأسرة العشرين وتأسيس أسرة جديدة هى الأسرة الحادية والعشرين (أسرة الكهنة) ، ولكن انقسمت البلاد منذ ذلك الحين إلى قسمين أحدهما اتخذ من « طيبه » مركزا له والآخر جعل من « تانيس » فى شرقى الدلتا العاصمة ، وقد كان لتانيس من قبل شأن كبير طوال أيام الرعامسة .

العصور المتأخرة :

وأدى ضعف البلاد فى النهاية إلى وقوعها فى قبضة أمراء أصلهم من الصحراء الغربية ، الذين استطاعوا السيطرة على مصر كلها وتكوين اسرتين حاكمتين حملتا فيما بعد اسمى الأسرتين ٢٢ ، ٢٣ ، وعندما قامت الأسرة ٢٢ ربما تكون قد اتخذت من مدينة بوبسطة (تل بسطة بجوار الزقازيق) فى شرقى الدلتا عاصمة لها ، ولكن العهد الليبى تميز بكثرة الملوك والأمراء المستقلين بأجزاء من مصر . بينما كانت

عاصمة الأسرة ٢٣ هى تانيس (صان الحجر الحالية) . وكانت الحضارة المصرية هى المسيطرة خلال مدة حكم الليبيين بل أن ملوكهم حاكوا ملوك مصر فى كل شئ تقريباً . .

الأسرة الخامسة والعشرين :

وفى النوبة وشمال السودان اتخذت الأحداث طريقا آخر ، اذ انفصلت تلك البلاد عن مصر بعد دخول الليبيين دلتا النيل وسيطرتهم على الدولة المصرية ، وكانت النوبة قد بلغت فى تطورها الحضارى درجة كبيرة فى زمن الدولة الحديثة المصرية ، حيث زاد العنصر البشرى فيها بعد استقرار الأحوال كما زادت مواردها الطبيعية بشكل ملحوظ ، وقام فيها بيت حاكم من أهل البلاد فى نبته عند الشلال الرابع وفى الفترة ما بين ٩٥٠ ــ ٧٥٠ ق .م . وهى نفس فترة الحكم الليبى فى مصر أصبحت كوش فى موقف يسمح لها بتوحيد الوادى تحت زعامة ملوك نبته . ولقد سجل لوح الملك بعنخى الذى عثر عليه عند معبد آمون بجبل برقل . قصة فتح مصر ، وفى قمة هذا اللوح الحجرى الضخم يشاهد الملك بعنخى واقفا أمام المعبود آمون الجالس على عرشه ومن خلفه زوجة الإله آمون المدعاة موت الأم وهو يستعرض ملوك وأمراء الدلتا من الليبيين الذين حضروا اليه ساجدين معبرين عن ولائهم للملك الفاتح ، ومن تحت هذا المنظر العلوى يأخذ بعنخى فى وصف خطوات فتحه لمصر منذ أن وصلته الأنباء عما كان يدور هناك من أحداث بلسان مصرى قويم ، وفى أوامر بعنخى لجيشه ما يؤكد احترامه للمعبود آمون وتقديسه لمدينة طيبه مستقر ذلك المعبود ، اذ يقول لجنده :

« عندما تبلغون طيبة وتواجهون معبد الكرنك انزلوا فى الماء وتطهروا فى النيل ثم البسوا ثيابكم مباشرة (كونوا مسالمين) أخفضوا الأقواس ونكسوا السهام ، ففى رحاب آمون لا مجال للتفاخر . وليس هناك من شجاعة بدون آمون فهو يجعل من الضعيف قويا ويجعل الكثرة تعطى ظهرها للقلة ، والرجل المفرد يغلب ألفا ، قبلوا الأرض من أمامه وقولوا له اهدنا سواء السبيل ، فكلنا نحارب فى ظل بأسك ، فالجيش الذى يرعاه آمون ينتصر (دائماً) وتخضع له الكثرة ... وعندما وصلوا إلى طيبه فعلوا كما أمرهم جلالته » .

وقد أثبت ملوك نبته فعلا أنهم الخلفاء المخلصون ، والحماة للحضارة المصرية التى امتزجت بحضارة السودان الشمالى منذ أقدم العصور .

الصراع مع الأمبراطورية الآشورية :

واستمر حكم ملوك نبته لمصر منذ أول محاولاتهم لفتح مصر حتى اضطرهم ملوك آشور إلى التقهقر جنوباً ، حوالى مائة عام ، حاول فيها ملوك السودان الشمالى حماية وادى النيل من خطر غارات الآشوريين الذين تمكنوا من دخول مصر ووصلوا حتى مدينة طيبه ، حيث تعرضت المدينة المقدسة ، لأول مرة ، فى تاريخها الطويل للتخريب على أيدى الغزاة الآشوريين . وهكذا تسببت الحملات الآشورية فى انحسار نفوذ حضارة مملكة نبته التى حاول ملوكها قدر طاقاتهم الدفاع عن حضارة وادى النيل ، كما فعل الرعامسة من قبل ضد الحيثيين ثم فى مواجهة عزوة شعوب البحر .

والواقع أن حضارة وادى النيل وقتذاك كانت الهدف من وراء حملات الامبراطورية الآشورية المتكررة على مصر ، فبعد أن استقرت الأمور للآشوريين فى شمال بلاد النهرين وفى الشرق وفى الجنوب ، اتجهت أنظارهم إلى مملكة وادى النيل وكان ملك مصر حينذاك ــ شعورا منه بالخطر الآشورى المتزايد ــ قد تحالف مع بعض ملوك وأمراء فلسطين والشام وحين تعرض حلفاؤه للخطر ، أرسل إليهم قوات تؤازرهم ، ولكن الملك الآشورى سرجون الثانى (٧٢١ ــ ٧٠٥ ق .م .) هزم القوات المتحالفة سنة ٧٢٠ ق .م . عند (رفح) على حدود مصر الشرقية ، وبعد فترة ، وبينما كان الملك الآشورى سنخريب (٧٠٥ ــ ٦٨٠ق .م .) مشغولا فى إخماد ثورة قامت فى بابل سنحت الفرصة للملك شبتاكا . فى مصر أن يعيد تدعيم حلفه فى الشرق مع أمير مدينة صور الفنيقية على ساحل البحر المتوسط وملك يهوذا المدعو حزقيال ، وعدد من رؤساء القبائل العربية فى جنوب فلسطين بالإضافة إلى أمراء المدن الفلسطينية ولكن الملك الآشورى عاد إليهم وفرق شمال الحلف ، وقد ذكر « سفر الملوك » فى التوراه أن جيش وادى النيل كان بقيادة تيرهاقة (أى

طهرقا) ، كما ورد أيضا أن الملك حزقيال قد اشترى حريته بدفع مبالغ كبيرة .

ومنذ أن تولى الملك الآشورى « أسر حدون » (٦٨٠ ــ ٦٦٩ق .م .) أعد العدة للقضاء على مملكة وادى النيل فعندما توجه نحو مصر قابلته جيوش الملك طهارقا وهزمته ، وأطمأن الملك طهارقا بعد ذلك وأهمل الاستعدادات ، اللازمة وأسكره النصر الذى أشادبه وخلده على قاعدة تمثال أمر باقامته بمعبد الكرنك ، ولكن الملك الآشورى لم يسلم بالهزيمة فأعاد تنظيم قواته بسرعة مذهلة وواصل تقدمه حتى دخل منف ، ولما كانت المدائن المصرية مفتوحة وليست قلاعا كمدن الشرق القديم ذات الحصون والأبراج ، على اعتبار أن الحصون كان يكتفى باقامتها على الحدود فقط ، فإن منف سقطت بسرعة عام ٦٧١ق .م ووقع حريم الملك طهارقا وأحد أبنائه فى الأسر ، بينما تقهقر طهارقا جنوبا استعدادا لجولة أخرى . واضطر الملك أسر حدون إلى العودة إلى وطنه بسبب مرضه حيث أمر بتخليد نصره على لوح حجرى ضخم عثرت عليه إحدى البعثات الألمانية ونقلته إلى متحف برلين عام ١٨٨٨م وفيه يصف الملك الآشورى كيف فتح وادى النيل بمساعدة الآلهة وأعلن نفسه ملكا على مصر وكاس وكان يقصد (كوش) ، على الرغم من أنه لم يكن قد حصل بعد على نصر حاسم ضد الملك طهارقا . وقد صور الأمير الأسير ابن طهارقا على اللوح نفسه راكعا ومقيدا من يديه وقدميه .

وانتهز طهارقا فرصة رحيل الآشوريين وعاد إلى الدلتا ودخل منف وأخذ فى اعادة تنظيم قواته .

أما الفصل الأخير فى الصراع بين حضارة وادى النيل والحضارة الآشورية فبدأ بعد أن تولى الحكم آشور بانيبال (٦٦٨ ــ ٦٢٦ق .م .) الذى استأنف الهجوم على وادى النيل . ودخل بعد أن غادرها الملك طهارقا مسرعا نحو الجنوب ، وواصل الملك الآشورى تقدمه وبلغ طيبه ودخلها عام ٦٦٦ق .م . بعد أن غادرها الملك طهارقا إلى نبته عند الشلال الرابع .

وفى عام ٦٦٨ / ٦٦٣ق .م . توفى الملك طهارقا وخلفه ابن أخيه المدعو « تانوت أمانى » الذى حاول استعادة مصر من الآشوريين ، ولكنه فشل وعاد إلى نبته ولم يحاول تجربة حظه مرة أخرى بعد أن تسبب فى تحطيم الجيش الآشورى لطيبة لأول مرة فى تاريخها الطويل .

وانفصلت مصر عن السودان وأعطى الآشوريون سلطة الإشراف على الإدارة للأمراء المكريين ، الذين سمحوا لهم بحكم أقاليمهم ، وانتهز أمير مدينة « سايس » صا الحجر بالدلتا فرصه انشغال الآشوريين فيما بعد بحربهم مع دولة عيلام شرقى الخليج الفارسى ، وأعلن استقلاله عن آشور وأسس الأسرة التى عرفت فى التاريخ المصرى باسم الأسرة السادسة والعشرين أو العصر الصاوى نسبة إلى العاصمة (صا الحجر) وكانت تلك فترة العودة إلى القديم ومحاولة إحياء الفنون والآداب والتقاليد القديمة وازدهرت الحضارة المصرية الأخيرة ، ولكنها كانت مرحلة قصيرة نسبيا ، وأهم ما يميز فترة العصر الصاوى هذه زيادة الصلات بين مصر وبين بلاد الاغريق ، فقد استعان ملوك ذلك العصر بالجنود المرتزقة الإغريق بأعداد كبيرة حتى أصبح لهم المكان الأول فى الجيش وأقيمت لهم المعسكرات لحماية مداخل البلاد فى الشرق والغرب ، كما سمح لهم بانشاء محلات حضارية كبيرة فى مصر ذات صبغة اغريقية .

وعندما وضع الفاتح الفارسى قمبيز نهاية هذه المرحلة القصيرة نسبيا سنة ٥٢٥ق .م . تحولت مصر إلى « ساتربه » أو ولاية فارسية ضمن ولايات الامبراطورية الفارسية الشاسعة ، وحكمتها أسرة موالية للفرس الذين تركوا فيها حامية كبيرة . وبعد حين استغل المصريين الصراع الذى وقع بين أفراد البيت الفارسى وطردوا الحامية الفارسية وأعلنوا استقلال مصر وأسسوا الأسرات ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ إلا أن الفرس تمكنوا من مصر مرة اخرى . ولم يخرجهم منها إلا الأسكندر الأكبر عام ٣٣٠ق .م . وبدخول الاسكندر انتهى حكم الأسرات الوطنية المصرية ، وغابت شمس الدولة اية الوطنية ولكن حضارتها واصلت إشعاعها وضياءها ، فكانت منارة اهتدى على نورها أعلام النهضة والفكر فى العالم القديم .

الفصل الثامن عشر
الكشف عن الماضى
فى بوبسطة

بوبسطه : إحدى عواصم مصر القديمة الهامة ، وتقع على مدخل مصر من ناحية الشرق ، ومن ثم عاصرت الأحداث الجسام طوال مراحل التاريخ ، خلفت بصماتها على أرضها ، وهى مصادر للتاريخ العالمى ، تساهم به بوبسطه لكشف الغموض ولتكوين صورة واضحة المعالم لما كان يجرى فى هذه المنطقة الهامة من العالم القديم . فبالإضافة إلى أهميتها بالنسبة للتاريخ الوطنى المصرى ، فان بوبسطه لكونها من أكبر الحواضر المصرية التى واجهت أفواج القادمين من الشرق عبر سيناء قد عاصرت العديد من الفاتحين والغزاة بدءا بالهكسوس الآسيويين ، أول من بتليت بهم أرض ـــ مصر ، فالآشوريين سكان العراق القديم ، ثم الفرس والإغريق المقدونين والرومان . بل إن الديانات السماوية دخلت مصر عبر بوبسطه ، فلا شك أنها كانت معبرا ومقرا مؤقتا ليوسف وآله ، وموسى وقومه من العبرانيين ، والسيدة العذراء مريم وطفلها نبى الله عيسى فيما بعد عند لجوئهما إلى مصر فرارا من بطش الرومان واليهود فى مملكة يهوذا ، الخاضعة لنفوذ الامبراطورية الرومانية .

وعاصرت بوبسطه فتوحات الجيوش المصرية صاعدة إلى غربى آسيا وهابطة منها ظافرة ، وذلك لموقعها الممتاز فى نهاية وادى طميلات ، الذى كان يربط خليج السويس بدلتا وادى النيل الصحراء الشرقية .

وقد اثبتت الحفائر فى اطلال المنطقة أنها كانت عامرة ومأهولة منذ فجر التاريخ المصرى القديم .

وتذكر المصادر المصرية أن بوبسطه كانت جزءا من أقليم (أون) هليوبوليس أو

مدينة الشمس (عين شمس الحالية) ، وهو الإقليم الثالث عشر من أقاليم الدلتا العشرين ، ثم أضحت إقليما مستقلا هو الإقليم الثامن عشر وعاصمته بوبسطه ، وهى تل بسطه الحالية أو الزقازيق القديمة ، وفى شرق الدلتا فى أواريس — تانيس — صان الحجر فى موقع غير بعيد من بوبسطه اتخذ الهكسوس عاصمة لهم . وفى الأسرتين الثانية والعشرين (٩٥٠ق.م.) والثالثة والعشرين أصبحت عاصمة لمصر كلها . وورد ذكرها فى ثورة إصحاح حزقيال ٣٠ ، ٧ وكتبت — بست .

وأعطى المؤرخ الاغريقى هيرودوت (Herodot, II, 128) — الذى وضع كتابا عن مصر فى حوالى منتصف القرن الخامس قبل الميلاد — اهتماما خاصة بمدينة بوبسطه وذكر أن اسمها ورد فى حوليات الأسرة الثانية ، وان المعبد يبدو كما لو كان فوق جزيرة .

فوصف مهرجانها السنوى الذى كان يقام احتفالا بمعبودتها بسطه — وكانت تتخذ صورة القطة الوحشية — أو امرأة برأس قطة — رمزاً لها . وكان يحاكى إلى حد كبير موالد أولياء الله الصالحين فى أيامنا ، هذه وقد شبهها الإغريق بمعبودتهم أرتميس

أما المصادر العربية فيذكر منها معجم البلدان « لياقوت الحموى » أن بسطه ، « كورة (أى قرية) بأسفل الأرض بمصر ، وتقرأ بسطه بضم الباء » ، وجاء ذكرها فى « قوانين الدواوين » لابن مماتى على اعتبار أنها من مدن الشرقية (معجم البلدان ، شهاب الدين أبى عبد الله ياقوت الحموى الرومى ، المجلد الأول ص ٤٢٢ ، دار صادر ببيروت) .

فى سنة ١٨٨٧ بدأ الأثرى السويسرى إداورد نافيل حفائر منظمة فى تل بسطه ، بعدما لاحظ نشاط تجار الآثار منذ سنوات ، وكان قد كثر تعدى الأهالى على المنطقة بنقل أتربة لاستعمالها كسماد للزراعة وصناعة الفخار ، واستغلال الأراضى فى أغراض البناء وغيرها ، والاستفادة من كل قطعة حجر جيرى ، بحرقها وتحويلها لجير

حى ، أو لاعادة استعمالها فى مبانيهم . وأصيب معبد بوبسطه الجرانيتى الشهير بهجمة شرسة من الباحثين عن محجر جاهز لإعداد أحجار الطواحين عبر القرون ، فلم يدعوا حجرا صالحا لأغراضهم إلانقلوه .

وأثمرت حفائر نافيل فى المدة من ١٨٨٧ وحتى ١٨٨٩م ، فكشفت عن مجموعة من الآثار الهامة ، التى ترجع إلى جميع مراحل التاريخ المصرى القديم وعلى مدى أربعة آلاف سنة ، وكانت أهم اكتشافاته معبد القطة بسطه ، الذى بنى من أحجار الجرانيت الوردى التى جلبت خصيصا له من أسوان عن طريق النيل ، إذ كانت بوبسطه تقع على إحدى فروعه الهامة وهو الفرع البوبسطى ، والجدير بالذكر أن حفائر جامعة الزقازيق بإشراف د . محمد إبراهيم بكر قد كشفت عن مقبرة بالقرب من المكان ، دفن فيها أحد اولئك الموظفين المكلفين بنقل أحجار الجرانيت من أسوان لأعمال البناء الدائمة فى المعبد ، يمكن تأريخها بالعصر الوسيط الأول ، وقد صور على لوحته التذكارية ومعه زوجته وأولاده ، كما حفر اسمه والقابه . وكشف نافيل عن صالات المعبد وتماثيله العديدة ، وعن السور المحيط بالمعبد المبنى من الجرانيت الأسود ، وقد ساهم فى بناء المعبد عدة ملوك فى عصور مختلفة منهم خوفو وخفرع ورمسيس الثانى وأوسركون ونكتانبو . ويقع المعبد حسب أقوال هيرودوت فى قاع المدينة ، بينما تحيط به بقية منشآت المدينة من جميع الجهات وتطل عليه . وتعطى أرضية المعبد المستوى الأصلى الذى بنيت المدينة على أساسه ، ثم أخذت تنمو جيلا بعد جيل ، لدرجة أننا نعمل حاليا فى تلال ارتفاعها حوالى ثمانية أمتار فوق سطح المعبد ، هى عبارة عن مخلفات المدينة وأطلالها على امتداد تاريخها ، والسبب فى هذا النمو أو الارتفاع أن الأجيال الأولى كانت تتخذ لها مكانا مرتفعا نسبيا عن مستوى الأرض المجاورة ، لتجنب خطر الرطوبة والمياه الجوفية ، أو مياه الفيضان ، وتعمره ببناء مساكن لها ، لمدة جيل أو جيلين ، إلى أن يحدث حادث يؤدى إلى هجرة المكان ، قد يكون بسبب وباء أو كارثة جوية أو نتيجة هجوم عدو أو لقدم المكان وتهالكه ، فيهجر ويتحول إلى أطلال ، ويأتى جيل آخر بعد مدة طويلة ، فيعيد تسوية

الخرائب ، ويتخذ منها أساسا لبناء جديد ، قد يكون مسكنا ، أو ربما منطقة لدفن الموتى ، وهكذا تتوالى الطبقات بعضها فوق بعض ويرتفع المكان وينمو ، ويخفى داخله تاريخ المنطقة وأهلها بأكمله . وعلى رجل الآثار أن يزيل تلك الطبقات بعناية فائقة ، لا ينفع فيها استعمال أساليب العلم الحديث ، وإنما يعتمد أساسا على العامل الفنى الذى يعمل بفأسه ، وعلى الأثرى الذى يعمل بعقله وعمله وفراسته ، لملاحظة كل ضربة فأس ، ويعيد تكوين صورة المبانى القديمة بمساعدة مهندس متخصص ، يقرأ ما عليها من كتابات ، ويستخرج ما بها من شواهد وقطع فنية هى ملك لتاريخ هذا المكان .

كما كشف نافيل أيضا عن جبانة كبيرة لدفن القطط المقدسة ؛ وفى سنة ١٩٠٦ كشف عمال السكة الحديد الذين كانوا يعملون فى بناء خط الزقازيق بلبيس القاهرة عن آثار هامة من الذهب والفضة بالإضافة إلى تابوتين من الجرانيت ، أحدهما يخص نائب الملك فى كوش (شمالى السودان) زمن الملكين رمسيس الثالث ورمسيس الرابع .

وفى المدة ما بين سنة ١٩٣٩ وسنة ١٩٤٤ كشف د . لبيب حبشى عن معبد الملك بيبى الأول من أواخر أيام الدولة القديمة ، وكذلك مقبرة لنائب الملك فى النوبة وشمالى السودان المدعو « حورى » ، وتبين أن المنطقة ما زالت تحوى العديد من المفاجآت لرجال الآثار .

وفى سنة ١٩٦٠ قام الأستاذ شفيق فريد باستئناف حفائر مصلحة الآثار فكشف عن جبانة وقصر من الدولة الوسطى . كان يعتقد أنه معبد ، عثر بداخله على تماثيل لأفراد من الدولة الوسطى . وكشف أيضا عن منطقة كبيرة لدفن القطط على مدى أجيال طويلة . وكانت الحصيلة وفيرة عبارة عن عدد كبير من الأوانى والتماثيل والحلى الذهبية على مدى التاريخ المصرى كله معروض معظمها بمتحف هرية بالقرب من الزقازيق .

وفى سنة ١٩٦٧ وحتى ١٩٧١ قام د . أحمد الصاوى بمواصلة حفائر هيئة

الآثار بالعمل فى منطقة القصر ، حيث تم الكشف عن بعض المخازن الملحقة ، عثر فى طبقاتها العليا على دفنات فى توابيت من الفخار وبعضها فى توابيت عبارة عن صناديق من الجبس متآكلة بفعل الزمن ، كما كشف عن معبد للملك تيتى من الأسرة السادسة .

وكان موقع المدينة القديمة بوبسطه شاسعا ، يشمل المساحة الممتدة من قرية سوبك بسطه (لا حظ تشابه أسمها مع اسم بوبسطه ، والذى يحتمل أن يكون ذا أصل مصرى قديم ، ولعله يجمع بين إسمى معبودين من معبودات مصر وهما سوبك ، وكان يرمز له بالتمساح ، وبسطه ورمزها القطة) إلى بلدة العصلوجى ، باتساع مدينة الزقازيق الحالية ، ومساحات كبيرة حلت محلها الآن أراضى زراعية على الجانب الآخر من خط السكة الحديد ، المتجه إلى القاهرة عبر مدينة بلبيس . كما أقيم المجزر القديم (السلخانة) والجبانة المسيحية وبعض مدافن المسلمين ثم مستشفى الصدر ومخزن الأخشاب ، وبعض المواقع الخاصة بتدريبات الشرطة والجيش والمرور والمجارى ومشروعات المساكن الشعبية على أجزاء من المدينة القديمة ، فأصابت المنطقة الأثرية بأشد الأضرار . سنحاسب عليه من قبل الأجيال القادمة .

وعلى مدى موسمين الأول منذ منتصف فبراير ١٩٧٨ وحتى منتصف يوليو ١٩٧٨ والثانى منذ ١٩ / ٩ / ١٩٧٨ وحتى نهاية أبريل ١٩٧٩ كشفت حفائر جامعة الزقازيق عن موقعين رئيسيين .

الموقع الأول : وينحصر ما بين طريق المعاهدة غربا وقصر الدولة الوسطى شرقا . وهى ما أطلقنا عليه اسم مخازن القصر ويشتمل على دفنات من الدولة القديمة أيضا .

الموقع الثانى : جنوب غربى قصر الدولة الوسطى ، وشرق طريق المعاهدة . وهى الجبانة ذات الطبقات المتعددة وتنتمى إلى عصور الرعامسة المتأخرة والدولتين الحديثة والوسطى ثم نهاية الدولة القديمة .

الموقع الأول :

وقد تم الكشف فى الطبقة الوسطى منه عن مجموعة حجرات مليئة بالجرار والأوانى الفخارية تؤلف مجموعة من المخازن الملحقة بقصر الدولة الوسطى ، وتقع جميعها داخل سور ضخم ، ويبلغ طول الجزء الذى تم كشفه من السور ٤٥ مترا وأقصى عرض للسور هو ٢٫٢٥ مترا ، ويمتد فى اتجاه الطريق المرصوف ، حيث عثر على بقايا بوابة عبارة عن العتب السفلى من الحجر الجيرى داخل أساس السور الضخم ، ويمتد تحت الطريق المرصوف من ناحية ، ومن الناحية الأخرى يواصل السور امتداده فى اتجاه الشرق ليتصل بالسور المحيط بالقصر الذى تم كشف أجزاء منه فى الحفائر السابقة فى شكل زاوية قائمة . ومن الأوانى الفخارية التى عثر عليها ضمن هذه الطبقة التى تؤلف مجموعة من المخازن ، ثلاث جرار قائمة مكانها على أرضية القصر ومملوءة بالأتربة ، وعند تفريغها عثر فى إحداها على ثلاثة أوانى فخارية سليمة تقريبا دقيقة الصنع ، الإناء الأول عبارة عن طبق مسطح بدون قاعدة ، (١٧٫٥ سم وارتفاعه ٤٫٥ سم) ، والثانى طبق له قاعدة وحافة منثنية للداخل ، عليها زخارف بالحفر الغائر فى شكل سنانير ، وقطره ١٩٫٧ سم وارتفاعه ٧ سم وطول الحافة ٢ سم ، أما الإناء الثالث فهو عبارة عن كأس ذو قاعدة ، ارتفاعه ١٢ سم ، وقطر الحافة ١٣ ، وقطر القاعدة ٦ سم .

أما الطبقة العليا لنفس موقع المخازن فكانت تستعمل للدفن فى مقابر مقبية سرقت فى الزمن القديم ، عثر فى رديم إحداها على الجزء الأسفل لتابوت ، وكذلك على الجزء العلوى من تمثال صغير لمجيب من القاشانى الأزرق الفاتح ، ارتفاعه ٥٫٥ سم ، والشعر المستعار محدد بالحبر ، حول التمثال نقش هيروغليفى بالمداد الأسود فى سطرين أفقيين ، يلتقيان حول البطن والفخذين ، ولا يلتقيان فى منطقة الظهر ، حيث يوجد نقش طولى عليه اسم صاحبه « بارع — حور — أيب — أف » . وعلى كل من الكتف والذراع الأيسر رسم محفور وملون يمثل غراره ، المفروض أن يزود بها المجيب ليستعملها عندما ينادى عليه للعمل فى حقول أزوريس ، وهذا الاسم يظهر لأول مرة فى تل بسطه ، ويمكن تأريخ هذه المقبرة بأواخر عصر الدولة الحديثة .

وفى الطبقة السفلى وأسفل السور الضخم عثر على دفنات لعلها لأقدم أقوام استوطنوا تل بسطه ، حيث كانت تقع على أقدم مستوى عثر فيه على مخلفات حضارية (وتحتها التربة البكر) وقد اتخذت تلك الدفنات هيئة القرفصاء كوضع الجنين ، داخل توابيت من الجبس ، وكانت الهياكل العظمية لا تزال تحتفظ بشكلها إلى حد كبير ، وقد زودت إحدى الدفنات التى اتخذت شكل الجنين ببعض الأوانى .

وأثناء الحفر بجوار السور المحيط بالقصر من الشرق إلى الغرب ، وعلى عمق ٢٫١٩ مترا من أعلى مستوى للسور ، كشف عن مصطبة مستطيلة فى اتجاه شرق غرب — من اللبن (طول القالب ٣٩ سم ، الإرتفاع ١١ سم ، السمك ١٣ سم) لها مدخل مقبى ومسدود باللبن ، يؤدى إليه درج من اللبن أيضا ، وسقف المصطبة يبدو مسطحا تقريبا من الطوب . وأطوالها ١٨٨ سم والعرض حوالى ٨٠ سم والارتفاع ٦١ سم ، واتساع المدخل ١٢٠ سم وعمقه ٩١ سم .

وتوقعنا أن نعثر بداخلها على دفنه سليمة ، لأننا لم نتبين أى اثر للسرقة ، وعندما بدأنا الحفر عن طريق مدخلها اتضح لنا أنها مليئة بالطين ، فقمنا بعمل فتحة فى السقف ، واستأنفنا الحفر من أعلى إلى أسفل . ففوجئنا بدفنة مستعرضة مع المصطبة وممتدة خارجا عنها ناحية الشرق لتخترق جسم السور المحيط وهى فى وضع القرفصاء ، والذراعان إلى جانب الجسم ، ولا أثر للتحنيط ، والرأس ناحية الشمال والوجه ناحية الشرق داخل تابوت من الجبس ، وطول المومياء ١٤٧ سم ، وطول التابوت ١٩٦ سم وعرضه ٥٤ سم وسمك الجبس ٣ سم ، ولم يتبقى من التابوت إلا آثار لون أبيض يحيط بالهيكل العظمى فى شكل مستطيل ، وتحت الرأس ما يشبه الوسادة من الجبس أيضا . ولم يعثر مع هذه الدفنة إلا على مقطع صغير من حجر الظران . وهى لاحقة فى الزمن للمقبرة الأصلية .

أما الدفنة الأصلية فعندما وصلنا إليها لم نجد لها بقايا الهيكل العظمى . وأثناء رفع كميات هائلة من الرديم فوق تلك الأجزاء المعمارية عثر فى الرديم على :

١ — دفنات حيوانية لجماجم خيول أو حمير معها أوانى فخارية مدفونة بعناية . قد

تكون إشارة إلى وجود تجمعات لأقوام من آسيا ، أقاموا فى بوبسطه ، لعل من بينهم الهكسوس .

٢ ـ خاتم من الذهب يزينه جعران من العقيق صور عليه بالحفر علامة عنخ « الحياة» كان يستعمل لختم المستندات .

٣ ـ مجموعة جعارين وتمائم وأوانى زجاجية وأوانى فخارية وقشانى ، كما ظهرت قطعة من إناء من القاشانى عليها رسم من الداخل يصور زهرة اللوتس المتفتحة وسمكة تلتهمها ، وظهر أيضا فى الرديم خنجر من البرونز ورأس حربة ورمح أيضا ، وعدد كبير من القلائد من العقيق والقاشانى . بالإضافة إلى أنواع متعددة من الأوانى الفخارية .

٤ ـ ومن أهم القطع الفريدة التى عثر عليها فى رديم منطقة مخازن القصر لوحة من القاشانى للكاتب « أحبو » ويلقب بالكاهن الأعظم للمعبودة بسطة ، وهى قطعة من حجر الأسيتايت ، على سطحها طبقة صفراء مزججة ، وصور عليها بالحفر الغائر والبارز ورقتان ، وبرعمان من الأوراق وبرعم زهرة اللوتس ، وداخل كل ورقة من الورقتين كتب اسم ولقب صاحبها دائريا من حول أطراف الورقتين . وفى منتصف كل ورقة جزء غائر ، كان يستعمل لوضع اللون . وكانت تحملها أربعة أرجل من مادة عضوية كالخشب أو العاج أو العظم ، مازالت أماكنها ظاهرة فى ظهر اللوحة على هيئة حفر مستطيلة ، (ومقايسها : الطول ١٢ر٥ سم والعرض ٦ر٧ سم والسمك ١ سم ، والرقم فى السجل ١١٨ ويحتمل أنها صنعت لغرض جنائزى وليس للاستعمال العادى اليومى . وجميع هذه القطع معروضة بمتحف جامعة الزقازيق بكلية الآداب .

الموقع الثانى :

تم اختيار المكان على تل مرتفع يقع شمال غربى مقبرة نائب الملك حورى التى كشف عنها الدكتور / لبيب حبشى عام ١٩٣٩ ، وشمال شرقى الجبانة التى كشف فيها الأستاذ / شفيق فريد عن مقبرة أونى .

وفى الطبقة العليا كشفنا عن دفنه طفل فى وضع القرفصاء يكاد لا يرى فيها أثر للتحنيط ، متخذا من مدخل المقبرة الأسرية مدفنا له ، وإلى جواره طبقان أحدهما (قطره ٢٦ سم) مسطح يحتوى على بقايا مادة متفحمة ، وربما تستعمل لحفظ قربان ، أو لحرق بخور ، وعندما تم إزالة هذه الدفنة كانت المفاجأة أن عثرنا تحت رأس الطفل على وسادة فى غاية الأهمية عبارة عن تمثال مجيب من حجر الشست أى الإردواز (الطول ١ر١٥ سم وعرض الأكتاف ٤ر٤ سم) على عمق ١٠٤ سم ، وعلى بعد ١٤١ سم من بداية مدخل حوش الدفن للمقبرة الأسرية ويخص أحد كبار رجال الدولة الحديثة يدعى باووت ، جيد الصنع متقن ، عليه نصوص هيروغليفية غائرة فى ست صفوف أو أسطر أفقية على الرداء من الأمام وعلى الجانبين والظهر ، يبدأ الكلام عند نص رأسى محفورة على النقبة المثلثة الأمامية ويقول : « ألا ليته يشرق ويعود إلى الحياة المرحوم باووت » . ويرتدى صاحب التمثال قميصا شفافا ومئزرا يبدأ من أعلا الصدر ، وملتفا بثنيات تضيق حول البطن . ومن الأمام يتخذ المئزر شكل النقبة المثلثة الطويلة التى تبدأ عند الوسط تقريبا ، وتمتد إلى ما فوق العقبين ، فى شكل ثنيات طويلة أربعة منها على كل جانب . وعلى الصدر والبطن صورة بالنحت البارز لطائر « البا » بوجه آدمى ، يفرد جناحيه على صدر التمثال فى شكل مروحة ، ومعلق فى طرفى الجناحين فأسان منحوتان خلف كل كتف ، وذيل يتألف من أربعة ريشات تمتد فى نحت بارز على البطن . وتحمل قدما الطائر علامتين ترمزان إلى الحماية ، أما الذراعان اللذان يغطيهما الرداء بثنيات متقنة إلى ما فوق المرفقين فينثنيان بزاوية قائمة ليستقرا أعلا البطن ، بحيث تبدو اليدان موضوعتان فوق أسفل الصدر . وغطاء الرأس عبارة عن نوعين من الشعر المستعار دقيق الصنع يغطى نصف الجبهة ، وينسدل الشعر المستعار العلوى حتى الكتفين . أما السفلى الذى يظهر من الأمام فانه ينسدل إلى ما تحت الكتف ، ويغطى جزءا من فتحة الرداء . وكان صاحب التمثال ينتعل صندلا محددا عليه تفاصيل أصابع القدمين . وقد عثر على الجزء السفلى المكون من القدمين وجزء من الساقين منفصلا عن بقية جسم التمثال ، ويبدو أنها

مكسورة منذ الزمن القديم ، وأعيد ترميمها قديما بواسطة قطعة خشبية أفرغ لها مكانا فى كلا الطرفين المكسورين .

وعندما حررت هذه المقبرة الأسرية من الأتربة تبين أنها تتألف من مبنى من الطوب اللبن مربع تقريبا على شكل مائدة القرابين ،له مدخل فى جهة الشمال ، حيث عثر على دفنة الطفل وتمثال المجيب سالف الذكر ، ويؤدى المدخل إلى غرفة مقبية فى الوسط عتبها من الحجر الجيرى ، على جانبيها دفنتان إلى اليمين وإلى اليسار مقبيتان أيضا ، اتجاهما شمال / جنوب ، يؤدى إليهما فتحتان فى الجدران ، والأقبية الثلاثة فى سقوفها فتحات نتيجة حفر اللصوص فى الزمن القديم ، والذين نهبوا محتوياتها تقريبا ، والدفنة الشرقية أرضيتها مبطنة بقطع غير منتظمة من الحجر الجيرى الأبيض الجيد ، وعند الزاوية الجنوبية الشرقية لهذه الدفنة عثر على إناء كبير له مقبضان ورقبه طويلة ، ارتفاعه ٤٧ سم ، وقطر الفوهة ١٣٫٥ سم ، والمسافة ما بين المقبضين ٢٧٫٥ سم ، وبالقرب من الإناء السابق عثر على ثلاث تماثيل مجيبة من القاشانى الأزرق الفاتح ، مقاييسها متشابهة (الطول ١٢٫٣ سم وعرض الاكتاف ٤٫٣ سم) كل واحد منها يحمل نصا واحدا طوليا يبدأ من أسفل اليدين اللتين تحمل إحداهما إنائين والأخرى غرارة . ويمتد النص حتى القدمين ، وأحد التماثيل يحمل لقب الخادم وإسم أمنحتب ، والثانى يحمل لقب سيد الدار أو سيدة الدار الجنوبية (أو) المغنية معيه .

وإلى الشرق من هذه المقبرة وبالقرب من مقبرة حورى ، كشفنا عن مقبرة أخرى رقم (٢) أرضيتها مبطنة بقطع غير منتظمة من الحجر الجيرى ، وسقفها عبارة عن قبو واحد ، ذو مدخل مقبى ومغلق بالطوب اللبن ، بداخلها تابوتان من الفخار فى حالة سيئة وعلى مستويين مختلفين . مع الدفنة العليا قدر فخارى عند الرأس بداخله خمس تماثيل مجيبة فخارية عليها بقع سوداء ، والتماثيل رديئة الصنع والحرق (أكبر طول ٢٠٫٧ سم والعرض ١٠٫٦ سم) مكتوب عليها من الأمام بالمداد

الأسود نص بالخط الهيراطيقى ، وضمنها تمثال يرتدى الإزار ذى النقبة المثلثة من الأمام باعتباره رئيسا للمجموعة ، خلافا للشكل التقليدى لتماثيل المجاوبين التى تتخذ عادة شكل المومياء أو الشكل الأوزيرى ، وعليه نفس الكتابات الهيراطيقية .

وبعد اخلاء الدفنة العليا التى كانت فى حالة سيئة ، كشف عن الدفنة السفلى المنهوبة أيضا ومعها قدر فخارى له تماثيل مجاوبين أيضاً وطوله ٥٠ سم مرفوعة فى الإناء على شكل مجموعات ، تولى وجهها ناحية تابوت صاحبها وعليها كتابات أيضاً .

وخلال الكشف عن الطبقة العليا للمنطقة العليا المجاورة لجبانة الدولة الحديثة هذه والتى كشف الأستاذ شفيق فريد عن مقبرة « أونى » فيها ، ظهرت مجموعة كبيرة من توابيت الفخار بعضها ملون أمكننا ترميم عدة وجوه منها للحفاظ على الشكل الخارجى للجزء العلوى من هذه التوابيت ، التى تتخذ شكل المومياء وكانت مثقوبة عند قمة الرأس وكذلك عند القدمين . ويميزها وجود آثار أصابع الصانع على الشعر فيما يبدو أنه قصد إظهارها هكذا . ولأول وهلة تبدو قريبة الشبه بغطاء رأس المناظر التى تصور شعوب البحر ، مثل الصور الموجودة على جدران معبد رمسيس الثالث بمدينة هابو بطيبه . وتابوت واحد ملون كله وعليه رسوم وأسماء لآلهة الجبانة . ولكن حالته سيئة جداً وتعرض معظمه للتفتت عقب تعرضه للهواء الجوى . ومعظم هذه التوابيت من النوع المألوف فى مصر ، والتى تؤرخ بعصر الرعامسة ، وربما تمتد لتشمل العصر المتأخر كله .

كما ظهرت مع الدفنات مجموعة من الجعارين (عددها ١٨ فى الموسم الأول ، وعدد ٢٥ فى الموسم الثانى والمجموع الكلى عدده ٤٣ جعرانا ذات الزخارف الحلزونية ويحمل بعضها أسماء الآلهه مثل آمون وبسطة والصقر سبدو ، أو أسماء الملوك مثل تحوتمس الثالث ، أمنحتب الثانى ، أحدهما طوله ٢ سم وعرضه ١٫٥ سم وعليه تصوير للمعركة الحربية واضحا . حيث صور بالنحت الغائر وبوضوح ملك فوق عجلته الحربية التى يجرها جوادان ، وهو يصرع الاعداء بسهامه ويظهر منهم خمسة صرعى .

وقد عثر على هذا الجعران مع دفنة داخل تابوت فخارى وسلم إلى هيئة الآثار ليعرض فى المتحف المصرى بالقاهرة باسم الجامعة . والتابوت يأخذ اتجاه شرق غرب ، والرأس ناحية الغرب (ومقاييسه ١٦٨ سم للطول ، ٤١ سم للعرض ويحمل رقم ٨٢ فى السجل) .

وعلى نفس المستوى الذى عثر فيه على التوابيت الفخارية ، والذى يبلغ سمكه حوالى المتر وابتداء من السطح العلوى فى التل عثر على دفنه على عمق حوالى ٧٠ سم باتجاه شرق / غرب داخل مدفن مستطيل ، يتألف من مدماك واحد طوله من الخارج ١٨٨ سم ومن الداخل ١٦١ سم والعرض من الخارج ٥٤ سم ومن الداخل ٣٦ سم وطول المومياء ١٣٧ سم وعرض الأكتاف ٢٢ سم وربما وضعت داخل تابوت خشبى أو ملفوفة بالخوص ، لم يبق منه سوى آثار ضعيفة ، عبارة عن تغير فى لون التراب إلى اللون البنى القاتم . وبالقرب من موقع الأقدام من هذا المدفن المستطيل عثر على مجموعة من تماثيل المجاويين من الطين المحروق (نموذج لها عثر عليه يوم ٨ / ٤ المسجلة تحت رقم ٨١ من الموقع) داخل إناء فخارى ، عددها ثمانية مجيب أكبر طول لها ١٨ سم وأكبر عرض ٤٫٥ سم وعلى سطحها الأمامى أثر لكتابات هيراطيقية بالحبر الأسود تحمل اسم الخادم بيروى Pyroy وعلى امتداد هذا الموقع فى اتجاه الشمال ، وإلى جوار الموقع المجاور لجبانة الدولة الحديثة كشفنا على عمق عن مجموعة كبيرة من المقابر المستطيلة المتجاورة ذات السقوف المقبية غالبا . وترتيبها فى طبقات الدفن : توابيت الفخار وأسفلها طبقة من المقابر شبه المقبية ثم تلى هذه المقابر المقبية ومحورها شمال / جنوب ، بعضها استعمل لدفنة واحدة والبعض لدفنتين . والمقابر التى استعملت لدفنة واحدة لها مدخل واحد فى الناحية الشمالية على شكل نصف دائرة ، والتى استعملت لدفنتين لها مدخلان ، وعلى سبيل المثال (المقبرة رقم ٤٧) ، وتختلف عن غيرها بأن سطحها العلوى يتميز بأن قوالب الطوب وضعت فوق بعضها بحيث تبدو مسننة أو على شكل درج من الجانبين الشرقى والغربى ، كما عثر فى جانبها الشرقى وعلى ارتفاع ١٣٠ سم من أساس المقبرة على

لوحتين مربعتين من الحجر الجيرى الأبيض ، وضعا فى طاقتين فى جدار المقبرة الشرقى (مقاسات كل طاقة : عرض ٤٠ سم وارتفاع ٤٥ سم وعمق ٣٠ سم) واللوحتان عليهما صيغة تقدمة القربان (ومقاييسهما ٤٠ × ٤٠ سم) وإحدى اللوحتين فى حالة سيئة لاتسمح لقراءة ما تحتويه جيدا ، ولم يظهر على اللوحتين إسما صاحبيهما ، (وأقصى طول للمقبرة ٥ر٥ مترا وأقصى عرض ٣ مترا ، وأقصى ارتفاع ١٩٥ سم ، مداميك الطوب ٢٤ مدماكا وحجم الطوبة ٣٢ × ١٥ × ٥ر٧ سم) وسقف المقبرة بعدد ثمانية درجات يبلغ ارتفاعها ٧٥ سم تقريبا ، وتم فتح المقبرة بعمل قطاع فى سقفها ، وعلى عمق ١٤٥ سم من سطحها ظهر تابوتان من الخشب المتآكل جدا لونهما أبيض ، الأول طوله ١٣١ سم وعرضه ٥٥ سم وعثر فى داخلة على دفنة راقدة على الجانب الأيسر والرأس فى الشمال والوجه فى الشرق وتمتد الذراعان لتكون اليدين بين القدمين أو على الحوض وهذا مألوف لدى النساء والركبتان منثنيتان ، وعثر على سكين من حجر الظران عند الركبة ، والتابوت الثانى طوله ١٣٠ سم ، والعرض ٤٥ سم ، والبعد بين التابوت الثانى ٨٤ سم ، ولا يختلف عن الدفنه الأولى إلا فى وضع اليدين حيث أنهما كانتا منثنيتين على الصدر ، وليس مع الدفنه أية قرابين .

ومدخل هذه المقبرة يتوسط الجانب الجنوبى ، وهو مقبى وعلى ارتفاع ٥٠ سم من الأولى أى على ارتفاع أربعة مداميك تقريبا ، وأقصى عرض المدخل هو ١٥٠ سم تقريبا .

وفى الجانب الشمالى يوجد مايشبه المصطبة الملحقة بالمقبرة فيما يشبه مائدة قرابين موضوعة على قاعدة مستطيلة .

وتجدر الإشارة إلى أن أول مقبرة مقبية تم الكشف عنها فى نفس الموقع فى نهاية الموسم الأول تتخذ نفس الإتجاه بطول ٤٥٤ سم بها دفنتين كل واحدة داخل تابوت خشبى متآكل فى وضع قريب من القرفصاء والرأس ناحية الشمال والوجه إلى

الشرق وقد سويت أرضية المقبرة وبنيت بالطوب اللبن ثم بالطين وغطيت بطبقة سميكة من الرمال ، ثم وضع التابوتان فوقها . ويميزها أيضا العثور على لوحتين من الحجر الجيرى عليها رسوم ونصوص هيروغليفية بالحفر الغائر فى الجدار الشرقى أيضا وظاهرتان من الخارج ، كما كانتا تؤلفان جزءا من الجدار الشرقى عند التقائه بالسقف المقبى .

والمناظر والنصوص عبارة عن صور وأسماء وألقاب أصحابها ، وصور الزوجات والأولاد بطريقة توضح أن اللوحتين ترجعان إلى أواخر الدولة القديمة وبداية العصر الوسيط الأول . ووجود السطح المكتوب من الخارج ربما يشير إلى إعادة استعمال اللوحتين وأنهما لاتخصان صاحبى المقبرة . واللوحتان تخصان أحد موظفى الدولة المدعو « نيسن » ويحمل لقب المفتش المشرف على أعمال الجرانيت . ويفسر أهمية هذا اللقب ماعثر عليه فى المنطقة من أعداد كبيرة جدا من قطع الجرانيت الذى استعمل بكثرة فى بناء المعبد الرئيسى وقاعة الاحتفالات الخاصة بالملك أوسركون الثانى فى بوبسطه . ويحمل الموظف أيضا لقب كاهن المعبودة بسطه ، بينما توضح الصور المنقوشة بالحفر على الحجر صور صاحب اللوحتين واقفا بردائه الرسمى التقليدى وممسكا بعصاه ، ومن خلفه زوجته وأمامهما أحد الأبناء يتقدمون بطلب الغفران ، وفى الأربعة أركان لنفس المقبرة عثر على أربعة أوانى فخارية على شكل الإصيص سميكة جيدة الصنع . والإصيص له قاعدة مسطحة ومستديرة يتوسطها ثقب (أكبر قطر ٢٧ سم الارتفاع ٢٢٫٥ سم وقطر القاعدة ١٢ سم) وهناك نوع آخر من المقابر ويقع أسفل الطبقة العليا (طبقة توابيت الفخار) بنيت من الطوب النى ، ومحورها شمال / جنوب وواجهتها الشمالية عبارة عن جدار مستطيل ، وتبدو فيها المداخل (وقد تبلغ ثلاث مداخل) ، أما السقف فشبه مقبية : فالمقبرة رقم ١١٨ (المقبرة الجماعية) عرضها ٢٦٠ سم وطولها ٣٦٦ سم وأكثر ارتفاع حوالى ١٠٠ سم ، وسمك الجدار حوالى ٣٥ سم ، وفى الجدار الشمالى منها ٣ مداخل مقبية وأمام كل مدخل عدد من الهياكل بلغت ثلاثة ووضع مع كل مجموعة بجوار الرؤوس

عدد من الأوانى الفخارية ، والهياكل راقدة على الظهر ، والرأس للشمال والوجه لأعلى والسيقان ممتدة جهة الجنوب واليدان ممتدة على الجانبين ، والهياكل موضوعة فوق بعضها . والمجموعة الأولى من الدفنات معها إنائين فخارين (٣٢٣ ، ٣٢٧ فى السجل) وصحن (٣٢٩) ، والمجموعة الثانية عددها حوالى ٣ دفنات ومعها أربعة أوانى فخارية (أنظر أرقام ٣٣٠ وحتى ٣٣٣) ، والمجموعة الثالثة مكونة من خمسة دفنات وبجانب الرؤوس ثلاث أوانى فخارية . .

أهم مايميز الحفائر :

(١) الملاحظ أن كثيرا من آثار المنطقة المكتشفة تحمل طابع المنطقة ، أى أنها تحمل إسم أو رسم المعبودة بسطة ، وأحيانا اسم شخص ينتسب إليها ، مثل كاهن بسطة أو المشرف على أعمال الجرانيت الخاصة بمعبد الإلهة ، أو شكل تميمة عليها رسم المعبودة [١] .

(٢) كشفت الحفائر بشكل واضح عن الدفنات داخل توابيت الفخار سواء تلك التى يتخذ الجزء العلوى منها شكل إنسان ، أو توابيت بدون الملامح . فكانت الدفنة تتألف من تابوت من الفخار ملون أو غير ملون وأحيانا عليه كتابات ورسوم جنائزية ، بداخله الجثة ومع بعضها جعران وربما عقد من العقيق أو تمائم ، وبجواره إناء مغلق بحجر بداخله عدد من تماثيل المجاوبين ، المصنوعة من الفخار الجيد أو الردئ الحرق ، وبعضها عليه كتابات هيراطيقية ، وبعضها بلا كتابات أصلا ، وعند الرأس مبنى دائرى يضم أوانى القرابين ويقوم مقام المخزن أو غرف القرابين فى المقابر الحجرية ، وهذا الابتكار فى طرق الدفن مرجعه إلى طبيعة المنطقة الطينية ، ولعدم وجود مناطق رملية جافة مرتفعة قريبة . كما أن هذه الطريقة تتناسب مع الطبقة الاجتماعية والمستوى الاقتصادى لأصحابها ، وينطبق ذلك على دفنات الأطفال أيضا ، التى كانت توضع داخل قدور كبيرة نسبيا ، وتزود غالبا بالعقود والجعارين والتمائم وغيرها .

(٣) ظهرت عدة دفنات حيوانية داخل مبانى دائرية . إحداها عبارة عن هيكل حيوانى كبير الحجم (من الفصيلة الخيالية) داخل مبنى دائرى ، وآخر عبارة عن ثلاث جماجم من نفس النوع مدفونة بعناية فيما يشبه الدائرة ومعهم طبق فخارى مسطح كبير . وهذا يشير إلى نوع من التقديس لهذه الحيوانات عرفته المجموعات البشرية التى وفدت على مصر من آسيا عبر سيناء واستقرت فى المنطقة الشرقية للدلتا .

(٤) هناك جزء من لوحة صغيرة من القاشانى (أشبه بالقلادة) عليها رسم بالحبر ، ظاهر منها الجزء السفلى من شخص يلبس المئزر القصير ، ويحمل فى جانبه ما يشبه السيف بطريقة غير مألوفة فى مصر ، وأمامه ما يشبه مائدة القرابين ، ربما يكون هو المعبود الآسيوى « رشب » .

(٥) ظهر عدد كبير من تماثيل المجاوبين مع دفنات عادية ولكن طريقة صناعتها كما لو كانت من عمل الأطفال ، لأنها بدون غطاء للرأس كما هو مألوف ، وعيونها بارزة بشكل غير عادى . وبدت أشكالها غير مألوفة مما دعى بعض من شاهدها إلى القول بأنها آسيوية .

(٦) بالقرب من القصر عثرنا على مبنى دائرى بالطوب به حرق شديد ، من الداخل وبداخله عدد كبير جدا من أوانى الفخار المخروطية الشكل فى حجم ساعد اليد ، مغلقة من الناحية الضيقة ومفتوحة من الناحية المتسعة . وهناك أيضا بجوار منطقة الجبانة ذات المقابر المقبية التى كشفنا عنها ولكن على مستوى أعلى ، عثرنا على ما يشبه الغرف الضيقة التى استعملت كأفران نظرا لوجود آثار الحريق بها ، ووجود كميات كبيرة من التراب المحروق بداخلها . ومعها أعداد كبيرة من الأوانى الفخارية الاسطوانية سالفة الذكر وجوارها الصوامع لحفظ الحبوب وأدوات الطحن والجرش ، وبمقارنتها بمناظر الأرغفة المخروطية فوق موائد القرابين . ولذلك نقترح أن هذه الأوانى الاسطوانية استعملت فى صناعة تلك الأرغفة . وكانت تستعمل لمرة واحدة ، توضع بداخلها العجينة وتلقى فى النار وعند نضجها تكسر ويستخرج منها الخبز .

(٧) عثر على ما يحتمل أن يكون عدد ٢ مرساة Anchors وهى عبارة عن قطع من الحجر بها ثقوب لربط الحبال ، مما يشير إلى وقوع المنطقة على أحد فروع النيل . (الفرع البوبسطى) .

(٨) المنطقة ما زال بها عديد من التلال التى تحتاج للكشف عما تخفيه وخاصة المنطقة القريبة من القصر ، حيث أظهرت المجسات وجود منطقة سكنية قديمة خلف قصر الدولة الوسطى ، كما عثر على العديد من الوزنات (أحجار الميزان) والأختام وقطع التراكوتا والمرايا والأسلحة والحلى وغيرها من مخلفات الحياة اليومية للناس فى تل بسطة القديمة .

وكما ذكرنا من قبل نحن نحاول أن يكون عملنا متمما لعمل من سبقنا ، حتى نخرج فى النهاية بصورة شاملة لهذا الجزء الهام من بوبسطه . والعمل ما زال يجرى لمواصلة الكشف عن بقايا مدينة من أهم مدن الدلتا . قبل أن تمتد إليها الأيدى المعتدية لتقضى على البقية الباقية من تراث مصر بالدلتا .

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

الفصل التاسع عشر

نهـــاية العصر الفرعونى

إن تاريخ الإغريق فى مصر يعود إلى ما قبل فتح الاسكندر المقدونى بقرون عديدة . فالمصادر التاريخية تتحدث عن استقرار الإغريق ابتداء من العصر الصاوى « نسبة إلى العاصمة سايس » بالدلتا زمن الأسرة السادسة والعشرين المصرية بين سنتى ٦٦٣ ــ ٥٢٥ق .م. أى منذ زمن رحيل الآشوريين عن وادى النيل إلى أن دخل الفرس مصر وفتحوها .

ومن دراستنا لتاريخ مصر الفرعونية نعلم أن الأسرة الحادية والعشرين وهى المعروفة بأسرة العظام التى حكمت البلاد من طيبة قد سقطت على أيدى الليبيين ، الذين استوطنوا الدلتا وتمصروا وأخذوا فى تقوية مركزهم ، ثم وحدوا صفوفهم تحت زعامة أميرهم شيشنق واستطاعوا أن يسيطروا على الوادى فى مصر فى منتصف القرن العاشر قبل الميلاد ، واستمروا يحكمون على شكل أسرات متتالية شملت الأسرتين ، الثانية والعشرين والثالثة والعشرين .

وفى أثناء تلك المدة من حكم الليبيين لمصر كان جنوب الوادى ، ونقصد به النوبة وشمال السودان ، قد مر بعدة مراحل مختلفة من النمو الاجتماعى والسياسى ، إلى أن أصبح من أقوى العوامل المؤثرة فى سياسة الوادى كله . ورغم قلة المصادر التاريخية عن تلك المدة منذ بداية حكم الليبيين فى مصر حوالى سنة ٩٥٠ق .م . حتى بداية ظهور شمال السودان كدولة مستقلة ذات ثقل سياسى كبير حوالى عام ٧٥٠ قبل الميلاد ، فان المؤرخ يواجه الحقيقة المقررة تاريخيا ونقصد بها زحف الجيش السوانى من الجنوب وقيامه بطرد الليبيين من مصر ، ونجاح هذا الجيش فى أن يعيد للوادى استقلاله ووحدته . والجدير بالملاحظة أن الآثار المصرية والنصوص التى

وصلتنا فى ذلك العهد اعتبرت هذا الإجراء من جانب حكام نبته أمرا مسلما به ، كما لم ينظر المصريون إلى حكم الأسرة الخامسة والعشرين السودانية على أنه حكم أجنبى ، ولم ترد أية إشارة على عكس ذلك . واستمر ملوك نبته فى مصر ما يقرب من مائة سنة ، وفى ذلك الوقت وصلت دولة آشور إلى مرحلة تكوين امبراطورية عسكرية هائلة وبدأت فى تهديد مصر ، إلى أن تمكن الملك الأشورى أوسر حدون (من ٦٨٠ إلى ٦٩٦ق .م .) من الاستيلاء على الدلتا سنة ٦٧١ق .م . واضطر الملك طهارقا (ترهاقا) إلى التقهقر جنوبا تاركا الدلتا للآشوريين ، ولكنه استطاع أن يسترجعها من آشور بانيبال ، ثم تغير الوضع فى غير صالح الملك السودانى ، لأن الملك الآشورى كان قد صمم على استعادة مصر ، واستطاع فعلا أن يعيد فتحها سنة ٦٦٧ق .م . وبعد مدة استعد تانوت أمانى (تانوت أمون) واسترد منف من الآشوريين ، وأثار ذلك الملك الأشورى فتقدم إلى مصر سنة ٦٦٣ق .م . حينئذ فر تانوت أمانى إلى نبته ، وترك طيبة تقع فى يد الملك الآشورى الذى قام بتدميرها ، ومنذ ذلك الحين لم يحاول الملك السودانى استعادة مصر ، واستمر يحكم فى عاصمته القديمة نبته . وقبل أن يتوجه الملك الآشورى إلى عاصمته نينوى عين الأمير (بسماتيك) حاكما على مصر ، وبعد ذلك انشغلت آشور عن مصر بحروبها مع عيلام .

وانتهز الحاكم بسماتيك الفرصة فامتنع عن دفع الجزية لآشور ونصب نفسه ملكا على مصر ، واستعان بعدد كبير من الجنود الإغريق المرتزقه للوصول إلى هدفه ، وعرفت أسرته باسم الأسرة السادسة والعشرين (أو الأسرة الصاوية نسبة إلى العاصمة سايس) .

وإلى جانب العدد الكبير من الجنود المرتزقة الإغريق حضرت إلى مصر طوائف من تجار الإغريق ، واستقر معظمهم عند المصب الغربى للنيل مما أدى إلى ازدياد أهمية الفرع المسمى بالفرع (الكانوبى) . وقد تم فى ذلك الزمن تأسيس مدينة أغريقية بوساطة الإغريق عرفت فيما بعد باسم نقراطيس ، وفى أيام الأسرة السادسة والعشرين أصبح للإغريق المكان الأول فى الجيش ، فاتخذ منهم الفراعنة حرسه

الخاص وأنشأ الملك بسماتيك لهم معسكرين أحدهما بالقرب من كانوب والثانى فى السويس ، وذلك لحماية مدخلى البلاد فى الشرق والغرب ، كما سمح للإغريق بانشاء مراكز تجارية فى كل من نقراطيس وكانوب وسايس ، وهكذا نجد أن سياسة ملوك الأسرة السادسة والعشرين تتميز بالعطف على الإغريق والاستعانة بهم فى الجيش والاستفادة من خبرتهم فى التجارة .

وفى سنة ٥٢٥ق .م . استطاع قمبيز الفارسى غزو مصر أيام الملك بسماتيك الثانى ، بعد أن فتح ممالك الشرق وضمها إلى امبراطوريته ، وخلفه الامبراطور دارا الذى قام بزيارة مصر سنة ٥٠٧ق .م . وتوج بها على الطريقة الفرعونية ، ومن أهم أعماله إتمام القناة التى بدأها نخاو الثانى من ملوك الأسرة السادسة والعشرين لربط البحر المتوسط بالبحر الأحمر عن طريق النيل ، كما أمر بإقامة معبد فى الواحة الخارجة . ولم يهدأ المصريون طوال فترة الاحتلال الفارسى . وقاموا بثورات فى سنتى ٤٤٨ ، ٤٤٥ق .م . كذلك زار مصر خلال تلك الفترة عدد من المفكرين الإغريق منهم فيثاغورس . وفى تلك الفترة كانت بلاد الإغريق تمر بمرحلة حاسمة من تاريخها ، فبعد أن وصل نظام المدينة الحرة إلى أقصى ما كان متوقعا له من ازدهار فى القرن الخامس قبل الميلاد ، بدأ ذلك النظام ينحل رويدا رويدا ، حتى وصل إلى درجة كبيرة من الفوضى شجعت مقدونيا الواقعة شمالى اليونان على محاولة توحيد كل بلاد الإغريق تحت زعامتها ، منتهزة فرصة الخطر الفارسى المشترك الذى كان يهدد الحضارة الإغريقية بالفناء . وحاول فيليب الثانى ملك مقدونيا أن يخضع بلاد الإغريق ، ولكن الإغريق كانوا يقدسون الحرية ، وكان استقلال مدنهم يكون جزءا لايتجزء من حياتهم . ولقد اعتبر معظمهم أن أطماع مقدونيا تشكل الخطر الأساسى القريب بالنسبة لهم . فكونوا حلفا ضد فيليب ، ولكنه هزمهم فى عام ٣٣٨ق .م . واستطاع بعد ذلك ان يكون حلفا ضم معظم المدن وجعل مقره فى كورنثه ، وقرر القيام بمواجهة الفرس ولكنه توفى سنة ٣٣٦ق .م . قبل أن يحقق أهدافه . وأتى ابنه الاسكندر فتبنى مشروع والده ، فوجد الاسكندر أن خير الأمور أن يستولى على كل

سواحل آسيا الصغرى وشرق البحر المتوسط ، فاستولى على صور فى فينيقيا وتوجه نحو مصر وبرقه ، وكان يقصد عزل الأسطول الفارسى فى البحر المتوسط ومنع تقديم أى نوع من العون له ، بما فى ذلك التموين وإصلاح السفن . وأدرك كذلك أنه عندما يستولى على مصر فإنه يضمن مصدرا هاما من مصادر الغلال المتوفرة فى مصر . ثم ان مصادر ثروة مصر الغنية ستصبح من عوامل قوة الإغريق عندما يحين لقاء الفرس من جديد . فلما تم للإسكندر النصر على دارا الثالث ملك الفرس فى موقعة اسوس (وتقع شمال انطاكية) فى خريف سنة ٣٣٣ق .م . ترك عدوه يفر شرقا نحو بلاده بينما توجه الاسكندر جنوبا نحو فينيقيا ، وبعد أن استولى على صور وغزه توجه قاصدا مصر . فوصل حدودها الشرقية فى نوفمبر سنة ٣٣٢ق .م . على رأس جيش من أربعين ألف جندى ، يحرسهم أسطول قوى . وعندما أدرك الوالى الفارسى أن لا جدوى من المقاومة ، لأن المصريين أظهروا تأييدهم للاسكندر ، سلم الحامية الفارسية للاسكندر . والواقع أن الإغريق قدموا يد المساعدة من قبل للثورات المصرية ضد الحكم الفارسى . وأما الآن فإن الوضع يختلف ، فقد حضر الاسكندر ليفرض سيادة الإغريق المقدونيين على مصر ، ولينهى عصر الأسرات المصرية ، ويطوى آخر صفحة من صفحات التاريخ الفرعونى .

وسار الأسطول الإغريقى بمحاذاة الشاطئ ، ودخل فرع النيل الشرقى ، حتى وصل إلى منف . هناك أظهر الإسكندر تقديره للعقائد والديانة المصرية ، فقدم القرابين للآلهة المصرية ، كما نصب نفسه ملكا على الطريقة المصرية فى معبد الإله بتاح معبود منف مثلما كان يعمل ملوك مصر القدماء من قبل . ولكى يتقرب من قلوب الإغريق المقيمين فى مصر أقام فى منف حفلا على الطريقة الإغريقية حضره عدد من مشاهير الموسيقيين الإغريق .

ثم أبحر الاسكندر من منف إلى البحر المتوسط خلال فرع النيل الغربى وفى مكان القرية المصرية القديمة المسماة راكوده أمر بإقامة المدينة التى عرفت باسمه فيما بعد .

وأخذ الاسكندر جزءا من جيشه وبعضا من أصحابه وتوجه غربا بمحاذاة شاطئ البحر المتوسط حتى وصل إلى مرسى مطروح ، ومن هناك اتجه جنوبا إلى قلب الصحراء حيث يقع معبد الإله آمون فى واحة سيوه . ويتساءل المؤرخون عن السبب الذى دعا الاسكندر إلى القيام بهذه الزيارة الشاقة . والراجح الاسكندر كان يرمى من وراء تلك الزيارة إلى تأكيد صلة نسبه بالآلهة أمام العالم ، على الرغم من أنه توج فى دى منف وأصبح بذلك ملكا للمصريين فإنه أراد أن يثبت للعالم أنه ينتسب أيضا إلى الآلهة ، وأراد الاسكندر أن يحصل على تأييد من الإله آمون لمشروعاته المقبلة وهو فى سبيله للسيطرة على العالم القديم ، يضاف إلى ذلك أن الاسكندر أراد أن يشبع ميله إلى المخاطرة ، مثلما كان يفعل أبطال الإغريق فى الأساطير القديمة . وكان لكاهن معبد آمون فى سيوة شهرة عالمية فى العالم القديم . وكان القواد والملوك يرسلون إليه الرسل لاستشارة الكاهن الأكبر هناك عندما كانوا يقدمون على مشروعات كبيرة أو يخرجون للقتال . ولقد ذاع صيت وحى آمون بسيوه فى العالم القديم واعتقد الناس فى قدرته على قراءة الغيب .

لماذا اتخذ الاسكندر الطريق بمحاذاة الساحل ولم يتخذ الطريق الطبيعى من وادى النيل عبر وادى النطرون ؟ .

لقد إعتاد الإغريق اتخاذ هذا الطريق من قبل متوجهين إلى واحة سيوه ، بالإضافه إلى أن الاسكندر عندما واتته فكرة زيارة معبد آمون بواحة سيوه ، كان موجودا بالفعل على شاطئ البحر المتوسط فى الموقع الذى أشار بأن تقام عليه مدينة للإسكندريه . فالطريق الساحلى كان بالنسبة إليه هو الطريق الأقصر .

وهناك سبب أخر هو أن الإسكندر أراد أن يقوم بما يشبه استعراض القوة ، لكى يرهب أهل برقة . وكان فى نيته إخضاع أهلها ، وبالفعل تقدم إليه سفراء برقة وقدموا ولاءهم إليه ، وقيل أن نفرا من أهل برقة ساعدوا الإسكندر فى الوصول إلى الواحة .

وبعد أن قطع الإسكندر مسافة إثنى عشر يوما حافلة بالأخطار وصل إلى

المعبد ، ووجد الكهنة فى استقباله ، مع كبيرهم الذى لقب الاسكندر بابن الإله أى ابن الإله آمون . ثم دخل الاسكندر إلى قدس الأقداس حيث تمثال الإله آمون ، وبعد مدة خرج إلى أصحابه ، ولما سألوه عما دار بينه وبين الإله قال أنه سمع ما يسره ، وربما يكون الاسكندر يقصد بذلك أن رد الوحى على أسئلته إنما هو سر من الأسرار .

وكان من نتائج زيارة الاسكندر لواحة سيوة حصوله على الاعتراف بالأصل الإلهى ، تأكيداً لحقه فى السيطرة على كل العالم القديم . ولقد لقب الاسكندر بابن الإله آمون . وأمر بأن تزود صوره على العمله بقرنى الكبش المقدس رمز الإله آمون . والمعروف أن الإله آمون كان يزين تاجه بقرنى الكبش . وعند عودته من الواحة سلك طريقا آخر عبر وادى النطرون متجها إلى منف . والمعروف أن هذا هو الطريق الذى سلكه الجيش الفارسى الذى أرسل إلى واحة سيوة ، ذلك الجيش الذى قالت عنه الرواية أنه فقد فى بحر الرمال الأعظم حيث الرمال المتحركة ، فلم يصل إلى الواحة ولم يعد إلى منف وفى منف أقام الاسكندر حفلا على الطريقة الإغريقية ، استقبل خلاله وفودا من الدول الإغريقية .

وأثناء وجود الاسكندر فى مصر أمر بتنظيم إدارة البلاد داخليا قبل مغادرة مصر . ولم ير سببا فى اتخاذ تدابير خاصة ضد المصريين لأنهم سبق أن رحبوا به على اعتبار أنه محررهم من نفوذ الفرس . ونتيجة لذلك فقد منح مصر استقلالا داخليا وجعل البلاد فى يد حاكمين من قبله أحدهما مصرى الأصل والآخر يبدو أنه من آسيا الصغرى أو من فارس ، وبعد مدة قصيرة اعتزل الحاكم المصرى السلطة وانفرد الآخر بحكم مصر .

أما الأقاليم المجاورة للدلتا شرقا وغربا فوضعت تحت حكم رجلين من الإغريق أحدهما يدعى أبولونيوس الذى عين حاكما على غربى الدلتا بما فيها الصحراء الغربية ، والإغريقى الآخر يدعى كليومنس وهو من نقراطيس ، وقد عين حاكما على المنطقة الشرقية المجاورة لخليج السويس ، كما كلف الاسكندر كليومنس أن يطلب

من الحاكمين أن يرعيا العرف والتقاليد المصرية فى حكمهما للبلاد ، وان يحصل منهما الضرائب . ومعنى ذلك ان الإدارة المصرية كلها أصبحت فى يد كليومنس .

ولما شرع الاسكندر فى ترك مصر ، بعد أن تم له فتحها ترك جيشا وأسطولا ، وطلب من كليومنس أن يشرف على إنشاء مدينة الإسكندرية ثم غادر مصر . وكان النظام الداخلى الذى وضعه الاسكندر لمصر يمتاز بظاهرتين :

الأولى أن السلطة كلها قد أصبحت فى زمن قصير فى يد كليومنس وحده حتى فى زمن الاسكندر نفسه ، والواضح أن النظام الموضوع لم يكن هو المسئول عن ذلك التطور فى تركيز السلطة فى يد فرد واحد وإنما السبب هو ضعف بعض الحكام وطموح كليومنس .

ثانيا أن الاسكندر أظهر عطفا نحو المصريين فلقد اختار من بينهم حكاما للبلاد ، واحترام عقائدهم ولم يحاول التعرض لتقاليد أهل البلد . وكانت هذه هى طريقة الاسكندر فى حكم الشعوب المغلوبة عموما . ولو أننا نلاحظ نقصا لتلك السياسة فى نهاية حياة الاسكندر . أما فى مصر فقد كان ذلك التغيير من عمل كليومنس نفسه . فعند وفاة الاسكندر كانت مصر ولاية يسيطر عليها كليومنس تماماً ، وقد اتخذ كليومنس كثيرا من الإجراءات التى اتسمت بالاستغلال وخاصة فى اوقات الأزمات ، مما أدى إلى كره الشعب لحكمه . وكان الاسكندر مشغولا فى أواسط آسيا عما كان يقع من أحداث فى مصر فانتهز كليومنس الفرصة وشدد قبضته على المصريين .

ونحن نعرف أن الإسكندر قصد إلى بابل بعد مغادرته لمصر سنة ٣٣١ق .م . وهناك التقى بالجيش الفارسى وانتصر عليه نصرا حاسما ثم توغل نحو أواسط آسيا حتى وصل إلى الهند . واستولى على كل ولايات الامبراطورية الفارسية المغلوبة . وفى سنة ٣٢٣ق. م . توفى الاسكندر فى بابل فى طريق عودته ولم يكن قد بلغ سن الثالثة والثلاثين بعد .

الفصل العشرون

« قصة اللعنة التى شاعت عند الكشف عن مقبرة توت عنخ آمون »

إن ما حدث فى مساء اليوم السادس والعشرين من شهر نوفمبر سنة ١٩٢٢ من مفاجأة اكتشاف المقبرة الملكية للفرعون الصغير « توت عنخ آمون » فى وادى الملوك مازال يعد أعظم وأغنى الاكتشافات فى مجال علم الآثار على الاطلاق . وقد استغرق نقل ما بها من كنوز أثرية ما يقرب من عشر سنوات لتعرض فى المتحف المصرى بالقاهرة . فبعد أن كان يعتقد أن الوادى قد باح بكل أسراره ، ولم يعد يضم مقابر ملكية ، شاءت الصدفة والعمل الدئوب لفريق من الباحثين وعلى رأسهم رجل الآثار المصرية البريطانى الأصل هوارد كارتر ، ومموله البريطانى اللورد كارنارفون ، أن يتم على أيديهم هذا الاكتشاف المذهل ، الذى وضعته وسائل الإعلام حينذاك فى مركز اهتمامات العالم المتمدين ، فتوفق على الموقع أعداد كبيرة من رجال الصحافة والإعلام ، والسائحون من مختلف الجنسيات بشكل سبب إعاقة العمل ، وأدى إلى مضايقات كبيرة لرجال الآثار . وقد دخل المكتشف فى صراع مع السلطات المصرية من أجل الحصول على نصيب من الكنز ، على حين أصرت مصر على عدم خروج أية قطعة ، ونجحت مصر فى الاحتفاظ بالمجموعة كاملة والتى بلغت حوالى خمسة آلاف قطعة فنية (لوحة رقم ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩) .

وحدث فى أوائل شهر مارس من العام الثانى (١٩٢٣) وأثناء العمل فى المقبرة أن غادر اللورد كارنارفون طيبة إلى القاهرة ، وهناك مرض لورد كارنارفون مرضا شديدا ، أثر على صحته بل حالته العقلية أيضا . وقيل فى سبب مرضه أن بعوضة من وادى الملوك ناقلة للمرض كانت السبب فى رفع درجة حرارته ، وتورم رقبته ، واستمرت صحته فى التدهور إلى أن مات فى السادس من أبريل ١٩٢٣ .

وتناولت وسائل الإعلام موت اللورد وصورته بطريقة درامية ، عندما أضاف أحد المراسلين ان كل أضواء القاهرة أظلمت في نفس الليلة التى مات فيها لورد كارنارفون ، ولم يكتشف سببا وجيها لذلك . وعندما أضاف ابن اللورد المقيم بانجلترا ان كلب اللورد نبح نباحا شديدا وسقط ميتا فى نفس اللحظة التى مات فيها صاحبه فى مصر ، بدأت الصحافة تردد كلمة اللعنة .

وتناولت الصحف موت اللورد وأرجعت سببه إلى لعنة من مقبرة الملك توت عنخ آمون . هنالك أعلن للعالم مؤلف الروايات البوليسية وصاحب شخصية شرلوك هولمز البوليس السرى ـ والمدعو كونان دويل Conan Doyle أن موت اللورد قد يكون سببه « لعنة الفراعنة » . ومن هنا بدأت الحملة المسعورة وتسابق المحررون إلى اختلاق نصوص فرعونية مكتوبة على المقصورة الثانية أو على قطع من الأحجار . وادعوا أنها تشير إلى تلك اللعنة المزعومة ، وتمادوا فى ادعاءاتهم . إلى الحد الذى جعل أصحاب المجموعات الخاصة من الأغنياء إلى الاسراع إلى المتاحف للتخلص مما لديهم من آثار الفراعنة خشية أن تصيبهم لعنة الفراعنة .

والواقع أن القبر لم يحتو على أى نوع من اللعنة ، سوى أن القاعدة الطينية للشمعة الموضوعة أمام مقصورة المعبود أنوبيس التى تؤدى إلى الكنز عليها نوع من التحذير والحماية :

يقول « إنه أنا الذى أمنع الرمال من الوصول إلى الغرفة المقدسة ، وأنا موجود لحماية المتوفى » وهو قول عام لا يحتوى على لعنات . وهى صفات قديمة للمعبود أنوبيس .

والواقع أن أمثال هذه اللعنات طوال التاريخ الفرعونى لم تكن شائعة ، وكانت موجهة لكل من يقتحم القبر نجسا أو من يتسبب فى اصابة محتوياته بأى أذى . ونادرا ما كانت اللعنة توجه للصوص . وهناك مثال من الدولة القديمة يقول « أما فيما يتعلق بمن يقتحم هذا القبر ليستولى على أثاثه الجنائزى لنفسه ، أو يحاول أن يمسه بأذى ، فسوف يحاكم على فعلته لدى الإله الأكبر » .

وتنافست الصحافة فى افتعال أحداث للإثارة ، يزعم أنها وقعت للورد كارنارفون فى المقبرة الملكية وتسببت فى مرضه ووفاته ، فقالوا أنها بكتيريا مميته كانت محبوسة داخل الحجرات طوال آلاف السنين ، أو أن اللوردأصيب بجرح من إحدى الآلات والأسلحة التى عثر على العديد منها فى المقبرة . بل أن الأمر تعدى ذلك إلى تتبع كل حالة من حالات الوفاة حدثت لكل من وطئت قدميه مقبرة توت عنخ آمون ، فإذا ما وقع حادث عادى لأحدهم كان المراسلون يرجعونه إلى لعنة الفراعنة .

ولقد حاول أحد المشتركين فى البعثة وهو الأمريكى هربرت ونلوك ان يرد فى حينه على ادعاءات الصحافة . وعدد حالات الوفاة التى حدثت لمن دخل المقبرة وادعت الصحافة أن وفاتهم بسبب لعنة الفرعون ، وأثبت أنها حالات وفيات عادية . ولكن صوته ضاع عن صخب الدعاية والإثارة الصحفية .

ويكفى أن نعلم أن المكتشف كارتر نفسه قد عاش حتى عام ١٩٣٩ ، أى أنه عاش ١٧ سنة بعد اكتشافه للمقبرة . كما أن الفريد لوكاس ، الذى قام بعمليات الترميم لآثار المقبرة ، وكان يشغل رئيس القسم الكيماوى فى الحكومة المصرية حينذاك ــ عاش بعدها نحو ثلاثين سنة .

وجستاف لوففر ، الذى قام بتنسيق المجموعة فى المتحف المصرى عاش حتى ١٩٥٧ ، ومعه ييبرلاكو الذى امتد به العمر حتى عام ١٩٦٣ ، ومات وعمره ثمانون سنة . وهكذا نتبين ان مقبرة الملك توت عنخ آمون بريئة من هذه التهمة ، التى صورها خيال مؤلف بوليسى خصب ، وتناولتها الصحافة بالتضخيم والإثارة .

* * * * *

قائمة باسماء ملوك مصر

عصر ما قبل الأسرات :

١ ــ الملك العقرب .

٢ ــ الملك كا .

٣ ــ الملك نعرمر .

الأسرة الأولى :

١ ــ عحا (المحارب) ، وهو نفسه مينا عند المؤرخ مانيتون .

٢ ــ أتوتى (؟) .

٣ ــ جر .

٤ ــ واجى .

٥ ــ ديوين .

٦ ــ عجيب (عزيب) .

٧ ــ سمرخت .

٨ ــ قا ــ عا .

الأسرة الثانية :

١ ــ حتب سخموى .

٢ ــ نب ــ رع .

٣ ــ نى ــ نثر .

٤ ــ واز ــ نس أو (سخم ــ ايب) أو (بر ــ ايب ــ سن) .

٥ ــ سنج أو (سيند) .

٦ ــ نفر ــ كا ــ رع .

٧ ــ نفر ــ كا ــ سوكر .

٨ ــ حو ــ جفا .

٩ ــ خع ــ سخموى .

الأسرة الثالثة :

١ ــ نب ــ كا .

٢ ــ زوسر .

٣ ــ زوسر ــ تتى ــ (سخم ــ خت وهو الاسم الحورى) .

٤ ــ خع ــ با .

٥ ــ حونى .

الأسرة الرابعة :

١ ــ سنفرو .

٢ ــ خوفو .

٣ ــ ددف ــ رع (جدف ــ رع) .

٤ ــ خفرع .

٥ ــ بيخريس ــ با ــ كا ــ رع Bicheris .

٦ ــ منكاورع .

٧ ــ شبسسكاف .

٨ ــ تمفتيس Thamphthis (ذكر فقط عند المؤرخ مانيتون) .

الأسرة الخامسة :

١ ــ أوسر ــ كاف .

٢ ــ ساحورع .

٣ ــ نفر ــ إير ــ كارع .

٤ ــ شبس ــ كارع .

٥ ــ نفرف ــ رع (نفر ــ إف ــ رع) .

٦ ــ نيو ــ سررع (نيو ــ وسر ــ رع) .
٧ ــ منكاو ــ حور .
٨ ــ إسيسى .
٩ ــ أوناس .

الأسرة السادسة :

١ ــ تتى .
٢ ــ أوسر ــ كارع .
٣ ــ ببى الأول .
٤ ــ مرنرع (نمتى ــ ام ــ ساف الأول) .
٥ ــ ببى الثانى .
٦ ــ نمتى ــ ام ــ ساف الثانى .
٧ ــ الملكة نيتوكريس .

الأسرتان السابعة والثامنة :

١ ــ تترى ــ كارع .
٢ ــ منكارع .
٣ ــ نفر كارع الثانى .
٤ ــ نبى (نفر كارع الثالث) .
٥ ــ شيماى (جد ــ كا ــ رع) الثانى .
٦ ــ خندو (نفر كارع الرابع) .
٧ ــ مرنحور .
٨ ــ نفر ــ كا ــ مين .
٩ ــ نيكارع .
١٠ ــ تيريرو (نفر كارع الخامس) .
١١ ــ نفر ــ كا ــ حور .

١٢ ــبى ــ سنب (نفر كارع السادس) .

١٣ ــعنو (نفر ــ كا ــ مين) .

١٤ ــإبى الأول .

١٥ ــنفر ــ كاو ــ رع .

١٦ ــنفر ــ كاو ــحور .

١٧ ــنفر ــ إر ــ كارع الثانى .

الأسرتان التاسعة والعاشرة ــ (هيراكليوبوليس ــ إهناسيا المدينة) :

٣ ــ نفر ــ كا ــ رع السابع .

٤ ــ خيتى .

٦ ــ خيتى ابن الملك نفر ــ كارع (؟) .

وهناك ملوك عددهم خمسة لا يزال ترتيبهم غير مؤكد .

الأسرة الحادية عشرة (طيبة) :

١ ــ منتوحتب الأول .

٢ ــ إنتف الأول .

٣ ــ إنتف الثانى .

٤ ــ إنتف الثالث .

٥ ــ منتوحتب الثانى .

٦ ــ منتوحتب الثالث .

٧ ــ منتوحتب الرابع .

الأسرة الثانية عشرة :

١ ــ أمنمحات الأول .

٢ ــ سنوسرت الأول .

٣ ــ أمنمحات الثانى

٤ ــ سنوسرت الثانى

٥ ــ سنوسرت الثالث

٦ ــ أمنمحات الثالث

٧ ــ أمنمحات الرابع .

٨ ــ الملكة نفرو ــ سوبك .

الأسرة الثالثة عشرة :

١ ــ أوجاف .

٢ ــ أمنمحات ــ سنبف .

٣ ــ سخم ــ رع ــ خوتاوى .

٤ ــ أمنمحات الخامس .

٥ ــ سحتب ــ إيب ــ رع الثانى .

٦ ــ ايوفنى .

٧ ــ أمنمحات السادس

٨ ــ سمنكارع .

٩ ــ سحتب ــ إيب ــ رع الثالث (سحتب ــ إيب ــ رع) .

١٠ ــ سواز ــ كا ــ رع .

١١ ــ نجم ــ إيب ــ رع .

١٢ ــ سوبك ــ حوتب الأول .

١٣ ــ رنى ــ سنب .

١٤ ــ حور الأول .

١٥ ــ أمنمحات السابع .

١٦ ــ سوبك ــ حوتب الثانى .

١٧ ــ خنزر .

١٨ ــ إميرا ــ مشع .

١٩ ــ إنتف الرابع .

٢٠ ــ سيت .

٢١ ــ سوبك ــ حوتب الثانى .

٢٢ ــ نفر ــ حوتب الأول .

٢٣ ــ سحتحور .

٢٤ ــ سوبك ــ حوتب الخامس .

٢٥ ــ سوبك ــ حوتب الرابع .

٢٦ ــ خع ــ إيب .

٢٧ ــ أى (مرنفرع) .

٢٨ ــ إينى الأول .

٢٩ ــ سواز ــ تو .

٢٠ ــ ايند .

٣١ ــ حورى .

٣٣ ــ سوبك ــ حوتب السادس .

٣٧ ــ ددو ــ موسى .

٣٨ ــ إيبى الثانى .

٣٩ ــ حورى الثانى .

٤٠ ــ س ــ ....كارع .

٤١ ــ سنب ــ ميو .

٤٤ ــ سخعى ــ انرع .

٤٦ ــ مرى ــ خبر ــ رع .

٤٧ ــ مرى ــ كا ــ رع .

الأسرة الرابعة عشرة :

٢ ــ نحسى .

٣ ــ خعى ــ تيرع .

٤ ــ نب ــ فاو ــ رع .

٥ ــ سحب ــ رع .

٦ ــ مرى ــ جفا ــ رع .

٧ ــ سواز ــ كا ــ رع .

٨ ــ نب ــ جفا ــ رع .

٩ ــ أوبنرع .

١٣ ــ ٦٢

الأسرة الخامسة عشرة (الهكسوس) :

١ ــ ساليتيس (شارك) .

٤ ــ خيان .

٥ ــ أبوفيس .

٦ ــ خامودى .

وهناك أسماء أخرى لا يعرف ترتيبها على وجه التحديد مثل : سخع ــ ان ــ رع الثانى ، (٢) ششى ، (٣)يعقوب ــ حور .

الأسرة السادسة عشرة (حكام يخضعون للهكسوس) :

وكلها وردت على الجعارين والآثار الصغيرة :

١ ــ عنت ــ حور .

٢ ــ أوسر ــ عنت .

٣ ــ سمقن .

٤ ــ سكت .

٥ ــ وازا .

٦ ــ قار .

٧ ــ بى الثالث .

٨ ــ ببعنخ .

٩ ــ نب ــ مارع .
١٠ ــ نيكارع الثانى .
١١ ــ عا ــ حتب ــ رع .
١٢ ــ عا ــ نترى ــ رع .
١٣ ــ نوب ــ عنخ ــ رع .
١٤ ــ نوب ــ أوسرع .
١٥ ــ خع ــ أوسر رع .
١٦ ــ خع ــ مورع .
١٧ ــ يعقوب ــ بعل .
١٨ ــ ياك ــ بام .
١٩ ــ ايعم .
٢٠ ــ عامو .

الأسرة السابعة عشرة (طيبه) :

١ ــ إنتف الخامس .
٢ ــ رع ــ حتب .
٣ ــ سوبك ــ إم ــ ساف الأول .
٤ ــ جحوتى .
٥ ــ منتوحتب السابع .
٦ ــ نب ــ ارى ــ آو ــ الأول .
٧ ــ نب ــ ارى ــ أو الثانى .
٨ ــ سقننرع .
٩ ــ سى ــ أوسر ــ أن ــ رع .
١٠ ــ سوبك ــ إم ــ ساف الثانى .
١١ ــ إنتف السادس .

١٢ ــ إنتف السابع .
١٣ ــ تاعا الأول .
١٤ ــ تاعا الثانى .
١٥ ــ كامس .

الأسرة الثامنة عشرة :

١ ــ أحمس .
٢ ــ أمنحتب الأول .
٣ ــ تحوتمس الأول .
٤ ــ تحوتمس الثانى .
٥ ــ الملكة حتشبسوت .
٦ ــ تحوتمس الثالث .
٧ ــ أمنحتب الثانى .
٨ ــ تحوتمس الرابع .
٩ ــ أمنحتب الثالث .
١٠ ــ أمنحتب الرابع (أخناتون) .
١١ ــ سمنخ ــ كارع .
١٢ ــ توت ــ عنخ ــ آمون .
١٣ ــ آى .
١٤ ــ حور محب .

الأسرة التاسعة عشرة :

١ ــ رمسيس الأول .
٢ ــ سيتى الأول .
٣ ــ رمسيس الثانى .
٤ ــ مرنبتاح .

٥ ــ سيتى الثانى .
٦ ــ آمون ــ مس .
٧ ــ سيبتاح .
٨ ــ الملكة تا ــ أوسرت .

الأسرة العشرون :

١ ــ ست ــ نخت .
٢ ــ رمسيس الثالث .
٣ ــ رمسيس الرابع وحتى الحادى عشر .

الأسرة الحادية والعشرون :

١ ــ سمندس .
٢ ــ آمون ــ إم نيسوت .
٣ ــ بسوسنس الأول .
٤ ــ أمنموبت .
٥ ــ أوسر ــ خر .
٦ ــ سيآمون .
٧ ــ بسوسنس الثانى :

كهنة آمون فى طيبه يصلون إلى الحكم :

١ ــ حريحور .
٢ ــ باى ــ نجم .
٣ ــ بسوسنس .

الأسرة الثانية والعشرون :

١ ــ شيشنق الأول (ومن صفاته أو ألقابه أيضا ابن المعبودة بسطه) .
٢ ــ أوسركون الأول . حكما سويا .
٣ ــ شيشنق الثانى .

٤ ــ تاكيلوت الأول .
٥ ــ أوسركون الثانى (ومن ألقابه ابن المعبودة بسطه) .
٦ ــ حور ــ سا ــ إست .
٧ ــ تاكيلوت الثانى .
٨ ــ شيشنق الثالث (ومن ألقابه ابن بسطه معبودة بوبسطه) .
٩ ــ باماى .
١٠ ــ شيشنق الخامس (ومن ألقابه ابن المعبودة بسطه) .
١١ ــ أوسركون الرابع .

الأسرة الثالثة والعشرون ــ (معاصرة للأسرة ٢٢) :

١ ــ يتوباستس (ابن بسطه) بادى ــ باست .
٢ ــ ايوبوت الأول .
٣ ــ شيشنق الرابع .
٤ ــ اوسركون الثالث .
٥ ــ تاكيلوت الثالث .
٦ ــ آمون ــ رودى .
٧ ــ ايوبوت الثانى .

وفى نفس الوقت استقل بعض الأمراء وأعلنوا أنفسهم ملوكا فى مقاطعاتم مثل :

١ ــ بف ــ ثاو ــ عاوى باستت (إهناسيا المدينة) .
٢ ــ جحوتى ــ امحات (هيرموبوليس ــ الأشمونين) .
٣ ــ نمالوت (هرموبوليس) .
٤ ــ يادينمتى (أسيوط)

الأسرة الرابعة والعشرون (العاصمة فى سايس ــ صا الحجر) :

١ ــ تف ــ نخت .

٢ ــ بوخوريس .

الأسرة الخامسة والعشرون (الكوشية أو السودانيه) :

١ ــ كاشتا .

٢ ــ بى أو بعنخى (ابن باستت) .

٣ ــ شباكو .

٤ ــ شبتاكا .

٥ ــ طهارقا .

٦ ــ تانوت ــ أمانى .

وفى نفس الوقت حكم فى الدلتا بعض الملوك الصغار :

الأسرة السادسة والعشرون :

١ ــ بسماتيك الأول .

٢ ــ نخاو الثانى .

٣ ــ بسماتيك الثانى .

٤ ــ أبرباس .

٥ ــ أمازيس .

٦ ــ بسماتيك الثالث .

الأسرة السابعة والعشرون ــ (حكم الفرس) :

١ ــ قمبيز .

٢ ــ داريوس الأول .

٣ ــ اجركسيس (خشويش) اكسركسس الأول .

٤ ــ ارتجركسيس الأول (ارتا اكسركسيس) .

٥ ــ داريوس الثانى .

الأسرة الثامنة والعشرون :

١ ــ أمير تايوس .

الأسرة التاسعة والعشرون :

١ ــ نفرتييس . نفرتيس

٢ ــ بساموتيس .

٣ ــ حقر .

٤ ــ بساموتيس .

٥ ــ نفرتييس الثانى . نفرتيس

الأسرة الثلاثون :

١ ــ نكتانبيس . (نختانبوس)

٢ ــ تيوس .

٣ ــ نكتانبوس . (نختانبوس)

الأسرة الحادية والثلاثون : (الحكم الفارسى الثانى) :

ملك معارض هو خبباش (فى النوبة) .

☆☆☆☆☆

الفصل الحادى والعشرون
الواحات المصرية

نظرة جغرافية :

تعتبر الواحات مناطق منخفضة فى الصحراء ، وفى أعمق مكان منها يوجد جزء صغير ضيق من الأرض الخصبة . وتحصل على المياه من ينابيع طبيعية أو من الآبار تغذيها مياه جوفية يصلها الماء من مستنقعات جنوب السودان . وكانت المناطق الزراعية فى الواحات أكبر من ذلك فى الزمن القديم . وفى الصحراء الغربية التى تمثل ثلثى مساحة مصر حاليا خمس واحات كبيرة ، ومعظم سكانها مستقرون ويبلغ تعدادهم حوالى ٢٠٠٫٠٠٠ نسمة . وقد عرف المصريون القدماء خمس واحات ، وأكبرها وأهمها واحة الخارجة التى يبلغ اتساعها حوالى ٢٠٫٥ كم ، ويمتد طولهما من الشمال إلى الجنوب نحو ٢٠٠٫٠ كم ، وأطلق عليها الرحالة الكلاسيكيون اسم الواحة الكبيرة .

أما الواحة الداخلة فتقع على بعد ٧٠٫٠ كم إلى الغرب من الخارجة ، وكانت الواحتان الخارجة والداخلة تتبعان إدارة واحدة . ففى زمن الأسرة الثانية والعشرين كان يوجد أمير أو مدير واحد لكل من الواحتين (٥٢) . وتبعد الخارجة ١٧٠ كم عن وادى النيل . ويوصلها بالوادى طريق يبدأ من نواحى « أبيدوس » أو مدينة « الهو » (ديوسبوليس برفا) ، ومن أجل ذلك كانت الخارجة فى الزمن الفرعونى تتبع إداريا المقاطعة الثينية وهى الإقليم الثامن ، أو مقاطعة « هو » (الإقليم السابع) ، وأحيانا مقاطعة بانوبوليس ــ أخميم وهى الإقليم التاسع من أقاليم الصعيد . وقد حمل أمير أو عمدة مدينة ثينيس أو طينة القريبة من أبيدوس (الإقليم الثامن) لقب عمدة الواحات (٥٣) .

وفى الوثائق أطلق على كل من واحتى الخارجة والداخلة « الواحة الجنوبية » تمييزا لهما عن « الواحة الشمالية » ويقصد بها الواحه البحرية اليوم . وكانت المصادر العربية تسميها الشمالية أيضا ، وطولها يبلغ ١٨ كم وعرضها حوالى ٩ كيلو مترات . وسميت فى العصر القديم أحيانا باسم واحة البهنسا نسبة الى مدينة البهنسا Pemdje التى تقابلها فى وادى النيل ، وكان اسمها المصرى جسجس . وكانت تتبع إقليم البهنسا إداريا ، وهو الإقليم التاسع عشر من أقاليم الصعيد (ويسمى فى المراجع اقليم Oxyrrhinchos) .

أما واحة الفرافرة فتقع جنوب ـــ غرب البحرية ، وتبعد عن الداخلة بحوالى ١١٥ كم ، غير بعيد من الحافة الشرقية لبحر الرمال الأعظم الشهير ، وهى واحة قليلة الأهمية نسبيا وتقع أيضا على طريق القوافل ما بين الداخلة والبحرية . وسماها المصريون القدماء أرض « البقرة ـــ تا احو » .

وواحة سيوة أو « الواحه الغربية » سماها هيرودوت Ammonium أو « واحة آمون » ، ظهرت ضمن الممتلكات المصرية فى العصر المتأخر . وهى تبعد عن مرسى مطروح بحوالى ٣٤٠ كم ، وعلى بعد مسيرة ١٥ يوما من وادى النطرون . وهى بذلك بعيدة جدا عن وادى النيل . ولكن يربطها بالوادى فى مصر الوسطى طريق صحراوى عبر الواحة البحرية ، ويحيط بحر الرمال الأعظم بالواحة ويمثل حماية طبيعية لها . وقصة ضياع جيش الفاتح الفارسى قمبيز معروفة . وسماها المصريون القدماء « أرض النخيل » « سخت ـــ ايما » ـــ وهى تسمية تشمل جميع الواحات فى الصحراء الغربية ـــ والواقع أن سيوة تضم اليوم حوالى ٢٠٠٫٠٠٠ نخلة ، وبطبيعة الحال كانت المنطقة المنزرعة أكبر مما هى عليه اليوم . ويبلغ عدد سكانها الآن حوالى ٥٠٠٠ نسمة .

لمحة تاريخية :

لم يرد ذكر الواحات فى زمن الدولة القديمة إلا بالكاد . فالرحالة « خوف حور » فى زمن الملك مرنرع من الأسرة السادسة استعمل طريق الواحات . وتحدث عن وقوع

صدام ما بين القبائل التى تقطن الشمال الإفريقى ويمتد نفوذها حتى الواحات الجنوبية وبين القبائل الموجودة فى منطقة النوبة . ويذكر برستد أن الملك سنفرو سيطر على الواحة الشمالية . Breasted, Ancient Records, 1906 -7,p.174 (Vol.1).

وفى العصر الوسيط الأول هناك إشارات إلى وجود علاقات تجارية مع الواحات [٥٤] ومع وادى النطرون [٥٥] القريب من واحة الفيوم . حيث أن قصة الفلاح الفصيح تصور فلاحا فقيرا من أرض الملح (وادى النطرون) ، يسعى إلى السوق فى العاصمة هيراكنبوليس (إهناسيا المدينة) بالفيوم وهو يحمِّل دوابه نباتات واخشابا وبعضها من أرض البقرة أى من واحة الفرافرة ، وجلود وفراء وأملاح ، لكى يبادلها بما يلزمه من المؤونة والأدوات من الوادى .

وعلى جدران معبد الجبلين ما يفيد وجود علاقات عدائية بين مصر وبين سكان الواحات الذين ثاروا على الملك منتوحتب الثانى موحد مصر ومؤسس الدولة الوسطى .

وتبدو أهمية الواحات فى الدولة الوسطى حينما نعرف أن مسئولية الإشراف عليها قد أسند إلى كبار الموظفين مثل أمير الاقليم « عحا نخت » والوزير منتوحتب زمن الملك سنوسرت الأول ، وفى زمن الأسرة الثانية عشرة بعث الملك سنوسرت الأول رجل الدولة أكوديدى إلى الواحة الخارجة ، وعلى لوحته التذكارية فى المدينة المقدسة أبيدوس قرأ العالم باتس Bates أن الغرض من هذه البعثة هو تجنيد عساكر من بين « سكان أراضى الواحات » [٥٦] .

وفى زمن الملك سنوسرت الثالث أحضر أحد الضباط « المنتجات الجيدة من التحمو » سكان الواحات [٥٧] .

وفى كلا الحالتين ظهر لقب المشرف على الصحراء الغربية ، الذى أرسل على رأس فرقة بوليسية للبحث عن أحد الهاربين [٥٨] . حيث يقول « لقد وصلت إلى الواحة الغربية ، وبحثت فى كل طرقاتها وأحضرت الهارب الذى وجدته هناك » .

وعثر فى الواحة الداخلة على لوحتين تحمل إحداهما قصة صراع حول بئر من الآبار فى زمن الملك شيشنق الأول (٥٩) .

وكان للأسرة الخامسة والعشرين نشاطا بارزا فى الواحات . وفى العصر الصاوى عثر فى الواحة البحرية على عدد من المقابر والمقاصير ومعبد من زمن الملك أمازيس ، كما أن معبد أجورمى (Aghurmi) فى واحة سيوه بناه الملك أمازيس من الأسرة السادسة والعشرين . وفى زمن أمازيس أيضا قام حاكم الواحة البحرية المدعو جد ـ خنسو ـ إيوف ـ عنخ ـ ببناء هيكل صغير ومقصورة .

وفى العصر الفارسى زمن الملك داريوس الأول (دارا الأول) من الأسرة السابعة والعشرين بنى المعبد الكبير لآمون بالخارجة . وقصة ضياع جيش الملك الفارسى قمبيز عند واحة سيوه فى بحر الرمال الأعظم فى جنوب شرق واحة آمون (سيوه) وردت بالتفصيل عند هيرودوت .

وفى زمن الملك أكوريس Akoris من الأسرة التاسعة والعشرين الوطنية كان حاكم واحة سيوه الذى يبدو أنه من أهل المنطقة خاضعا للنفوذ المصرى .

وفى أيام الملك نقتانيو الثانى Nektanbos II فى عصر آخر الأسرات المصرية (الأسرة الثلاثين) أقام أمير الواحة الذى كان يحمل إسما مصريا هو ونأمون فى سيوه (ام عبادة) (٦٠) .

وفى العصرين اليونانى والرومانى شيدت كثير من العمائر فى الواحات فقد شهدت الواحات المصرية نشاطا معماريا ملحوظا ، حيث بنى فى العصر الرومانى الامبراطوران هدريان وانتونينوس معبدا فى الخارجة (٦١) .

فالاسكندر الأكبر ملك مقدونيا بعد فتحه لمصر ، وتحديد موقع المدينة التى حملت اسمه توجه نحو واحة سيوة لزيارة معبد آمون الشهير ، والاستماع إلى وحى الإله عن طريق كهنته الذين اشتهروا فى العالم القديم بالتنبؤ بالغيب وقراءة المستقبل . وهناك فى قدس الأقداس ـ يروى ـ الاسكندر ـ انه سمع من الإله كل ما يسره . مما

شجعه على مواصلة تنفيذ مشروعه لتوحيد العالم القديم تحت زعامته. ثم قبل أن يتوجه الكهنة على الطريقة الفرعونية ملكا على مصر. وفى الواحة البحرية بنى الاسكندر معبدا [٦٢].

وفى الواحة الخارجة وجدت أسماء ملوك البطالمة بطلميوس الثالث ـ يورجيتيس، وبطلميوس الرابع ـ فيلوباتر ـ وبطلميوس العاشر ـ سوتير الثانى ـ مدونة على جدران معبد قصر الغويدا Qasr EL-Ghueida فى الخارجة.

الواحات تستعمل كمنفى للعصاه :ـ

استغلت الواحات بموقعها المنعزل كمنطقة لنفى الخارجين على القانون فى العصر الفرعونى. وفى زمن الأسرة الحادية والعشرين، وعلى لوحة تؤرخ من زمن الملك باى ـ نجم ورد أنه عندما عين منخبرع (منخبر ـ رع) بن الملك باى ـ نجم كاهنا أكبر للمعبود آمون، بدأ عهده بإجراء يتسم بالرأفة فأعلن العفو عن أفراد الحزب المعارض المنفيين إلى الواحات حيث ذكر أنه تشفع للمنفيين فى الواحة لدى الإله كى يطلق سراحهم ويسمح لهم بالعودة إلى مصر ....« وأن لا ينفى أى مواطن إلى تلك الواحة النائية » [٦٣].

وفى بداية العصر المسيحى أمر الأباطرة الرومان بنفى أتباع المسيحية الأوائل إلى الواحة الكبرى (الخارجة).

لمحة عن العنصر البشرى فى الواحات :

إن الغالبية العظمى من سكان الواحات من العنصر الحامى بيض البشرة ويختلفون اليوم أيضا عن العنصر العربى البدوى وعن الزنوج الذين استوطن عدد كبير منهم فى بعض الواحات من قبل، وطبقا لتقسيم الباحث (باتس) ينقسم سكان الواحات عنصريا الى قسمين رئيسيين :

١ ـ التحنو Thnw ويسكنون سيوة والبحرية.

٢ ـ التمحو Tmhw ويستوطنون الفرافرة والخارجة والداخلة وحتى حدود السودان.

ومنذ عصر الأسرة الثانية عشرة ورد ذكرهم فى واحة الفيوم على الأقل (٦٤) . وفى زمن الملك ببى الأول جند بعض سكان الواحات للاشتراك فى حملة ضد بدو آسيا (٦٥) .

نظرة فى لغة أهل الواحات : ·

إشتق إسم الواحة من الاصطلاح المصرى الذى يطلق على « قاع الوادى » :

وحات فى زمن الأسرات ١٨ ، ١٩ ، ٢٠

واهة ، واة فى اللغة القبطية .

وفى المعبد البطلمى فى مدينة ادفو توجد قائمة « بالواحات السبعة » (٦٦) .

ومما ورد فى معبد الأقصر (٦٧) يمكن إجمال أسماء الواحات فى اللغة المصرية كالآتى :

١ ـــ الخارجة واحة رسيت ـــ أو الواحة الجنوبية ، أو واحة ورت ـــ أى الواحة الكبرى

٢ ـــ الداخلة كنموت Kenmut

٣ ـــ الفرافرة تا ايح Taih

٤ ـــ البحرية جس جس ـــ وأحيانا سميت بالواحة الشمالية .

٥ ـــ سيوه سخت ايما ـــ أى أرض النخيل .

أما فيما يتعلق بالكتابة أو اللغة المصرية المستعملة فى الواحات فقد لوحظ أن فيها أخطاء لغوية ، وربما يرجع سبب ذلك إلى بعد الواحات عن الوادى ، حيث تسبب الكتبة أو الفنيين بجهلهم فى حدوث أخطاء واضحة فى لغة أهل الواحات . فنجد بعض الحروف موضوعة فى غير أماكنها مثل كلمة نوفر أى جميل أو جيد كتبت نورف وكلمة بت أى سماء كتبت تب . وكذلك خلطوا بين بعض العلامات المتشابهة فى الشكل مثل ف ، ت ، س وهكذا . وأحيانا أسقطوا بعض الحروف من الكلمات .كما كتبت بعض الكلمات المذكرة بعلامة تاء التأنيث .

نظرة فى الحياة الدينية فى الواحات :

كانت طرق القوافل المؤدية للواحات دائما تحت حماية المعبود « ست » Seth أو معبود آخر مماثل له اسمه اش Asch ، ويلقب « سيد ليبيا » ، والذى نعرفه من خلال أختام أوانى المقابر الملكية من العصر العتيق فى أبيدوس ، وكان يتخذ شكل المعبود ست Seth . وكان المعبود المحلى للواحات وبخاصة الخارجة والداخلة هو ست ، واستمر ذلك حتى العصر المتأخر .

وفى زمن الأسرة الحادية والعشرين المصرية أصبح واضحا أن المعبود ست هو المعبود الرئيسى للواحة الداخلة ، وذلك من خلال أمر إلهى صدر فى نزاع حول مياه بئر (٦٨) . ولكن مع تغلغل عبادة آمون فقد المعبود ست شهرته هناك . ومع ازدياد نفوذ المعبود آمون أصبح مرتبطا بإنشاء المعابد فى واحات الصحراء المصرية . فالمعبد الكبير فى هيبيس بالخارجة بناه الملك الفارسى دارا « لآمون صاحب هيبيس » ، وفيه نرى المعبود آمون يقدس دائما مصورا برأس الكبش كمعبود محلى للمنطقة .

ولعل طراز معبد أجورمى بواحة سيوة المخصص للمعبود آمون يشير إلى إحتمال تأييد الرأى الذى يقول بأن آمون سيوة الذى اشتهر بالوحى هو معبود آخر مستقل خاص بالواحات ، وهو إله المياه ، وأنه ارتبط متأخرا بالمعبود المصرى آمون والإله الإغريقى زيوس واللاتينى جوبتر . والملاحظ ان إسم المعبود آمون فى سيوه يكتب فى اللغات الأوربية Ammun بتشديد حرف الميم . ومع انتشار نفوذ المعبود الطيبى آمون فى الواحات انتقلت معه بقية المعبودات المصرية المعروفة فى وادى النيل فسمى المعبود بالخارجة « الإله الأكبر فى هيبى » . وعلى جدران المعبد صورت كل المعبودات المصرية تقريبا . مثل ثالوث منف بتاح — موت — خنسو ، وآلهة هرموبوليس الأشمونين وعلى الأخص كاتب الآلهة المعبود توت وغيرها .

لمحة عن اقتصاد الواحات :

اعتمدت ثروة الواحات على النخيل . فلقد شكل البلح أفضل سلعة تجارية

للواحات فواحة سيوه تمتلك اليوم حوالى ٢٠٠٫٠٠٠ نخلة ، ولذلك حملت قديما اسم « مزرعة النخيل » . وكان المصريون يستعملون الخمور المحلية والمستوردة لسد احتياجاتهم ، ولتقديم القرابين ، وكان لخمور الواحات مكانة هامة .

وهناك قوائم بأسماء أقاليم مصر وأهم منتجاتها مسجلة على المعابد من العصر البطلمى تعتبر كل من البحرية والخارجة من الأقاليم المخصصة لإنتاج الخمور ولحساب القصر . وذكر الملك رمسيس الثالث أنه أمر بزراعة حدائق الكروم فى كل الواحة الجنوبية والواحة الشمالية ، وعين لرعايتها مجموعات من اسرى الحرب [٦٩] .

أما وادى النطرون المعروف قديما باسم شيريب Sherep ضرورية لعمليات التحنيط . ومن أجل ذلك سمى الوادى بحقل الملح (النطرون) ، وكان يستعمل مادة للنظافة كالصابون حاليا ، وكمادة ضرورية لعمليات التحنيط . ومن أجل ذلك سمى الوادى بحقل الملح ــ (أو الملاحة) .

ومنذ زمن الدولة القديمة اشتهرت الواحات بما تمد به الوادى من أنواع قيمة من الزيوت . منها زيت « حاتت ــ تحنو » ، وكان يعد من الزيوت المقدسة . وفى سيوة اليوم أكثر من ٤٠٫٠٠٠ شجرة زيتون . واشتهرت الواحة البحرية أيضا بنوع معين من زيت الزيتون .

والخلاصة أن الواحات كانت تمد الوادى بالخمور والزيوت والأملاح المعدنية (النطرون) وهى مواد هامة من وجهة نظر المصريين لتكريم الآلهة ، ومن خلال الطقوس المختلفة ، وفى عمليات التحنيط ، واللازمة للقصر الملكى . ومن أجل ذلك وضع المصريون نصب أعينهم أن تظل الواحات تحت سيطرتهم فى كل العصور [٧٠] .

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

الفصل الثانى والعشرون

زينة الأذن

بين حضارات وادى النيل

لم تدخل زينة الأذن بأنواعها منذ أقدم العصور ضمن حلى الزينة المعتادة فى مصر ، ولكنها بدأت تظهر فى الدولة الحديثة بين بعض الطبقات الغنية وخاصة بين أفراد البيت الملكى ، ثم أصبحت محبوبة لدى الملوك أنفسهم . ولقد اختلفت الآراء حول الطبيعة الغير مصرية لهذه الزينة . وذلك لأنها لم تكن أبدا تمثل جزءا من الزينة الرسمية للملوك فى مصر . وعلى العكس من ذلك كانت زينة الأذن جزءا ثابتا أساسيا بين الحضارات المختلفة التى استوطنت جنوبى الحضارة المصرية فى السودان منذ حضارة المجموعة الثالثة وحضارة كرمة .

١ ـــ فى مصر :

ولعل أقدم دليل أثرى لزينة الأذن فى مصر هو تلك الدفنة من زمن الأسرة التاسعة عشر فى القرنة ، حيث عثر مع الجمجمة على زوج من الأقراط الذهبية ، ودفن فى نفس المقبرة طفل ، وكان يتحلى أيضا بقرطين من الذهب (٧١) .

ومنذ زمن الأسرة الثامنة عشر فصاعدا بدأت تظهر المناظر التى تمثل مصريين يتحلون بزينة الأذن ، وأقدمها من مقبرة المدعو تتكى Tetky فى طيبة فى مطلع الدولة الحديثة ، إذا ما صح تأريخ العالم لجران Legrain لها .

وفيها يتحلى أصحاب المقبرة واثنان آخران أيضا يحملان إسم تتى بالأقراط (٧٢) .

وهناك مثال آخر يتضح فيه استعمال زينة الأذن فى زمن الأسرة الثامنة عشرة بين كبار رجال الدولة . مثل نسفر عدة طيبة فى زمن الملكين أمنحتب الثانى

وتحوتمس الرابع ، صور على جدران مقبرته بالقرط المستدير البسيط الشكل ، بينما يتحلى أيضا بقلادة وإسورة (٧٣) .

ورئيس العمال أيو يظهر على لوحته يرتدى قرطا وقلادة مزدوجة (٧٤) .

وفى مقبرة الكاتب حور محب رقم ٨٧ بطيبه زمن الملك تحوتمس الرابع صور أخواته الثلاثة بأقراط كبيرة مستديرة الشكل ، وأحدهم كان يشغل منصب رئيس الشرطة ، كما أن الكاتب حور محب صاحب المقبرة كان عمله كمشرف على عمليات التجنيد له صلة بإقليم النوبة . وعلى جدران مقبرته تصوير مفصل لعملية تسليم منتجات كوش للملك فى العاصمة .

ولنفس العصر تقريبا ينتمى رسم لصبى بالخصلة الجانبية التى ترمز إلى الطفولة ، والصبى فى مقبرة تحت رقم ٥٢ بالبر الغربى بطيبه ضمن مقابر أشراف الدولة الحديثة ، وفيها يتزين بقرط كبير الحجم (٧٥) .

وعلى قطعة حجرية كانت ضمن جدار ملون لمقبرة طيبه من الدولة الحديثة ، وموجودة حاليا بالمتحف البريطانى تحت رقم BM 5613 ، صورة عليها صبى بقرط أبيض مستدير وقلادة طويلة ومئزر ، تشبه فى شكلها تلك التى كان يرتديها أمراء كوش . ولم تجدل خصلة الشعر التى ترمز إلى الصبى على أحد الجانبين وإنما كانت فى هذه المرة خلف الرأس .

والمدعو « أنى » Ani أحد رجال الملك أمنحتب الرابع. أهديت إليه لوحة من سائق عربته المسمى « تاى » Thay ، وفيها يصور رجل الدولة « أنى Ani » يتحلى بخمسة قلائد ، وأساور ، وقرط مستدير أيضا(٧٦) .

وحامل المروحة على يمين الملك أمنحتب الرابع (أخناتون) المدعو « مرى ــ رع Merire » يصور لحظة تكريم الملك له، والذى خلع عليه مجموعة من القلائد الذهبية ، وهو يتحلى بقرط على شكل نصف دائرة(٧٧) .

وفى متحف برلين القطعة رقم Bln 7278 والتى تخص أحد الكهنة ، والتمثال الصغير رقم Bln 2284 ظاهر فى آذانهما مكان حمل الاقراط (٧٨) .

أما فيما يتعلق بأفراد البيت المالك فان المصادر تبدأ بعصر الملك تحوتمس الرابع ، حيث صور اثنان من أبنائه بالحلق المستدير البسيط الشكل (٧٩) .

كما صور بنات الملك أخناتون بالأقراط المستديرة البسيطة وبغيرها (٨٠) .

وكذلك أكبر أبناء الملك رمسيس الثانى المدعو « آمون ــ حور ــ أو نمف » (٨١) .

وفى متحف اللوفر رسم للملك رمسيس الثانى وهو طفل (Louvre D 54) يصور بالقرط المستدير الذى يشبه إلى حد كبير تلك الاقراط التى يظهر بها أبناء أمراء كوش (٨٢) .

ومما يوضح ان زينة الأذن أصبحت تمثل جزءا من زينة الأفراد صورة لأمنحتب الأول وهو طفل على قطعة حجرية من معبد خصص لأمراء الملكة أحمس ــ نفرتارى ــ ويرجع بنائه إلى زمن الأسرة التاسعة عشرة على أكثر تقدير . وفى الصورة يظهر جزء من القرط المستدير خلف خصلة الشعر التى رمز بها المصريون القدماء إلى الطفولة (٨٣) .

وليس هناك من شك فى أن الملوك أيضا قد تحلو بالأقراط فى حياتهم الخاصة على الأقل .

فتحت أيدينا أقراط لكل من الملكين توت عنخ آمون ورمسيس الثانى عشرة (٨٤) .

كما أن مومياوات العديد من الملوك مثل تحوتمس الرابع وتوت عنخ آمون ورمسيس الثانى ومرنبتاح وسيتى الثانى وكل من رمسيس الثالث والرابع والخامس والسادس ، كلها ذات آذان مثقوبة مما يؤكد أنهم كانوا يستعملون زينة الأذن .

أما بالنسبة لتحوتمس الثالث فهناك شك (٨٥) .

وقد أدى استعمال زينة الأذن بين الملوك ، أنهم قد ظهروا فى صورهم بآذان مثقوبة ، ويبدو أن تمثال الملك أمنحتب الأول المحفوظ فى متحف تورين رقم ٣١٢ ، والذى يحتمل أنه تمت صناعته فيما بعد ، فى زمن الأسرة التاسعة عشرة قد ثقب أذناه أيضا [٨٦] .

وخاصة أن كلهم تقريبا يتحلون فى نفس الوقت بقلائد ذهبية مزدوجة هى فى ذاتها منح ملكية .

وفى ذات العصر استعملت زينة الأذن بين النساء من جميع الطبقات بوجه عام بما فى ذلك الملكات .

٢ ــ فى حضارات السودان :

وفى حضارة كرمة شمالى السودان استعمل نوع من الأقراط المستديرة ذات المقطع الدائرى وله فتحة ضيقة نسبيا لتعلق فى الأذن دونما حاجة لثقبها . وكانت غالبا ما تصنع من البرونز أو النحاس المغطى بطبقة من الذهب [٨٧] .

كما وجد زوج من الأقراط الحلزونية الشكل .

وقد عثر على نفس النوع لدى أصحاب الحضارة من العنصر الأسود الذين جندهم المصريون فى مرحلة الثورة على الهكسوس ، وهم قبائل سوداء البشرة ، عثر على مدافنهم فى عدة مواقع أهمها مستجدة Mostagedda وفى تاسا [٨٨] .

وبجانب ذلك وجدت أقراط من العاج والصدف ، أو من الألبستر . ومما يؤكد استعمال تلك الحلقات كزينة للأذن ما عثر عليه فى بلابيش Balabish (B 66) حيث وجدت فى أذنى صاحبها فعلا فى مقبرته التى تعود إلى زمن الدولة الحديثة[٨٩] .

ولم تستعمل الأقراط المستديرة ذات المقطع الدائرى لدى أصحاب حضارة المجموعة الثالثة فى منطقة النوبة الشمالية إلا نادرا [٩٠] .

بينما شاع استعمال النوع الهلالى الشكل المسطح المصنوع عادة من العظم أو الصدف [٩١] .

ويذكر شتايذرورف احتمال ذلك النوع من الأقراط لزينة الشعر ولكنه يعود فيعترف بأن تلك الأقراط تشبه مثيلاتها من الدولة الحديثة ، وكانت تعرف فى السابق بأنها حلقات للملابس ، والتى كانت بالتأكيد أقراطا أو حلقات لزينة الشعر . وفى « كبانية الشمالية » عثر عليها فى موقعها فى أذنى صاحب المقبرة رقم N 26 وفى عنيبه أيضا .

وكثيرا ما تحلى هؤلاء الجنود بزينة الأذن وأحضروها معهم إلى مصر ، وكما هو الحال بالنسبة لحضارة كرمة نجدهم يتحلون بالأقراط ذات المقطع الدائرى من المعدن ومعظمها من الفضة ، وهناك حالة واحدة من الذهب وأخرى قرط حلزونى من النحاس المغطى بطبقة من الذهب (٩٢) .

وظهرت إلى جانب ذلك الأقراط المسطحة الشكل من الصدف والألبستر (٩٣) .

وتمدنا أهرامات ومقابر عنيبة من الدولة الحديثة بأمثلة عديدة كالتى عثر عليها فى كرمة عادة من البرونز مغطاة بالذهب ، ومن العاج والعظم وبيض النعام (٩٤) .

ولذلك فليس مستغربا أن نجد المصورات المصرية من الدولة الحديثة والتى تمثل أهالى كوش وهم يتحلون بالأقراط . وهذا يندرج أيضا على الأمراء وأفراد أسرهم ، ورجال البلاط وحاملى الجزية من خيرات بلاد كوش ، وكذلك على الخادمات والراقصات ولعل أقدم تصوير لمثل هؤلاء القوم وهم يتحلون بزينة الأذن ما وجد ضمن مناظر رحلة بلاد بونت على معبد الملكة حتشبسوت بالدير البحرى بطيبه الغربية مع أنها لا تخص تماما سكان وادى النيل . وهناك صور واضحة لأمراء من جنوب مصر أى من كوش مع ذويهم مسجلة على جدران مقبرة « حوى » نائب الملك زمن الملك توت عنخ آمون (٩٥) . وهى تخص صور لرجال البلاط وحاملى الجزية من كوش ، وفى مقبرة سبك . حتب رقم ٣٦ بطيبة (٩٦) ، وفى مقبرة آمون موسى بطيبه (٩٧) . ثم مقبرة رخميرع رقم ١٠٠ بطيبه (٩٨) .

وهناك التمثال الصغير للخادمات والراقصات فى المتحف البريطانى رقم BM 32749 بقرط حلزونى فى الأذن اليمنى ، والتمثال الصغير BM 32767 بقرط مستدير كبير .

وفى المقبرة رقم ٧٨ بطيبة ضمن مناظر تسليم جزية كوش مجموعة من الراقصات السود يتحلون بالاقراط المستديرة (٩٩) .

وفى المقبرة رقم ١١٣ بطيبه صورة لراقصة سوداء البشره مع بنتين لصاحب المقبرة تحمل اسما مصريا ، وتختلف عن الفتاتين الأخرتين بلون بشرتها وتحليها بالأقراط والأساور (١٠٠) .

وقد قرر شيفر Schaefher من قبل « أن القرط الأملس الأبيض المصنوع من العاج استمر على ما يبدو فيما بعد ذلك فى نظر المصريين على أنه الزينة المميزة للزنوج » Schaefer, Goldschiedearbeiten 54 .

٣ ــ فى مملكة نبته :

وبالنسبة للعصر النبتى فى السودان فإن أقدم مثال للأقراط عثر عليه فى الجبانة الملكية فى الكرو ، ويتمثل فى قرط من الذهب مازال متصل برأس صاحبته فى المقبرة رقم ٢٢ (١٠١) .

كما ظهرت أمثلة عديدة فى جبانة صنم « Sanam » الخاصة بالأفراد والتى ترجع إلى المرحلة الزمنية الممتدة من عصر الملك بعنخى أو (بى) وحتى عصر الملك أمطالقة (١٠٢) .

ويلاحظ استمرار استعمال النوع القديم من الأقراط المستديرة ذات المقطع الدائرى وذات الفتحة الصغيرة المخصصة لتعليقها فى الأذن ، وكانت مصنوعة من الألبستر أو الزجاج الأزرق وغيرها (١٠٣) .

كما ظهرت الأنواع المتطورة من الأقراط ذات الأشكال المختلفة على شكل الأقراص المستديرة أو الزهور من البرونز والألبستر والزجاج (١٠٤) .

ولقد تحلى الأطفال بالأقراط إذ عثر فى المقبرة رقم ٥٦٤ على قرط فضى فى الأذن اليمنى لطفل يشبه ما عثر عليه فى جبانة الكرو.

ومما يؤكد تأصل زينة الأذن فى حضارات السودان القديم أنها أصبحت يعترف بها كعنصر أساسى ضمن الزينة الملكية للملوك ، لذلك تواجهنا زينة الأذن لدى ملوك الأسرة الخامسة والعشرين مع شارات الملك والزينة الأخرى ذات الطابع المصرى الصرف . واقدم مثال صورة للملك شبتاكا [١٠٥] . وهى من الكرنك . وورد خطأ أنها من جبل برقل من المعبد رقم B 300 ، وفيها يظهر الملك وحول رأسه شريط مميز . وللملك طهارقا أمثلة كثيرة بزينة الأذن ومعظمها من « كوة » وفيها يظهر الملك طهارقة برباط الرأس حول شعر رأسه ، وبالتاج المزدوج وقرنى الكبش وبالتاج الأحمر أيضا [١٠٦] .

وظهر نوع من الأقراط الملكية على شكل رأس الكبش بقرص الشمس أو بدونه ، وللملك تانوت ـــ أمانى صورا بهذا النوع من الاقراط فى معبد ازوريس ـــ بتاح بالكرنك [١٠٧] .

كما ظهر كل من الملك أسبلتا [١٠٨] والملك حور سيوف بهذا النوع من الاقراط .

واستمر أفراد البيت المالك فى العصر المروى يستعملون زينة الأذن ، فالأمير أريكا ابن الملك أرنكماتى (٢٣٥ ـــ ٢١٨ ق.م) يتزين بقرط مستدير ضمن مناظر معبد الأسد « بالمصورات الصفراء » « بالبطانة » لايختلف عن أقراط حضارة كرمة [١٠٩] .

وبالإضافة إلى الشكل التقليدى وهو رأس الكبش ظهرت أشكال جديدة تتسم بالجمال [١١٠] .

٤ ـــ وقد اعتقد رايزنر Reisner أن زينة الأذن بين الشعوب الواقعة جنوبى الحضارة المصرية أصله مصرى ، وذلك فى سياق تناوله لأصل الأقراط المستديرة ذات المقطع

الدائرى التى عثر عليها مع أصحاب حضارة كرمة متأثرا بنظريته الخاطئة التى تقول بالأصل المصرى لحضارة كرمة ، فأشار إلى أنها منقولة عن مصرى الدولة الوسطى (١١١) .

ويعتمد فى مقارنته تلك على الاقراط المستديرة والتى لم تنتشر بعد والمصنوعة من الذهب أو من النحاس المغطى بالذهب من جبانات « الشيخ فرج » . أما تمثال الدولة القديمة بمتحف القاهرة رقم ٣٠ والذى يتميز بوجود قطعة معدنية فى كل أذن فلا يمكن اعتباره من الأدلة الواضحة لاستعمال زينة الأذن لدى المصريين منذ ذلك الحين (١١٢) .

والواقع المنطقى أن تكون زينة الأذن قد وصلت إلى المصريين من جيرانهم فى الجنوب . وقد سبق لبرنتون Brunton عندما عثر على الأقراط بين مجموعة المحاربين السود الذين استعان بهم المصريين فى زمن الأسرة السابعة عشرة فى منطقة البدارى وقالوا « أن لدينا هنا أول الأقراط التى أصبحت مألوفة فى زمن الدولة الحديثة ، وهو دليل على أن عادة لبسها قد وفدت من الجنوب » (١١٣) .

وكذلك كان شيفر Schaefer يميل إلى هذا الراى عندما قال « ولكنه يستوجب أن يكون المثل الأعلى من شعوب متقدمة فى الحضارة ، ولا يكون نقلا عن شعوب الجنوب ، عندما يتقرر ادخال زينة الأذن ضمن عادات الزينة المصرية » . « ولذلك ليس من الصدفة فى شئ ان تظهر الأقراط لأول مرة بصفة مؤكدة بين امراء وأميرات البيت المالك فى زمن الملك تحوتمس الرابع ، الذى أصهر لأميرة من بلاد الميتانى » (١١٤) .

كما ظن كارتر مرة أن يكون مصدر زينة الأذن هو غربى آسيا خلال زمن الهكسوس (١١٥) .

والأقراط ورد ذكرها فى النصوص البابلية فى زمن الملك حمورابى (١٧٢٦ — ١٦٨٦ ق.م) (١١٦) .

وإذا أخذنا بما ورد فيها يمكن أن يكون الهكسوس قد أحضروا زينة الأذن معهم من غربى آسيا إلى مصر .

إلا أننى أرى أنه لا يوجد لدينا مانع لأن يكون مصدر زينة الأذن بالنسبة لمصر هو شعوب الجنوب ، فبلاد كوش فى شمالى السودان الحالى كانت قد تمصرت تماما زمن الدولة الحديثة المصرية ، ولهذا ليس بمستغرب أن يكون المصريون الذين كانوا يعملون هناك وكذلك أبناء الأمراء المحليين الذين أحضروا إلى مصر بأعداد كبيرة ليتربوا فى البلاط الملكى ، قد احضروها معهم ، وأصبحت فيما بعد زينة مألوفة للمصريين .

وقبل ان ننهى الحديث عن زينة الأذن بين المصريين نشير إلى أن هذه الزينة كانت معروفة لدى الليبيين . وظهرت ضمن مصوراتهم على الآثار المصرية من زمن الدولة القديمة [١١٧] .

ولا يتطرق إلى الذهن أن يكون المصزيون قد نقلوها عنهم .

☆☆ ☆☆☆

ملاحـــــق

١ ــ ظهــور الحيــاة على سطح الأرض

من الناحية الجيولوجية ، تعارف العلماء على أن تاريخ ظهور الحياة على سطح الكرة الأرضية ينقسم إلى أربعة أزمنة :

١ ــ الزمن الأركى = فجر الحياة .

٢ ــ الزمن الأول = الباليوزوى ويسمى عصر الحياة القديمة .

٣ ــ الزمن الثانى = الميزوزوى أى زمن الحياة الوسيطة .

٤ ــ الزمن الجيولوجى الثالث = الكانوزوى أى زمن الحياة الحديثة والذى يمتد حتى العصر الحاضر .

١ ــ ولم يظهر أثر للحياة على سطح الأرض إلا خلال النصف الثانى من الزمن الأركى ، الذى أمتد حوالى ١ر٥ مليون سنة ، وبدأت الحياة تعبر عن نفسها فى شكل كائنات دقيقة بسيطة التكوين ، ثم فى شكل نباتات مائية واسفنجية وديدان . وأطلق على العصر الذى بدأت تظهر فيه الحياة على سطح الأرض اسم : عصر « الحياة المبكرة » .

٢ ــ فى الزمن الأول أو زمن الحياة القديمة ، الذى امتد حوالى ٣٢٥ مليون سنة ، ظهرت الأسماك والحشرات والحيوانات البرمائية Amphibia والزواحف Reptiles .

٣ ــ وفى الزمن الثانى أو زمن الحياة الوسيطة ، الذى امتد حوالى ١١٥ مليون سنة ، ظهرت الزواحف الكبرى .

٤ ــ أما الزمن الثالث أو زمن « الحياة الحديثة » فقد تميز بظهور الحيوانات الثديية .

والزمن الثالث أو زمن الحياة الحديثة ينقسم بدوره إلى قسمين رئيسيين :

(أ) الثلاثى Tertiary ويتفرع إلى خمسة أزمنة :

البليوسين ثم الإيوسين ثم الأوليجوسين ، الميوسين فالبلايوسين .

(ب) الرباعى Quarternary ويتفرع إلى زمنين اثنين :
البلايستوسين أو الجليدى الذى يمتد حتى الألف الثامن أو السابع ق .م ، والذى اشتمل أيضا على عصر الجليد ، ثم الهولوسين وهو الزمن الذى يمتد حتى عصرنا الحاضر .

(أ) امتد الزمن الثلاثى Tertiary إلى حوالى ٧٠ مليون سنة وانتهى قبل مليون سنة من العصر الحاضر ، وفيه تمت تحولات خطيرة بالنسبة لتطور الكرة الأرضية . حيث حدثت تغيرات فى القشرة الأرضية نتج عنها سلاسل جبلية وبحيرات وبحار ، وتشكلت قارات بأكملها ، وشمل التطور جميع نواحى الحياة النباتية والحيوانية .

وفى نهاية الزمن الثلاثى Tertairy ونتيجة لعملية التطور المستمرة لعالم النبات والحيوان ــ ظهر من أطلق عليهم العلماء الأجداد المباشرين للإنسان ، ففى الطبقات الأرضية لزمن البلاسيون عثر العلماء فى القرن التاسع عشر على حفرية متحجرة لقرد متطور جدا اطلقوا عليه اسم قرد الأشجار واسمه العلمى Dryopithecinen dryos = شجرة Pithecos = قرد) . وفى منتصف القرن التاسع عشر استطاع علماء الطبيعه وعلى رأسهم الانجليزى داروين Darwin (١٨٠٩ ــ ١٨٨٢) أن يضعوا نظرية التطور والارتقاء المشهورة ، وأعلنوا رأيهم بناء على توافر المادة العلمية . واعتبر داروين أن قرد الأشجار هذا إنما هو الجد المشترك لكل من الإنسان والقرد الإفريقى الشبيه بالإنسان أى ... الغوريلا والشمبانزى .

وتوالت الاكتشافات لعظام هذا الحيوان الشبيه بالإنسان (قرد الأشجار) ، مما مكن العلماء من تغطية الثغرات بين الإنسان وغيره من الكائنات الحية :

١ ــ ففى شمال الهند عثر فى طبقات الزمن الثلاثى Tertairy على بقايا فك لقرد أكثر تطورا من السابق سماه العلماء Ramapithecus وهو فى شكله العام أقرب شبها بالإنسان ، ويتميز بأن أنيابه لا ترتفع عن بقية أسنان الفك .

٢ ــ وفى جنوب أفريقيا عثر عام ١٩٢٤ على بقايا لما سمى بالقرد الجنوبى

Australopithecus (Australis = جنوبى) ، ثم اكتشف ما يقرب من ٣٠ عينة منه ما بين ١٩٣٥ ، ١٩٥١ ، وتميز بأن تكوين الجسم عنده أقرب إلى شكل الإنسان من أى من الأنواع السابقة . وكان يتحرك مستخدما قدميه غالبا ، وقامته عمودية قريبة إلى الاستقامة ، لأن تلك القرود كانت تعيش فى مناطق مكشوفة جافة نسبيا ، وكان تركيب الجمجمة يتناسب مع القامة العمودية مما يشير إلى أن المخ كان فى تطور مستمر . وبطبيعة الحال لم تتمكن تلك القرود من صناعة أدوات .

(ب) وفى الطبقات الجيولوجية من الزمن الرباعى Quarternary عثر فى نهاية القرن التاسع عشر فى جاوة Java بأندونيسيا على بقايا للإنسان القرد Pithecanthropus الذى يقال أنه يمثل حلقة الوصل ما بين القرد الجنوبى وبين الإنسان الأول ، ويعتبر أقدم « إنسان أول » معروف حاليا ويبدو أنه فى حياته اليومية استعمل أدوات جاهزة من عمل الطبيعة ولم يكن قد توصل بعد إلى صناعة أدواته بنفسه .

☆☆☆☆☆

العصر الحجرى القديم

أما أقدم مرحلة للتاريخ البشرى فتسمى بالعصر الحجرى القديم ، ويرى رجال الآثار ويتفق معهم الجيولوجيون أن تلك المرحلة استمرت من حوالى عام ٧٠٠٫٠٠٠ أو ٦٠٠٫٠٠٠ق .م إلى حوالى ٤٠٫٠٠٠ق .م ، حيث ظهرت أقدم الأدوات الحجرية التى شكلها الإنسان بنفسه ، هذا مع الأخذ فى الإعتبار أن هذه السنين تختلف من مكان إلى آخر طبقا لظروف كثيرة .

وينقسم العصر الحجرى القديم فى جميع أنحاء العالم إلى الأقسام الأتية :

١ ـ العصر الحجرى القديم الأسفل :

(١) العصر الشيلى نسبة إلى موقع يسمى Chelle عند التقاء نهر المارن ونهر السين بفرنسا ، وهو أقدم الطبقات التى عثر فيها على أدوات من صنع الإنسان .

(ب) العصر الأشولى نسبة إلى سانت أشول ، وهى ضاحية لمدينة أمين Amiens بفرنسا . وفى هيدلبرج بألمانيا عثر عام ١٩٠٧ على فك لإنسان من العصر الأشولى وتلى ذلك اكتشافات فى الصين استطاع العلماء بعد دراستها أن يعلنوا أنها تغطى الثغرة ما بين مخلفات الإنسان القرد Pithecanthropus وبين إنسان المرحلة التالية أى (العصر الحجرى القديم الأوسط) المعروف بإسم إنسان نياندرتال والذى عرف أيضا باسم Sinanthropus أو Africanthropus (من شرق أفريقيا) وقد انتشر هذا الإنسان فى أماكن كثيرة من العالم .

٢ ـ العصر الحجرى القديم الأوسط :

ويسمى أيضا العصر الموستيرى Musterien نسبة إلى Le Moustier بفرنسا . واستمر من ١٠٠٫٠٠٠ إلى ٤٠٫٠٠٠ق .م تقريبا حيث ظهر إنسان النياندرثال ، نسبة إلى نياندرثال (ما بين دسلدورف وفبرتال Wuppertal بألمانيا الغربية) حيث عثر على أول عظام لهذا الإنسان ، ثم توالت الاكتشافات فى جهات كثيرة من أوربا وآسيا وجنوب أفريقيا وفى جزيرة جاوة بأندونيسيا .

٣ ـــ العصر الحجرى القديم الأعلى :

ظهر فيه إنسان الكرومانيون Cro-Magnon نسبة إلى الكهف المسمى بهذا الاسم فى فرنسا حيث عثر على خمس هياكل لهذا الإنسان ، والذى يسمى بالإنسان المفكر أو Homo Sapiens أى الإنسان الحديث أو الحالى ، وقد استمر هذا العصر من حوالى ٤٠،٠٠٠ق .م إلى ١٤،٠٠٠ق .م تقريبا .

* * * * *

جدول زمنى

للحضارة المصرية

ما قبل التاريخ	قبل عام ٣٠٠٠ق .م
حضارة نقادة الأولى	٤٣٠٠ ــ ٣٦٠٠ق .م
حضارة نقادة الثانية	٣٦٠٠ ــ ٣١٠٠ق .م
فجر التاريخ	حوالى ٣٠٠٠ق .م
العصر العتيق . الأسرة الأولى	حوالى٢٩٢٥ ــ ٢٧٨٠ق .م
الأسرة الثانية	٢٧٨٠ ــ ٢٦٣٥ق .م
الدولة القديمة . الأسرات الثالثة	٢٦٣٥ ــ ٢٥٧٠ق .م
الرابعة	٢٥٧٠ ــ ٢٤٥٠ق .م
والخامسة	٢٤٥٠ ــ ٢٢٩٠ق .م
والسادسة	٢٢٩٠ ــ ٢١٥٠ق .م
العصر الوسيط الأول . الأسرات السابعة	٢١٥٤ ــ ٢١٣٥ق .م
الثامنة	
التاسعة والعاشرة	٢١٣٤ ــ ١٩٩٠ق .م
الحادية عشرة	٢١٣٤ ــ ١٩٩١ق .م
الدولة الوسطى . الأسرات الثانية عشرة	١٩٩١ ــ ١٧٨٥ق .م
والثالثة عشر	١٧٨٥ ــ ١٦٥٠ق .م
والرابعة عشرة	

العصر الوسيط الثانى . الأسرتان	
الخامسة عشرة	١٦٥٠ ــ ١٥٥٠ق .م
والسادسة عشرة	
أو حكم الهكسوس	
الأسرة السابعة عشر	
ــ استمرت	
مستقلة فى زمن الهكسوس	
الدولة الحديثة . الأسرة الثامنة عشرة	١٥٥٤ . ١٣٠٥ق .م
الأسرة التاسعة عشرة	١٣٠٥ ــ ١١٩٦ق .م
الأسرة العشرون	١١٩٦ ــ ١٠٨٠ق .م
العصر الوسيط الثالث . الأسرة ٢١	١٠٨٠ ــ ٩٤٦ق .م
الأسرة ٢٢ /	٩٤٦ ــ ٧١٤ق .م
٢٣ / ٢٤	
العصر المتأخر : الأسرة ٢٥	٧١٣ ــ ٦٥٦ق .م
الأسرة ٢٦	٦٦٤ ــ ٥٢٥ق .م
الأسرة ٢٧	٥٢٥ ــ ٤٠٤ق .م
الأسرات ٢٨ ــ ٣٠	٤٠٤ ــ ٣٣٢ق .م
العصر البطلمى	٣٣٠ / ٣٢٣ ــ ٣٠ق .م
العصر الرومانى	٣٠ ــ ٣٩٥ ميلادية
العصر البيزنطى	٣٩٥ ــ ٦٣٨ ميلادية
الفتح العربى لمصر	٦٣٩ ــ ٦٤٦ ميلادية

جدول زمنى

حضارة سودان وادى النيل

العصور الحجرية	قبل بداية الألف الرابع ق .م
المجموعة الأولى	حوالى ٣٠٠٠ق .م
المجموعة الثالثة	حوالى ٢٢٠٠ق .م . ــ ٢٠٤٠ق .م
حضارة كرمة	حوالى ٢٢٠٠ق .م
دولة كوش	حوالى ١٧٣٠ق .م ــ ١٥٨٠ق .م
مملكة كوش	حوالى ٦٥٦ق .م . ــ ٣٢٠ / ٣٥٠م .
(أ) العصر النبتى	حوالى ٦٥٦ق .م . ــ ٢٩٠ق .م
(ب) العصر المروى	حوالى ٢٩٥ق .م . ــ ٣٢٠ / ٣٥٠م .
حضارة المجموعة الغامضة القرنين الرابع والخامس تقريبا .	
البلميون ــ النوبيون	٢٥٠م ــ ٥٥٠ تقريبا .
العصر المسيحى :	
مملكة دنقلة	١٢٢٣م .
مملكة علوة	من عام ٥٤٠ / ٥٨٠ م إلى ١٥٠٤م .

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

الهــوامش

(١) أنظر كتاب « هيرودوت يتحدث عن مصر » ترجمة محمد صقر خفاجة ، شرح وتعليق أحمد بدوى ، القاهرة ١٩٦٦ .

(٢) أنظر : صبحى شلبى ، مختصر التقويم القبطى ١٩٦٧ ، المطبعة الفنية الحديثة ، الزيتون .

(٣) أحمد بدوى فى موكب الشمس ، الجزء الثانى ص ٦١ .

(٤) القارعة ٦/١٠١ ــ ١١ .
ربما كان ذلك صدى لتأثيرات الرسالات السماوية .

(٥) قارن الآية الكريمة ٢٩ من سورة الأنبياء .
فقد يكون هؤلاء القوم قد تأثروا برسالات الرسل من قديم الأزل بطريقة أو بأخرى .

(٦) قارن الآية الكريمة : فلا أقسم بالخنس ، الجوارى الكنس . فالأخنس فى العربية هو المتخلف ، والخنس هى الكواكب التى تذهب وتعود ، والأخنس هو القمر بالنسبة للشمس ، وخنسو فى المصرية هو اسم فاعل بمعنى المتجول .

(٧) الآية رقم ٧ سورة هود .

(٨) أحمد بدوى ، فى موكب الشمس الجزء الثانى ص ٥٦٩ وما بعدها .

(٩) أنظر رقم ٤٣٨٠٩ بالمتحف المصرى .

(١٠) الذى تردد فى أقوال المؤرخين والرحالة القدماء أمثال الفيلسوف والعالم الاغريقى ارسطاليس Aristotles تلميذ أفلاطون ومعلم الأسكندر الأكبر والمؤرخ الرومانى بلينيوس Plinius والمؤرخ الاغريقى سترابون أن أول من أقامها الملك سيزوستريس (سنوسرت من الدولة الوسطى على ما يرجع) . الا أن المؤرخ هيرودوت هو الذى أكد أن الملك المصرى نخاو الثانى (٥٩٠ ــ ٥٧٣ ق.م.) من ملوك الأسرة السادسة والعشرين هو الذى أمر بحفر هذه القناة وهى التى أعاد حفرها الملك الفارسى داريوس ثم عمرو بن العاص بعد الفتح الاسلامى .

(١١) أنظر عبد القادر حمزة ــ على هامش التاريخ المصرى القديم ــ كتاب الشعب ١٩٥٨ ص ٨٤ وما بعدها .

(١٢) قارن ما حدث للنبى شعيب عليه السلام » .

(١٣) أنظر بردية سالية رقم ٢ بالمتحف البريطانى :
The teaching of Amenemhet, to his son Senusret on raising him to a coregency, BM, No. 10, 1821.

(١٤) وهذه البردية محفوظة بالمتحف البريطانى تحت رقم .BM, No. 10. 182 (9)
أنظر : الحياة فى مصر القديمة ترجمة د. نجيب ميخائيل ومحرم كمال ــ سلسلة الألف كتاب رقم ٤٩ ــ ١٩٥٦ ــ ص ١٢١ ــ ١٣١ .

(١٥) أنظر بردية هاريس رقم ٥٠٠ بالمتحف البريطانى بلندن .
Pap. d' Orbiney IX. The tale of the two Brothers.

(١٦) بردية شستربيتى . أنظر عبد المنعم أبو بكر ــ أساطير مصرية سلسلة اقرأ ١٣٤ ــ ١٩٥٤ ــ ص ٢٦ وما بعدها .

(١٧) أحمد بدوى فى موكب الشمس — الجزء الثانى ص ٩٢٨ — ٩٢٩ .

(١٨) H. Junker, Kubbanieh Nord, p. 35 ff; G. Posener in Kush VI, Pour une Localisation du pays Koush au Moyen Empire pp. 39, 56.

(١٩) قارن مناظر مقبرة أمون موسى بمناظر مقبرة حوى .
JEA 26, pl. 26 and Davies-Gardiner, Huj. p.23.

(٢٠) المقبرة عثر عليها فى دبيره .

(٢١) F. and U. Hintze Civilizations of the old Sudan, Leipzig 1968, p. 27-28.

(٢٢) P. Shinnie. Meroe, Civilization of the Sudan. London 1967.

(٢٣) B. Davidson. Urzeit und Geschichte Afrikas, S. 63.

(٢٤) Davidson, op. cit., S. 99; Arkell, History pp. 175-6.

(٢٥) Davidson, op. cit., pp. 92-3.

(٢٦) Arkell, op. cit., p. 177

(٢٧) Davidson, op. cit., p. 58.

(٢٨) C.G. Seligman, Races of Africa, p. 74.

(٢٩) Arkell, op. cit., 162; Candace Queen - Mother.

(٣٠) Davidson, op. cit., p. 58.

(٣١) Seligman, op. cit.,

(٣٢) Ph. Dark, Die Kunst von Benin. Praha, 1960, pp. 18-19.

(٣٣) Davidson, op. cit., pp. 122.

(٣٤) Seligman, op. cit., p. 66

(٣٥) Terra Cotta, Davidson, op. cit., p. 112; Wainwright Man 23 (1951), p. 133 The Egyptian Origin of a Ram-Head Brestplate form Lagos.

(٣٦) A. Theile, Kunst in Afrika, Abb. 179.

(٣٧) Wainwright, op. cit., pp. 133-135.

(٣٨) Wainwright, op. cit., p. 251.

(٣٩) H. Dark, op. cit., 19; Davidson, op. cit., p. 122.

(٤٠) Davidson, op. cit., p. 133.

(٤١) H. Lhote, A la decouverte des fresques du Tassili, Paris 1952;
Theile, Kunst in Afrika, figs. 14, 17;24.

(٤٢) Teile, op. cit., fig. 24.

(٤٣) Theile, op. cit., fig. 17.

(٤٤) المرجع السابق .

(٤٥) أنظر : W.B. Emery, Archaic Egypt. pp. 28-29.
K. Sethe, Aegyptische Lesestuecke, Die Lebensgeschichte. des Sinuhe p. 3-10.

(٤٦) Gardiner, Admonitions of an Egyptian Sage, Leipzig 1909.

(٤٧) أطلق عليه الإغريق هذا الاسم ظنا منهم أنه قبر الملك رمسيس الثانى ويقع فى البر الغربى لطيبة .

(٤٨) أنظر أحمد بدوى فى موكب الشمس ــ الجزء الثانى ــ ص ٨٧٨ وما بعدها .

(٤٩) انظر البرديات القضائية تورين ولى ورولين .

(٥٠) مجموعة برديات تورين Turin, Pap. Lee, Pap. Rollin

(٥١) أنظر برديات ماير .

(٥٢) Gardiner, The Dakhleh Stela in JEA, XIX, 1933, p. 24

(٥٣) Urkunden IV 976 ii, Anentef-Stele in Louvre C, 26.

(٥٤) Admonitions III 9

(٥٥) Klagen des Bauern R 19

(٥٦) The Eastern Libyans 1914, p. 121, Breasted 1906 7, 1, 675.

(٥٧) Bates, The Easera Libyans 1914, p. 212.

Anthes, Az 65, p. 108 f, Berlin 22820. (٥٨)

Gardiner 1933, JEA XXX, The Dakhleh Stela, p. 9 ff. (٥٩)

Fakhry, Siwa Oasis pl. XX (B) and pp. 117/118. (٦٠)

Edmonstone, A Journy to the Oasis of Upper Egypt, pp. (٦١)
62-3; Wilkinson, Modern Egypt and Thebes, II p. 368, Neumann, Beuwerke der Oase Khargeh, in Mitt. Deut Inst. Kairo VIII, p.11, Abb. 5 (Louvre).

Fakhry, Ann. Serv, XXXIX, pp. 638-9, Fig. 63, pl. (٦٢)
CXVIII; Baharia Oasis, 11, pp. 41-7.

Brugsch Reise. nach der Grosse Oase El-khargeh, S. 84 (٦٣)
ff., Taf. XXII; Brugsch Recueil I, p. 39 ff.

Hoelscher, Libyer und Aegypter, S. 49. (٦٤)

Urkunden I, 101, 16. (٦٥)

Die aegyptische Bezeichnung fuer die Oasen und ihre. (٦٦)
Bewohner = Sethe ZAS, LVI (1920)

Max Mueller, Egypt, Reseavchs II, fig 21-22 Dyn. XIX, (٦٧)

Gardiner, JEA 19, P. 9 f. (٦٨)

Brugsch, Reise, S. 79/80; Mariette, Dendara I, 59, a; 3. (٦٩)

Papyrus Harris, XII, b, 14; J. Ball, Kharga Oasis; Its (٧٠)
topography and geology, Cairo 1900; Topographical and geological results of a reconnaissance servey of Jebel Garva and the Oasis of Kurkur, Cairo 1902.
J. Ball and Beadnell, H.J.L. Baharia Oasis; Its topography and geology, Cairo 1903.

W.M.F.Petrie, Qurneh. London 1909. 9-10, Pl. 29. (٧١)

G. Legrain, in: The Earl of Carnarvon-H. Carter, (٧٢)
five years Excavations at Thebes., Oxford, 1912, pl. 516.

Ph. Virey, Rec,. Trav. 20 (1898), 220, 22 (1900), 83-97 Vgl.A.L. hote, Les chefs-d'oeuvre (٧٣)
la peinture égyptienne, Paris 1954, 68.

P. A. A. Boeser, Beschreibung der Aegyptischen Sam mlung des Niederlaendischen Reichsmuseums der Altertuemer in Leiden, Die Denkmaeler des Neuen Reiches, 3 Abt.: Stelen, Dn Haag 1913, 4 (Nr. 12), Taf. 4. (٧٤)

N. Davies-A.H. Gardiner, Ancient Egyptian Paintings I, Chikago 1936, Pl.47. (٧٥)

N. de G. Davies, The Rock Tombs of El Amarna V, London 1908, Pl. 22 (Archaeological Servey of Egypt 19). (٧٦)

N. de G. Davies, The Rock Tombs of El Amarna I, London 1903, Pl. 30 (Archaeological Servey of Egypt 13). (٧٧)

E. Fruedt, Staatliche Museen zu Berlin, FuB 3-4 (1961), 26, Abb. 1. (٧٨)

LD III, 69a (Lepsius Denkmaeler) (٧٩)

LD III, III; A. Champdor, Die altaegyptische Maleri, Leipzig 1957, 58. (٨٠)

G.Roeder, Der Felsentempel von Bet el-Wali, Amon-herunemef Kairo 1938, Taf 25, 30, 31 (Service des Antiquites de l'Egypte, Les Temples immerges de la Nubie). (٨١)

G. Perrot-Ch. Chipiez, Histoire de l'art dans l'antiquité I, Paris 1882, 706. (٨٢)

Marquis of Northampton-W. Spiegelberg-P. E. Newberry, Report of some Excavations in the Theban Necropolis, London 1908; 7 Abbe 5; H. Sche fer, Aegyptische Goldschmiedearbeiten, Berlin 1910, 54. (٨٣)

F. Fox, Turankhamun's Treasure, London 1951, Pl. 49; Weigall, Ancient Egyptian Works of Art. London 1924, 304. (٨٤)

G.E. Smith, The Royal Mummies, Cairo 1912, 35 (Cat. Gen). (٨٥)

C.Aldred, New Kingdom Art in Ancient Egypt, London, 1951, 11. (٨٦)

G.A.Reisner, Excavations at Kerma, Parts IV-V, Cambrige, Mass, 1923, 280-261 (HAS VI). (٨٧)

G.Brunton, Mostagedda and the Tasian Culture, London 1937, Pl. 75, no. 11 (٨٨)

G.A.Wainwright, Balabish, London 1920, 54, Pl. 19,2 (Thre Egypt Exploration Society 37). (٨٩)

G.Steindorff, Aniba I,Gluckstadt 1935, 105 (N 579). (٩٠)
63, footnote 2; H. Junker, Ermenne, Wien 1925, 26, Abb. 100 (AdW in Wien. Phil. Kl., Denkschrifhten 67. Bd. 1, Abh.); G. A. Reisner, The Archeological Servey of Nubia, Report for 1907-1908, I, Cairo 1910, 54, 70, b; 6 Cem. 7 Grave 174).

Junker, Ermenne 27 Anm. 1; H. Junker, Bericht ueber, die Grabung.... auf den Friedhoefen von El-Kubbanieh-Nord, Winter 1910-1911, Wien 1020, (Adw in Wien, Phil. hist. Kl., Denkschriften 64. Bd. 3. Abh.); Steindorff, Aniba I, 63 Ann. 2. (٩١)

Brunton Mostagedde, Pl. 75; Brunton, Qau and Badari III, London 1930, 7; Wainwright Balabish 13). (٩٢)

Mostagedda, Nos - 3148, 3246; Reisner Kerma IV-V, Pl. 42, 1, nos. 7, 8). (٩٣)

Steindorff, Aniba II, Tafeln, Glueckstadt 1937, Taf. 58c). (٩٤)

N.de Garis-Davies-A.H. Gardiner, The Tomb of Huy, London 1926, Pl. 27-30, The Theban Tombs Series 4; Wreszinski Atlas I, 285, 335-337, 372; Champollion Monuments III Pl. 239, 1,2; LD III, 120 a, b, 121 b. (٩٥)

British Museum no. 922, N.M.Davies, Egyptian Tomb Paintings, London, Pl, 3; BM 921. (٩٦)

Wereszinski Atlas I, 285. (٩٧)

Wreszinki Atles I, 325. (٩٨)

Champdor, Malerei 85 (٩٩)

H. Wild, Kush 7 (1959) Pl.19 (١٠٠)

D.Dunham, El Kurru: (Tum. 2, Gen.A) Cambridge Mass. 1950, 15, 20 (RCKI). (١٠١)

F. Ll. (Griffith), L. AAA 9 (1922), 73, 82. (١٠٢)

A.a. O. 129, Pl. 40 nos. 13, 15, 17. (١٠٣)

A.a.O. 120, Pl. 40 nos. 69. (١٠٤)

Belin 1480, LDV, 26-III, 308, 80-V,4 c. LDV; 2b (١٠٥)

Macadam Kawa II, Pl. 17 c, 18 a, 22 a, Pl. 17 a, Pl. 24 d, Pl. 2 b, 23 a. (١٠٦)

A.Mariette-Bey, Monuments divers, Paris 1872 1889, 27, Pl. 61. (١٠٧)

Macadam kawa II, Pl. 17 a, (١٠٨)

Hintze Musawwara;, I, 2 Pl. 21, 35. (١٠٩)

LD III, 303, no. 96; 304, No. 93; LDW, 65 a, 27; 40; 51 (١١٠)

Reisner Kerma, IV.-V, 280. (١١١)

L.Borchardt, Statuen und Statuetten I, Berlin 1917, 33, Pl. 9, Cat. gen Nr. 7-1294. (١١٢)

Qau and Badari III, 7. (١١٣)

Schaefer, Goldschmiedearbeiter 55 (١١٤)

H. Carter, Tut-Ench-Amun III, Leipzig, 1934, 97 (١١٥)

Scharff-Moortgat, 1726-1686 B.C. (١١٦)

C.Bates, The Eastern Libyans, London 1914, 130-131, 37 b Pls. 1,2,3. (١١٧)

□ □ □ □

المـــراجع

C.Aldred.Egyptian Art. London, 1980.

T.G.Allen. The Egyptian Book of the Dead. Chicago, 1960.

C.A.R. Andrews. The Rosetta Stone. London, 1982.

A.Badawy. Coptic Art and Archaeology. Mass., 1978. Brooklyn Museum. Africa in Antiquity. N.Y., 1978.

J.Baines and J.Malek. Atlas of Ancient Egypt, London, 1979.

E.Bevan. A History of Egypt under the Ptolemaic Dynasty. London, 1927. The Cambridge Ancient History.
Vols. I-III. 3rd ed. Cambridge, 1970-8 I.

W.Butzer. Early Hydraulic Civilization in Egypt. Chicago and London, 1976.

J.Cerny. Paper and Books in Ancient Egypt. London, 1953.

J.Cerny. Ancient Egyptian Religion. London, 1952.

P.Du Bourguet. Coptic Art. London, 1971.

I.E S.Edwards. The Pyramids of Egypt. 2nd ed. London, 1961.

G. Elliot Smith and W.R. Dawson, Egyptian Mummies. London, 1924..

W.B.Emery. Archaic Egypt. Harmondsworth, 1961.

Erman (1927): A.Erman. The Literature of the Ancient Egyptians. London, 1927.

R.O. Faulkner. A Concise Dictionary of Middle Egyptian, Oxford, 1966.

R.O. Faulkner. The Ancient Egyptian Coffin Texts. Warminster, 1973.

H.G. Fischer. Ancient Egyptian Calligraphy. N.Y., 1979.

Sir A.H. Gardiner. Egypt of the Pharaohs. Oxford, 1961.

Sir A.H. Gardiner. Egyptian Grammar. 3rd ed. Oxford, 1969.

Gardiner (1909): A.H. Gardiner. The Admonitions of an Egyptian Sage. Leipzig, 1909.

Gardiner (1935): A.H. Gardiner. Hieratic Papyri in the British Museum. Third Series. London, 1935.

J. Garstang. Burial Customs of Ancient Egypt. London, 1907.

Glanville (1955): S.R.K. Glanville. Catalogue of Demotic Papyri in the British Museum. Vol.II. London, 1955.

Goedicke (1970): H. Goedicke. The Report about the Dispute of a man with his Ba. Baltimore, 1970.

Goedicke (1975): H. Goedicke. The Report of Wenamun. Baltimore, 1975.

Griffith (1900): F.Ll. Griffith. Stories of the High Priests of Memphis. Oxford, 1900.

H. Kees, Ancient Egypt, A Cultural Topography. Chicago, 1977.

Lichtheim (1973): M.Lichtheim. Ancient Egyptian Literature. Vol. I. Los Angeles, 1973.

Lichtheim (1976): Vol. II. Los Angeles, 1976.

Lichtheim (1980): Vol. III. Los Angeles, 1980.

A.Lucas. Ancient Egyptian Materials and Industries. 4 th ed. London, 1962.

Maspero (1915): G. Maspero.Popular Stories of Ancient Egypt. London, 1915.

S.Morenz. Egyptian Religion. Trans. A.Keep, London, 1973.

E.Otto. Egyptian Art and the Cults of Osiris and Amon. London, 1968.

W.M.F. Petrie. Shabtis. London, 1935; reprinted Warminster, 1974.

Pritchard (1955): J.B. Pritchard. Ancient Near Eastern Texts relating to the Old Testament. Princeton, 1955.

S.Sauneron. The Priests of Ancient Egypt. London, 1960.

H. Schafer. Principles of Egyptian Art. Oxford, 1974.

P.Shinnie. Meroe. London, 1971.

A.F.Shore. 'Coptic and Christian Egypt', in J.R.Harris, The Legacy of Egypt. 2nd ed. Oxford, 1971.

A.F.Shore. Portrait Painting from Roman Egypt. Rev. ed London, 1972.

A.W. Shorter. The Egyptian Gods. London, 1937.

Simpson (1972): W.K.Simpson (ed.). The Literature of Ancient Egypt. New Haven, 1972.

W.S. Smith. The Art and Architecture of Ancient Egypt. London, 1982.

A.J. Spencer. Death in Ancient Egypt. London, 1982.

□ □ □ □

اللـــوحات

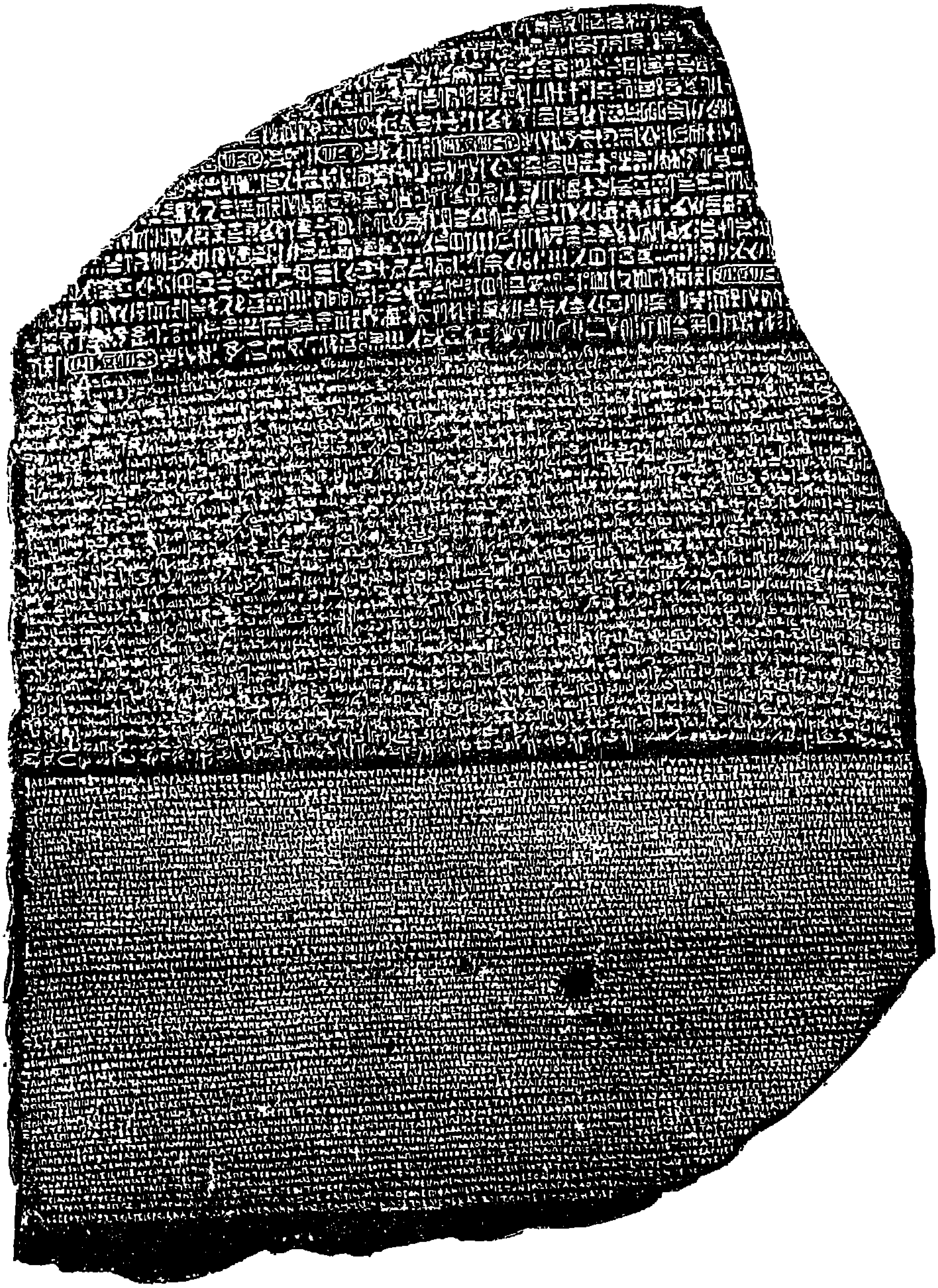

لوحة رقم ١ :   حجر رشيد ـــ المتحف البريطانى .

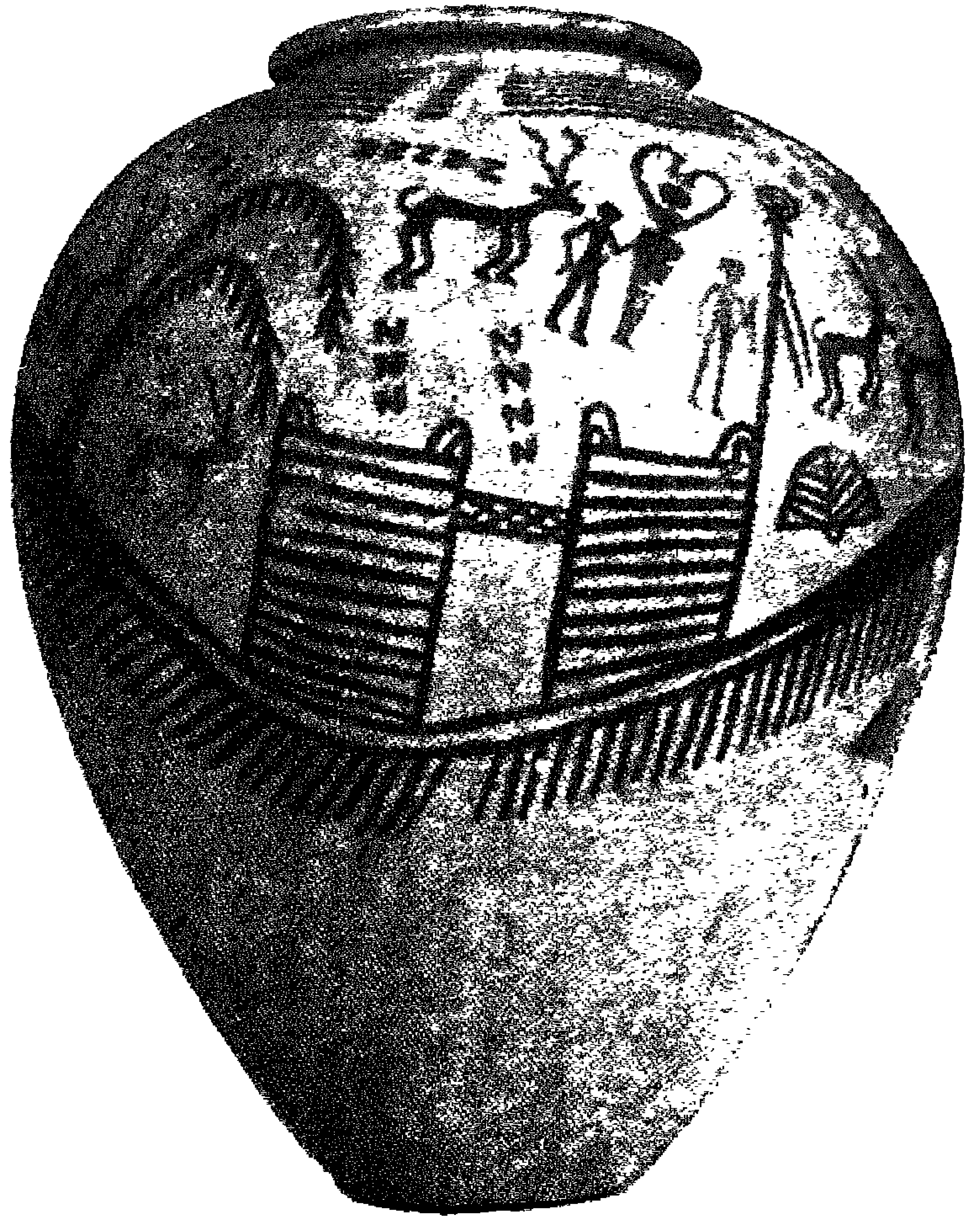

لوحة رقم ٢ :   إناء فخارى عليه رسوم من عصر ما قبل الأسرات .

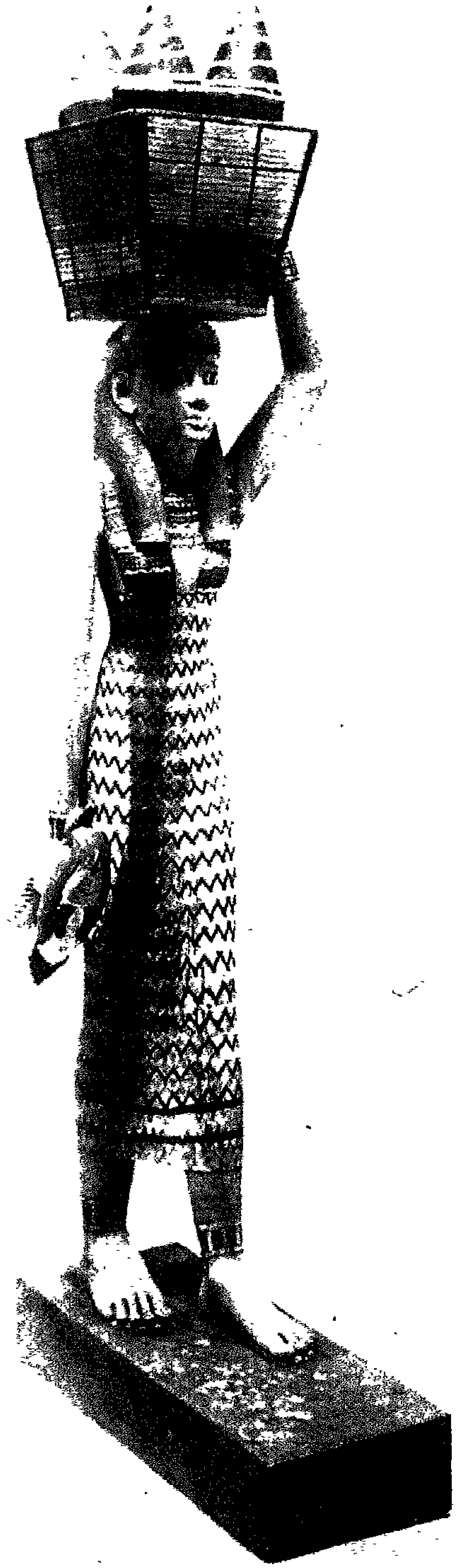

رقم ٣ : تمثال من الخشب الملون لحاملة القرابين من مقبرة « مكت رع » بالدير البحرى ــ حالياً فى المتحف المصرى .

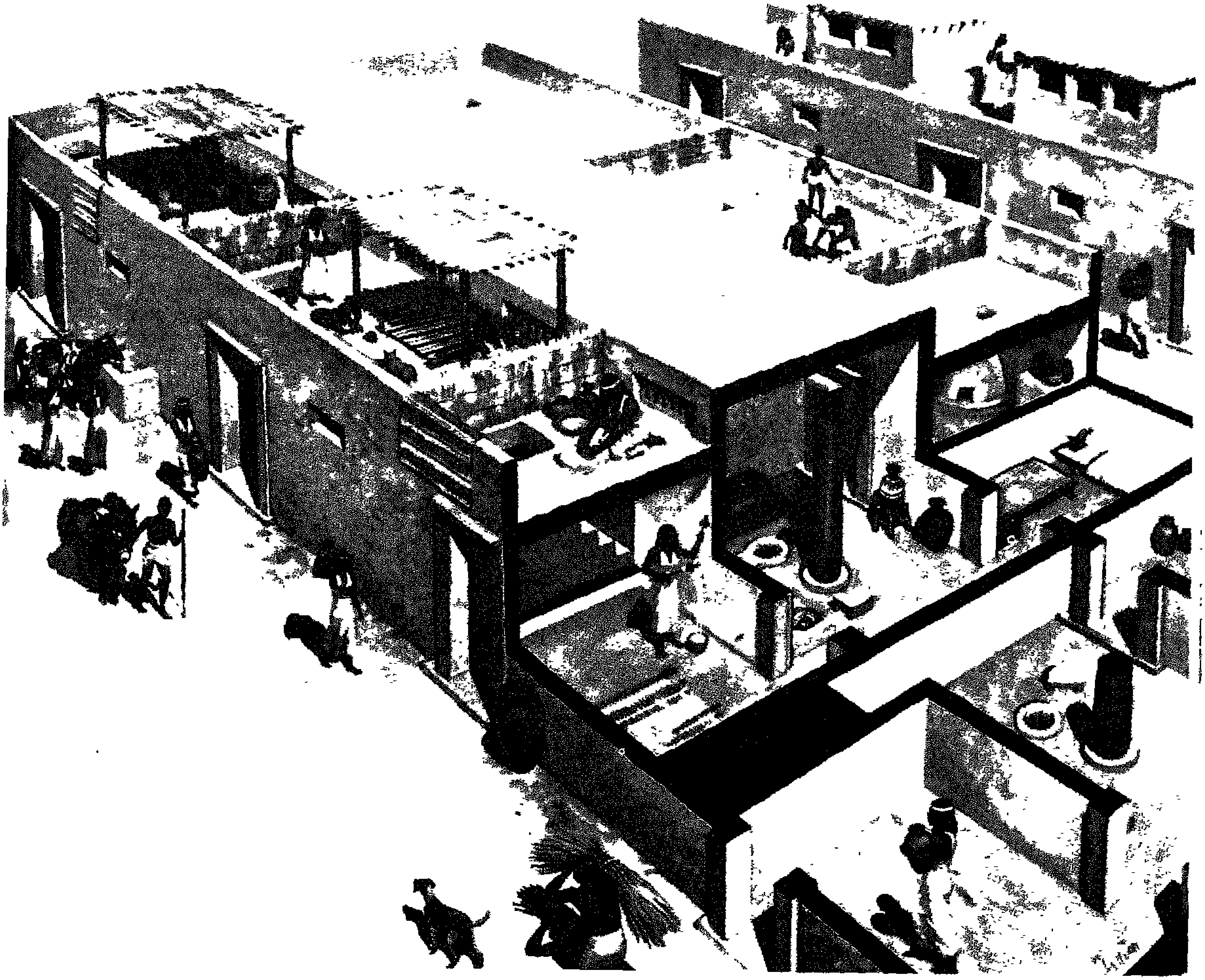

لوحة رقم ٤ : منظر تخيلى لمنزل أحد الأثرياء من الدولة الحديثة .

لوحة رقم ٥ : الجزء العلوى لتمثال ضخم من الحجر الرملى الملون ⟵
للملك أمنحتب الرابع (إخناتون) من الكرنك
ــ حالياً فى المتحف المصرى .

لوحة رقم ٦ : تمثال نصفى من الحجر الجيرى الملون للملكة « نفرتيتى » ــ من العمارنة ــ محفوظ فى المتحف المصرى ببرلين .

لوحة رقم ٧ ، ٨ : صلاية الملك « نعرمر » من هيراكونبوليس ــ محفوظة حالياً فى المتحف المصرى . ←

لوحة رقم ٧

لوحة رقم ٨

لوحة رقم ٩ :   تمثال من الحجر الجيرى الملون لكاتب من سقارة
ــ حالياً فى المتحف المصرى .

لوحة رقم ١٠ : تمثال خشبى للكاهن « كاعبر » من الدولة القديمة « شيخ البلد » ←
— حالياً فى المتحف المصرى .

لوحة رقم ١١ :   الملك حور محب فى رعاية الإله آمون
— من خبيئة معبد الأقصر
— حالياً بمتحف الأقصر.

لوحة رقم ١٢ : مجموعة هرم الملك زوسر بسقارة ـــ الأسرة الثالثة .

لوحة رقم ١٣ . تمثال للملك « زوسر » (جسر) من المعبد الجنائزى لهرمه المدرج بسقارة
ـ محفوظ حالياً فى المتحف المصرى .

لوحة رقم ١٤ : التمثال الوحيد للملك خوفو ←
ـ منحوت من العاج ـ الأسرة الرابعة
ـ حالياً فى المتحف المصرى .

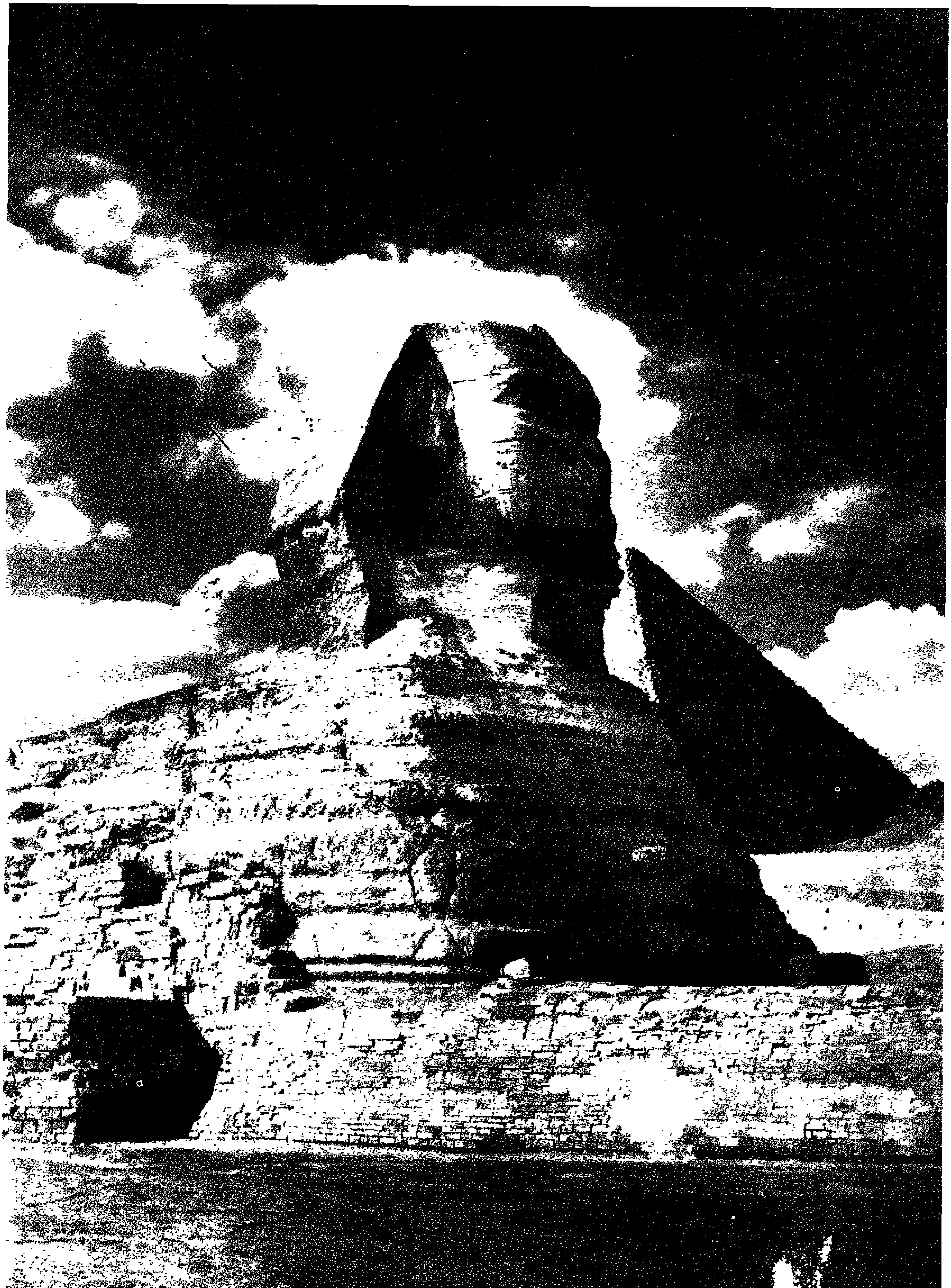

لوحة رقم ١٥ : أبو الهول العظيم ومن خلفه نرى هرم الملك « خوفو » بالجيزة .

لوحة رقم ١٦ : تمثال من الديوريت للملك « خفرع » ــ من الجيزة ــ حالياً بالمتحف المصرى.

لوحة رقم ١٧ : الرمسيوم ــ المعبد الجنائزى للملك « رمسيس الثانى » بغرب طيبة .

لوحة رقم ١٨ : منظر عام للمعبد الجنائزى للملكة حتشبسوت بالدير البحرى
ــ الأسرة الثامنة عشرة.

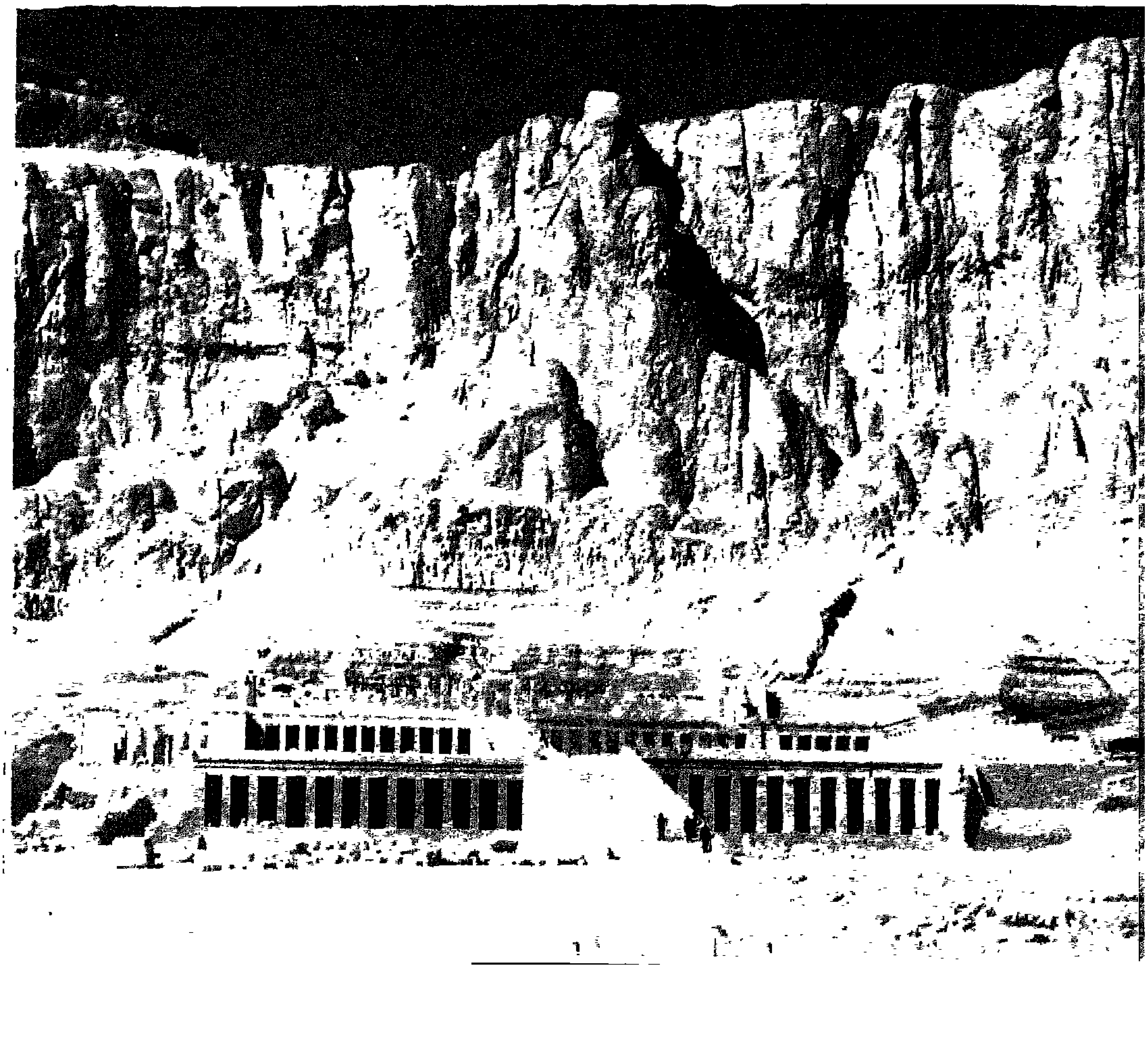

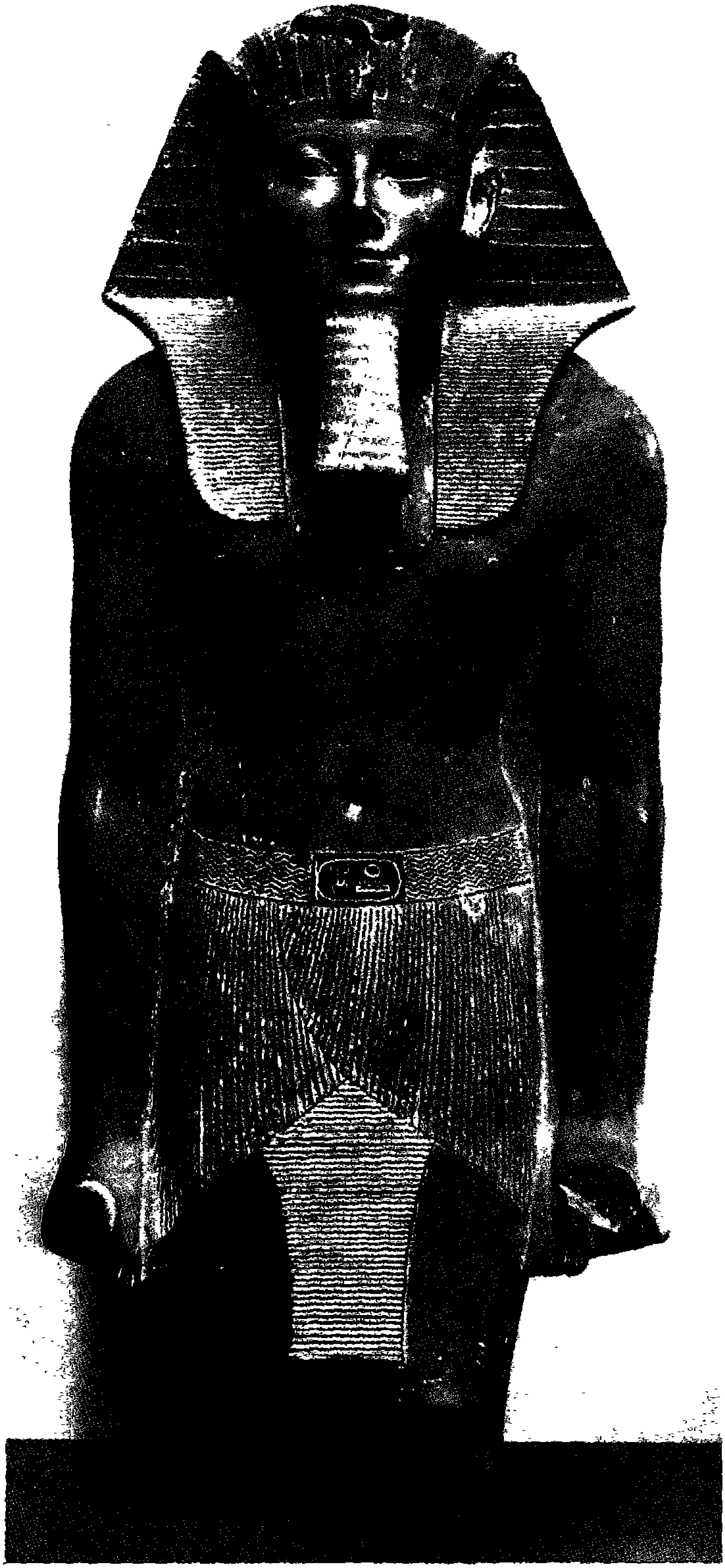

لوحة رقم ١٩ : تمثال للملك « تحتمس الثالث

ـــ من الكرنك

ـــ حالياً بمتحف الأقصر

لوحة رقم ٢٠ : تمثال من الحجر الجيرى للملك « سنوسرت الأول » من معبد هرمه باللشت
ـــ حالياً فى المتحف المصرى .

لوحة رقم ٢١ : رأس تمثال صغير للملكة تى ـــ عثر عليه فى سرابيط الخادم بسيناء ـــ حالياً فى المتحف المصرى .

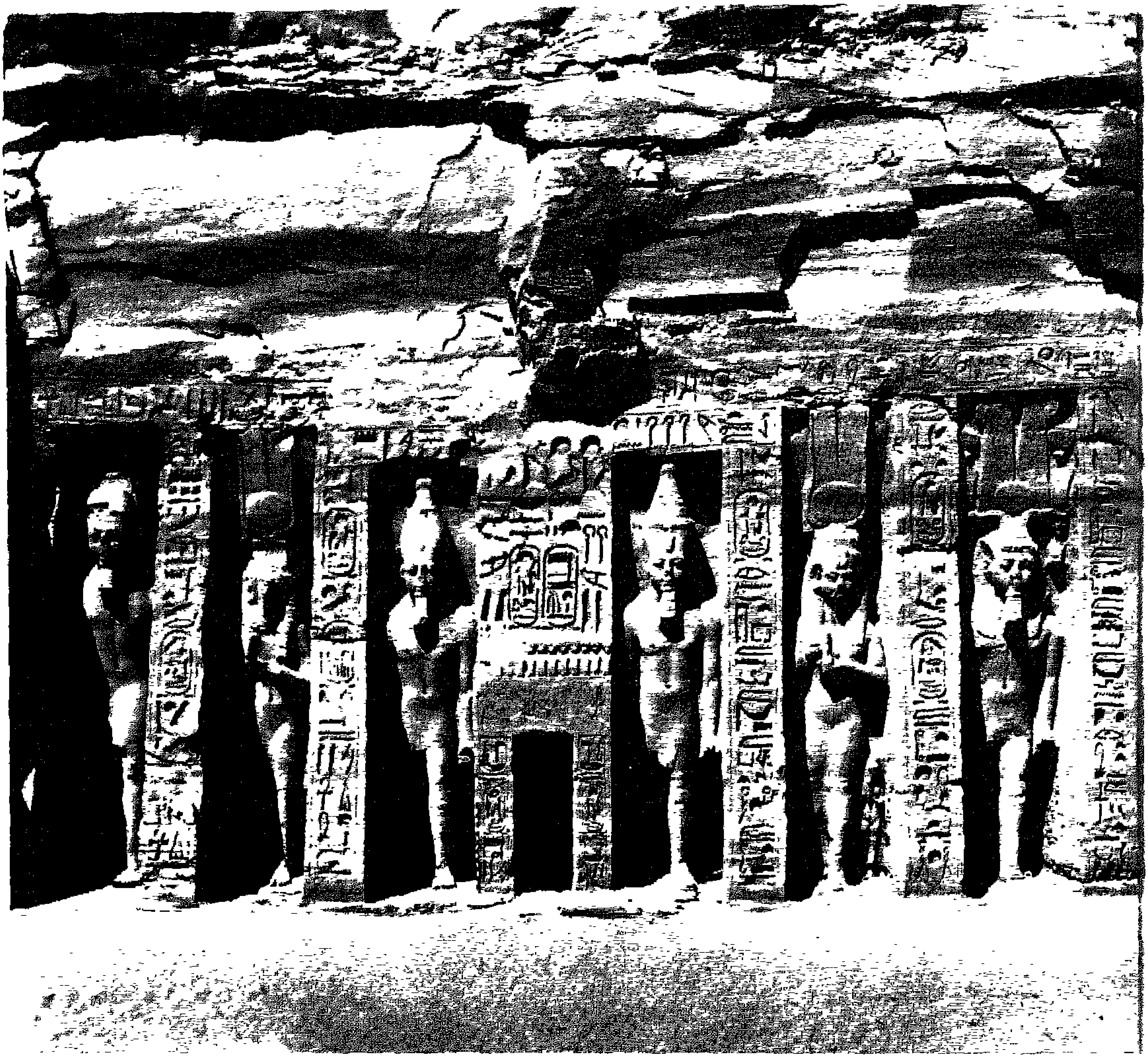

لوحة رقم ٢٢ :   معبد أبو سنبل الصغير الخاص بالإلهة حتحور والملكة نفرتارى
ـــ الأسرة التاسعة عشرة ـــ النوبة .

لوحة رقم ٢٣ : مومياء الملك رمسيس الثانى
ـ حالياً فى المتحف المصرى .

لوحة رقم ٢٤ : الملك منكاورع بين المعبودة حتحور ومعبودة أقليم بالصعيد ←
ـ حالياً بالمتحف المصرى .

لوحة رقم ٢٥ : نموذج خشبى لفرقة مصرية من حملة الحراب والدروع ــ من مقبرة مسحتى بأسيوط ــ حالياً بالمتحف المصرى .

لوحة رقم ٢٦ :   تمثال برونزى للمعبودة باسطه القطة
ـــ حالياً فى المتحف المصرى .

لوحة رقم ٢٧ : الملك أمنحتب الثانى يتدرب على الرمى بالسهام فوق عجلته الحربية .

لوحة رقم ٢٨ : كرسى العرش لتوت عنخ آمون ـــ الأسرة الثامنة عشرة ـــ حالياً فى المتحف المصرى .

لوحة رقم ٢٩ : أحد توابيت حفظ الأحشاء للملك توت عنخ آمون ←
ـ الأسرة الثامنة عشرة ـ حالياً في المتحف المصري .

الخــرائط

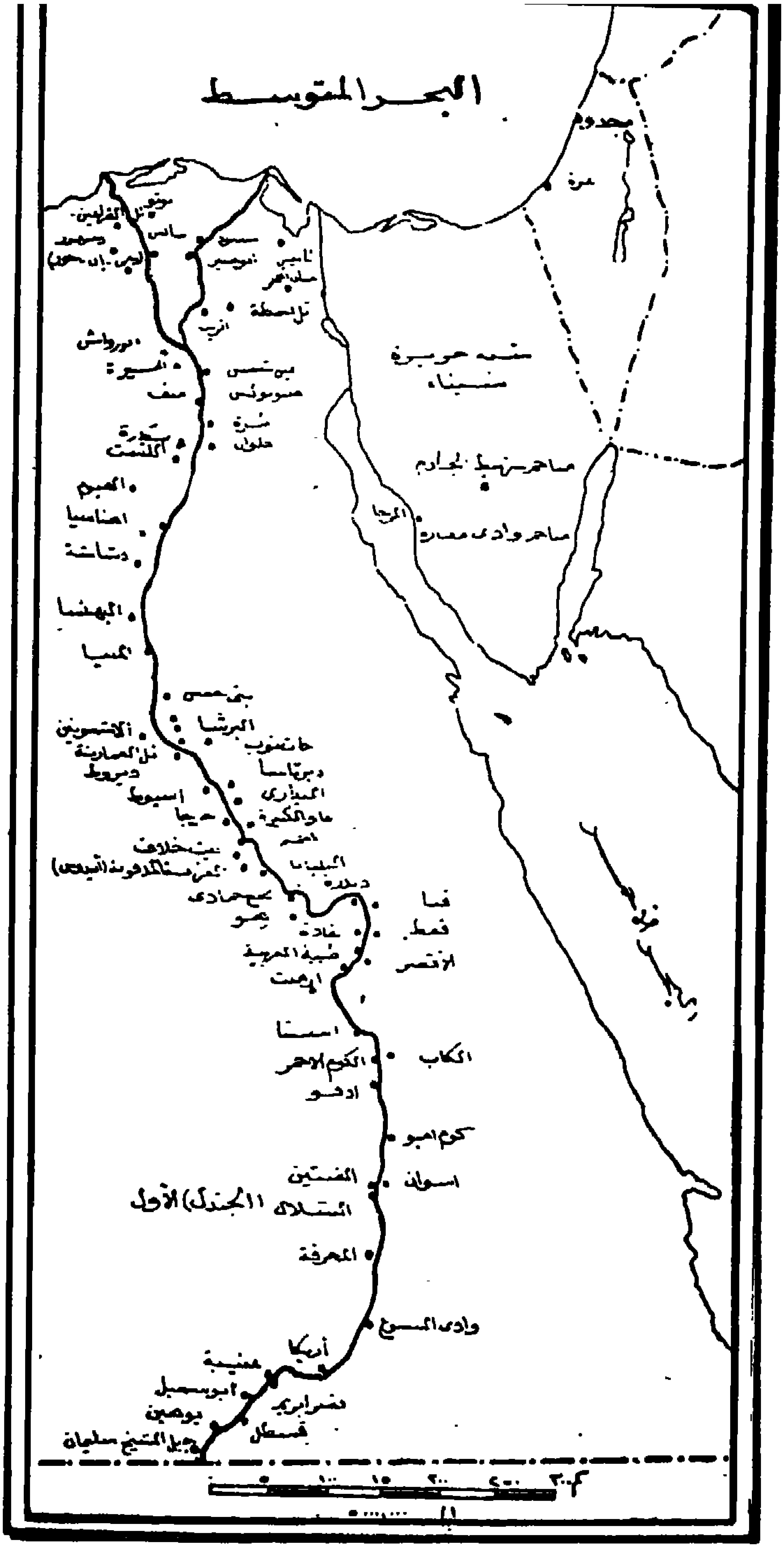

أهم المواقع الأثرية فى مصر القديمة

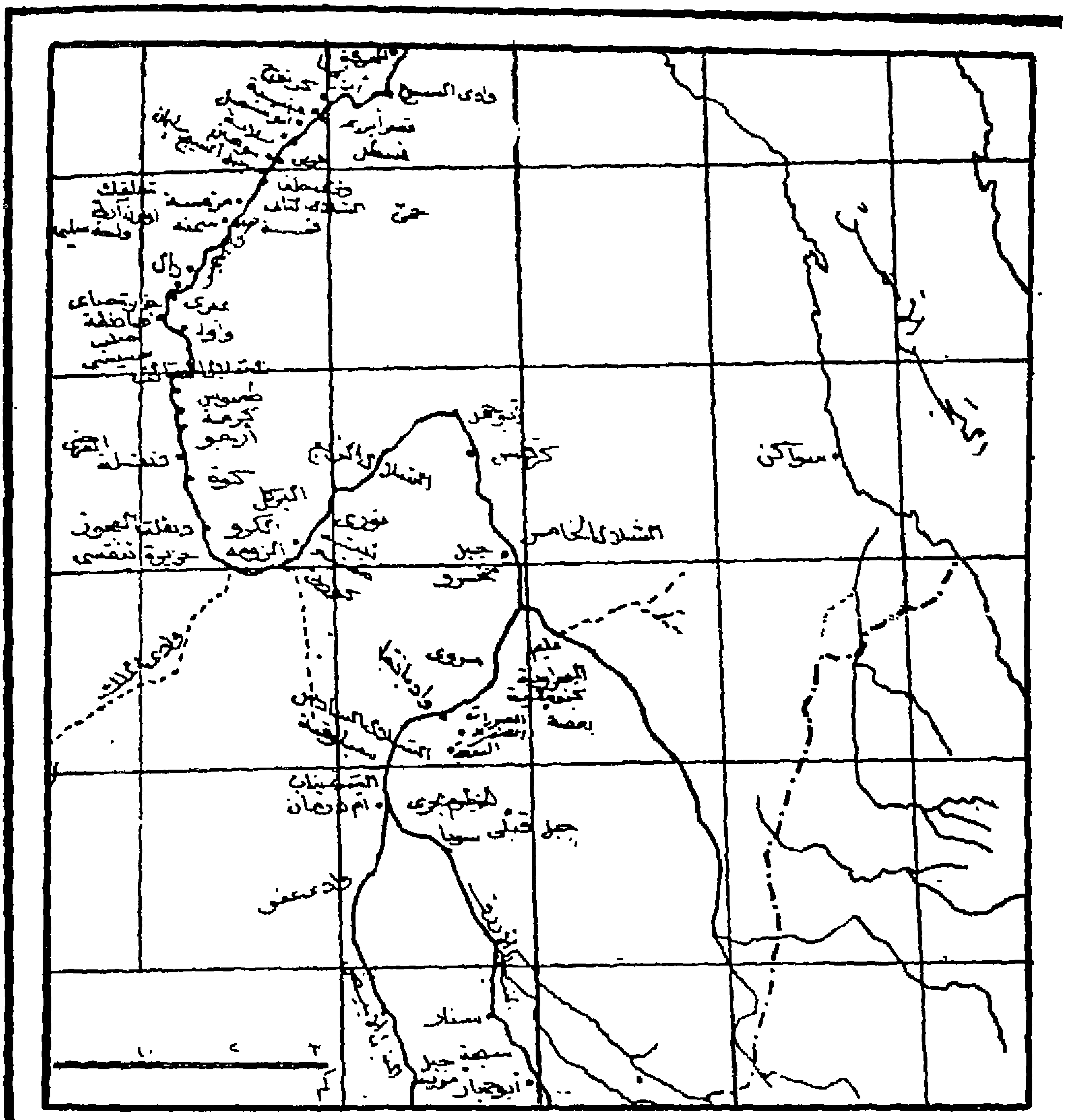

أهم المواقع الأثرية فى السودان القديم

خريطة للسودان القديم

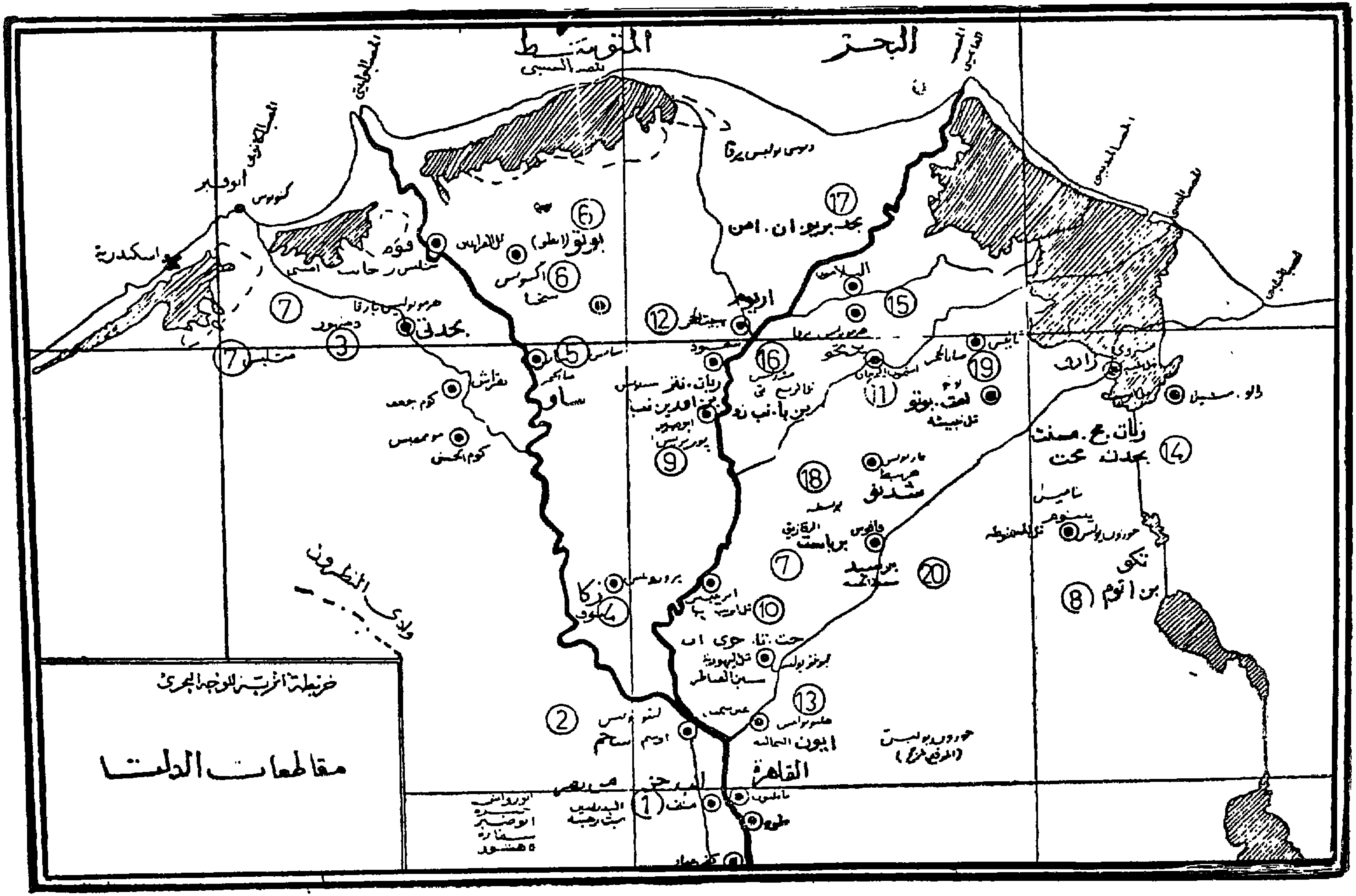

البحر المتوسط
اسكندرية
القاهرة
وادي النطرون
خريطة أثرية للوجه البحري
مقاطعات الدلتا

محتـــويات الكتـــاب

الموضوع	الصفحة
مقدمة المؤلف	١١
بداية الاهتمام بالحضارة المصرية فى العصر الحديث	١٣
فك رموز الكتابة المصرية	٢٣
التقويم عند قدماء المصريين	٣٣
أصالة الحضارة المصرية	٤٩
المعتقدات الدينية	٥١
نشأة الفنون وتطورها	٧٣
الهكسوس وأول غزو أجنبى لمصر	١٠٩
محاولات توحيد ممالك الشرق ووادى النيل تحت زعامة مصر	١١٧
الآداب فى مصر القديمة	١٢٥
نبذة اقتصادية ـــ حياة الفلاح ـــ ودور العمال	١٤٣
الغزو الفكرى لمصر للعالم الغربى القديم	١٥١
تأثير الحضارة المصرية القديمة على حضارات أفريقيا	١٥٧
وحدة حضارة وادى النيل	١٧٣
المومياوات الملكية	١٨٧
الصراع على السلطة	١٩٥
الأسماء والألقاب الملكية	٢٠٥
أسباب سقوط الدولة فى مصر القديمة	٢٠٩

الكشف عن الماضى فى تل بسطة ٢٢٧
نهاية العصر الفرعونى ٢٤٧
قصة اللعنة التى شاعت عند الكشف عن مقبرة توت عنخ ـ آمون ٢٥٧
قائمة بأسماء ملوك مصر ٢٦٢
الواحات المصرية ٢٧٥
زينة الأذن بين حضارات وادى النيل ٢٨٥
الملاحق ٢٩٧
(١) ظهور الحياة على سطح الأرض ٢٩٩
(٢) العصر الحجرى ٣٠٣
(٣) جدول زمنى :
الحضارة المصرية ٣٠٥
حضارة السودان القديم ٣٠٧
الهوامش ٣٠٩
المراجع ٣١٩
اللوحات ٣٢٢
الخرائط ٣٥٩
محتويات الكتاب ٣٦٥

سلسلة الثقافة الأثرية
مشروع المائة كتاب
صدر منها

١ ــ **المؤسسة العسكرية المصرية فى عصر الامبراطورية**
تأليف : د. أحمد قدرى
ترجمة : مختار السويفى ــ محمد العزب موسى
مراجعة : د. محمد جمال الدين مختار

٢ ــ **تراثنا القومى بين التحدى والاستجابة**
منجزات ١٩٨٢ ــ ١٩٨٥
اعداد وصياغة
د. أحمد قدرى
عاطف عبد الحميد
آمال صفوت

٣ ــ **الشرطة والأمن الداخلى فى مصر القديمة**
تأليف : د. بهاء الدين ابراهيم محمود
مراجعة : د. محمود ماهر

٤ ــ **الايجازات والتوقيعات المخطوطة فى العلوم النقلية والعقلية**
من القرن ٤هـ / ١٠م الى ١٠هـ / ١٦م
تحقيق ونشر : د. أحمد رمضان أحمد

٥ ــ **لمحات فى تاريخ العمارة المصرية**
تأليف : د. كمال الدين سامح

٦ ــ الديانة المصرية القديمة

تأليف : ياروسلاف تشرنى

ترجمة : د. أحمد قدرى

مراجعة : د. محمود ماهر

٧ ــ تاريخ فن القتال البحرى فى البحر المتوسط « العصر الوسيط »

(٣٥هـ / ٦٥٥م ــ ٩٧٨هـ / ١٥٧١م)

تأليف : د. أحمد رمضان أحمد

٨ ــ فن الرسم عند قدماء المصريين

تأليف : وليم هـ بيك

ترجمة : مختار السويفى

مراجعة : د. أحمد قدرى

٩ ــ نصوص الشرق الأدنى القديمة

ترجمة : د. عبد الحميد زايد .

مراجعة : محمد جمال الدين مختار

١٠ ــ الفوائد النفيسة الباهرة فى بيان حكم شوارع القاهرة

فى مذاهب الأئمة الأربعة الزاهرة

تأليف : أبى حامد المقدسى الشافعى

تحقيق : د. آمال العمرى

١١ ــ دراسات فى العمارة والفنون القبطية

تأليف : د. مصطفى عبد الله شيحة

١٢ ــ إيمحتب

تأليف : هارى

ترجمة : محمد العزب موسى

مراجعة : د. محمود ماهر

١٣ ــ الفن المصرى القديم

تأليف : سيريل ألدريد

ترجمة : د. أحمد زهير

مراجعة : د. محمود ماهر

١٤ ــ جبانة البجوات فى الواحة الخارجية

تأليف : د. أحمد فخرى

ترجمة : عبد الرحمن عبد التواب

مراجعة : د. آمال العمرى

١٥ ــ العمارة المصرية القديمة (جزء أول)

تأليف : د. اسكندر بدوى

ترجمة : د. محمود عبد الرازق ــ صلاح رمضان

مراجعة : د. أحمد قدرى ، د. محمود ماهر

١٦ ــ تاريخ مصر القديمة (الجزء الأول)

تأليف : د. رمضان السيد

١٧ ــ مصر الاسلامية (درع العروبة ورباط الاسلام)

تأليف : د. ابراهيم أحمد العدوى

١٨ ــ صفحات مشرقة من تاريخ مصر القديم

تأليف : د. محمد إبراهيم بكر

كتب تحت الطبع

١ ـ **واحة سيوة**

تأليف : د. أحمد فخرى

ترجمة : د. جاب الله على جاب الله

٢ ـ **المراسم منذ أقدم العصور حتى اليوم**

تأليف : د. ناصر الأنصارى

٣ ـ **الدليل العام لرشيد**

تأليف : عبد الرحمن عبد التواب

٤ ـ **تراث مصر القديمة**

النسخة الانجليزية اشراف : هاريس

النسخة العربية اشراف : د. محمد ابراهيم بكر

د. محمود ماهر

٥ ـ **المسلات المصرية**

تأليف : لبيب حبشى

ترجمة : د. أحمد عبد الحميد يوسف

مراجعة : د. محمد جمال الدين مختار

٦ ـ **مصر القديمة (دراسة طبوغرافية)**

تأليف : هرمان كيس

ترجمة : د. محمود عبد الرازق

مراجعة : د. جاب الله على جاب الله

٧ ـ **التناسب فى عمارة مدارس العصر المملوكى فى القاهرة**

تأليف : د. على غالب أحمد غالب

مراجعة : د. آمال العمرى

٨ ــ سجاجيد جورديز فى متحف محمد على بالمنيل

تأليف : كوثر أبو الفتوح

٩ ــ نهب آثار النيل

تأليف : بريان فاجان

ترجمة : عبد الرحمن عبد التواب ــ محمد غطاس

مراجعة : د. أحمد قدرى

١٠ ــ دراسات فى اللغة المصرية القديمة

تأليف : أحمد باشا كمال
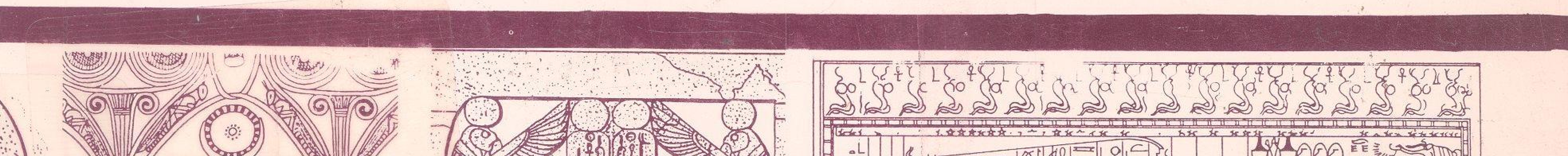
رقم الإيداع / ٨٨٦٨ / ١٩٩٢
دولى ٩٧٧ ـــ ٢٣٥ ـــ ٠٦٧
مطبعة هيئة الآثار المصرية